المجلس الأعلى للغة العربية

معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

في هذا العدد:

- هل العلم كوني أم إن لكل حضارة أدواتها المعرفية الخاصة
- مدخل إلى الفلسفة السياسية - ريمون آرون الديمقراطية و الثورة
- دراسات ثقافية بينية مقارنة
- الفيزياء و اللانهاية
- الحدود النهائية

العدد الثاني
شتاء 2010

المجلس الأعلى للغة العربية

معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

العدد الثاني – شتاء 2010

معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

- المدير المسؤول: محمد العربي ولد خليفة
- مدير التحرير: *مرزاق بقطاش*
- *رئيس التحرير*: عبد العزيز بوباكير
- *مستشار التحرير*: أزراج عمر
- *أمانة التحرير*: حسن بهلول

منى بدري

الهيئة الاستشارية

- ـ خولة طالب الإبراهيمي
- ـ محمد بن عمرو الزرهوني
- ـ عبد القادر بوزيدة
- ـ محمد هناد
- ـ رشيد بن مالك
- ـ أحمد برغدة
- ـ بوزيد بومدين
- ـ إنعام بيوض
- ـ السعيد بوطاجين
- ـ مختار نويوات
- ـ محمد يحياتن

مجلة معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي

تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

معايير النشر

- أن يتقيد المترجم بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها
- أن تكون الأعمال غير منشورة من قبل
- أن ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو مدير التحرير على العنوان المذكور أدناه
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة
- الملحوظة المقالات التي ترد إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

التحرير والمراسلة

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر

الهاتف: 25/24 07 23 21 (00213)   الناسوخ: 07 07 23 21 (00213)

ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

البريد الإلكتروني: maalem.csla@gmail.com

الترقيم الدولي الموحد للمجلات (ر.د.م.م) : 2170-0052

محتويات العدد

- افتتاحية العدد
- في سبيل هذه اللغة: مرزاق بقطاش.
- هل العلم كوني أم إن لكل حضارة أدواتها المعرفية الخاصة؟: جان مارك لوبلان، ترجمة: محمد العربي ولد خليفة.
- الفيزياء واللانهاية: جون بيير لوميني، مارك لاشييزري، ترجمة: أبوبكر خالد سعد الله.
- من الانترنت إلى غوتنبرغ (من سيقتل الآخر) : امبرتو إيكو، ترجمة: إيمان بقطاش.
- الحدود النهائية: ستيفان هوكينغ، ترجمة: مرزاق بقطاش.
- تجارب في الترجمة...
- "الروض العاطر" قصة توليد النص الروسي: ديميتري ميكولسكي
- ترجمة رواية: "نجمة" لكاتب ياسين: السعيد بوطاجين.
- سلطة المؤول "الحكايات النظرية :لستانلي فيش مارك إسكولا، ترجمة: نسيمة بلعباس.
- عن الديالكتيك في العمل الإخراجي: منفريد فكفرت، ترجمة الشريف الادرع.
- دراسات ثقافية بينية مقارنة: ايرل ماينير، ترجمة: عبد القادر بوزيدة.
- نظرية التناص: الأصول، التاريخ والنظريات: ناتالي بيغاي، ترجمة: عبد الحميد بورايو.

- ❖ مقدمة عامة لدراسة سيميائية المقروء والمرئي: جوزيف كورتيس، ترجمة: نادية بوشفرة.
- ❖ مفاهيم تداولية: دومينيك مانقينو، ترجمة: منى بدري.
- ❖ الناقدة ما بعد الكولونيالية غياتري سبيفاك، التفكيكية تتحدث فقط ضمن لغة الشيء الذي تنتقده ! :جوشان ري، وبيتر ازيورن، ترجمة أزراج عمر.
- ❖ مدخل إلى الفلسفة السياسية الديمقراطية والثورة: ترجمة :جيلالي نجاري.
- ❖ مبدأ العدالة: جون رولز، ترجمة محمد هناد.

في سبيل هذه اللغة

حين أعملنا الفكر في نطاق المجلس الأعلى للغة العربية من أجل إنشاء مجلة متخصصة في الترجمة تضطلع بانتقاء عينات من مستجدات الفكر العالمي ضمن جو يسوده الحوار ويميزه التواضع، كان هدفنا هو خدمة لغتنا في المقام الأول، وسيظل غايتنا دون أدنى شك.

وما أكثر ما جرى التساؤل فيما بيننا عن السبيل التي ينبغي انتهاجها في هذا الشأن، ذلك لأن الموضوع كله إنما هو موضوع حياة بأكملها، موضوع هوية ينبغي أن نعمل على ترسيخها حتى لا ندع مجالا لأي عامل من عوامل الشك فيما بيننا، وذلك إيمانا منا بأن اللغة جزء جوهري من هويتنا. وما أكثر ما رددنا فيما بيننا أنه لا ينبغي أن نخرج عن النهج الذي سارت عليه جميع الأمم التي تتصدر الحضارة العالمية في أيامنا هذه. وبالفعل، فهل يمكن أن توجد روسيا دون اللغة الروسية، وهل يمكن أن توجد الولايات المتحدة الأمريكية دون اللغة الإنجليزية-الأمريكية؟ وهل كان من الممكن أن تقوم حضارة عربية زاهرة في الماضي دون أن تكون محمولة على متن اللغة العربية؟

وكان أن بادرنا وألقينا بأنفسنا في بحر زخار بعد أن وضعنا نصب أعيننا بوصلة واحدة ليس إلا، هي بوصلة التحصيل العلمي بمعية عدد من أهل الاختصاص، تحدونا في ذلك رغبة متأصلة لخدمة لغة كثيرا ما قيل عنها إنها لغة متأخرة ينبغي أن تدخل المتحف على غرار عدد من اللغات الأخرى التي ما عاد لها وجود في زمننا هذا. وكان همنا في هذا الشأن هو كيف نفكر في مواضيع في قمة الحداثة بلغة عربية مطواعة لا تعجز عن قولبة هذه الفكرة أو تلك. وبالفعل، فقد سعينا، وسنظل سائرين على نفس الدرب، في سبيل أن نكون الوجه الآخر للغة بحكم أن الإنسان هو اللغة، واللغة هي الإنسان، إن تطور تطورت، وإن عجز أصيبت بالعجز هي الأخرى.

ولا نحب في هذا الشأن أن ندخل دائرة التنظير، ذلك أن الترجمة فعل في المقام الأول قبل أن تكون عملا تنظيريا بحتا، ولهذا السبب يوجد خلاف بين أهل الاختصاص في هذا الشأن عبر العالم كله، بمعنى أن المترجم الأصيل لا يمكن أن يكون منظرا، والعكس بالعكس. وما أكثر ما عقدت المؤتمرات والندوات ونوقشت

الأطروحات لمحاولة التقريب بين الطرفين، غير أن الواقع هو الذي كان صاحب الكلمة الفصل. إذ المهم في الأمر كله هو الكتب التي ينقلها المترجمون من مختلف اللغات، وليس الشطحات التأويلية التي لا تغني المترجم إلا في بعض الأمور التي لها علاقة باللغة من حيث هي لغة.

وعليه، قلنا فيما بيننا إن انتقاء مواضيع معينة من مختلف اللغات وترجمتها إلى اللغة العربية أمر كفيل بأن يدفعنا إلى إيجاد مقابلات لغوية لمضامينها في اللغة العربية، ونحت مقابلات لغوية أخرى تكون وليدة نظرة إلى الوجود تخصنا بالدرجة الأولى. ومن ثم، نكون قد فكرنا بلغة عربية في مواضيع فكرية وعلمية حديثة جدا. أجل، غايتنا هي أن نفكر بهذه اللغة، أي أن نقف بدورنا على أرضية الحداثة. كيف نفكر في مواضيع تتعلق بعلوم الحياة والكون وفيزياء الكموم والأرض والانفلاق النووي وغيرها من فروع الفكر والعلم بلغة عربية؟ ذلكم هو السؤال الذي ما فتئ يحدونا في مسيرتنا المتواضعة من أجل أن تكون العلاقة بيننا وبين اللغة العربية علاقة جوهرية وطيدة.

وإذا كانت الترجمة جهدا فكريا عظيما يميز الحياة الإنسانية كلها على سطح هذا الكوكب، فالأحرى بنا أن يكون لنا دور أساسي فيها بحكم أنها تساعدنا على أن نضع أقدامنا في هذا العصر كأناس فاعلين، أي أناس يفكرون بلغتهم لكي لا نكبر أربعا على وفاتنا.

والعدد الذي بين يدي القارئ يندرج ضمن هذا النهج بالذات، فقد أولينا اهتمامنا بقدر الإمكان لعدد من المواضيع التي تشغل بال الإنسانية، ومن ثم بالنا نحن، وحاولنا قدر الإمكان أن نكون شديدي الدقة في ترجمتها إلى اللغة العربية حتى تكون حافزا على النظر في حقائق هذا العصر، ومن ثم، عاملا على التفكير بلغة عربية يفهمها الجميع ويتذوقها القراء. وهل اللغة إلا الإنسان؟ وهل الإنسان إلا اللغة التي يفكر بها ويجعلها قوام حياته الفكرية؟

مرزاق بقطاش

هل العلم كوني(*)
أم إن لكل حضارة أدواتها المعرفية الخاصة؟

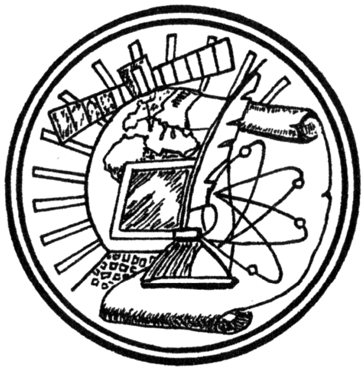

. جان مارك لوبلان* J.-M. Leblond ترجمة: د. محمد العربي ولد خليفة

كتب إرنست رينان (E.Renan) في مؤلفه عن "مستقبل العلم" 1948 (L'avenir de la science) ما يلي: " يندرج العلم ضمن الحقائق الثابتة، فهو مستقل عن كل ما يحدث من تغير في المجتمع، وهو أزلي كما هو الحال في الطبيعة الإنسانية نفسها" ([1]) ، لقد بقيت كونية العلم اُعتقادا راسخا على نطاق واسع تدافع عنه الكثير من الآراء حتى نهاية القرن الماضي.

لقد عرف العالم خلال القرنين الماضيين تحولات واسعة وعميقة الأثر، شملت الأنظمة الاجتماعية والقيم الروحية والفنون الجمالية، وبقيت حقائق العلم الثابت الوحيد، وقد عبّر الفيزيائي ف.ج كوري F.J. Curie ([2]) بعد قرن من سلفه الفيلسوف "إ. رينان" عن هذا الرأي بالقول بأن المعرفة العلمية الخالصة هي المصدر الوحيد لاُطمئنان العقل والأداة الأنجع للتخلص من الخرافات والمخاوف الوهمية، وللتعرف بدقة على هذا الكون وموقعنا فيه، بل إن العلم هو المعطى الأساسي، وربما الوحيد لوحدة الفكر بين البشر بتعاقب أجيالهم على كوكب الأرض([3])

ينبغي أن لا نطلق العنان لليقينيات السابقة، فهناك مشتركات عامة في الثقافة الإنسانية نجدها كلما تمعنا في أشكال التنظيم السياسي وأصل الأساطير والعادات، وحتى الأديان ونزوعاتها الروحانية والآداب والفنون، نلمس ذلك بوضوح كلما اُبتعدنا عن المدخل الاثنولوجي، ولم نقتصر على العامل العنصري في تحليل الموروث الثقافي بأشكاله السابقة.

ولكن ألا تبدو كونية العلم أكثر وضوحا ووثوقية؟ ألا يزودنا العلم بمعارف موضوعية قابلة للتحقق منها، ومما حققه تراكم الاكتشافات والابتكارات من تقدم؟ إن نظرية فيثاغورس (Pythagore) ومبدأ أرخميدس (Archimède) وقوانين كيبلر (Kepler)، هي حقيقة هنا والآن، كما كانت حقيقة هناك وبالأمس.

غير أن هذا الحكم الوثوقي ليس نهائيا، إذ لا بد من طرح جملة من التساؤلات: ألا تبدو تلك الوثوقية محلية وخاصة بأوربا الغربية وثقافتها اليونانية اليهودية المسيحية؟ ألا تتراجع الوثوقية بكونية العلم، إذا تتبعنا مجموعة من المعارف ترجع أصولها إلى حضارات ومجموعات بشرية، مثل قبائل التبت والماوري والأستيك؟ ألا تتفرّد كلّ الثقافات الإنسانيّة بمنظومة مفاهيميّة تخصّها وحدها؟

على الرغم من أن القرن الواحد والعشرين قد توّج العلم الغربي بإمتياز الكونية، بل يكاد يعتبره الوحيد الذي يستحق صفة العلم الموضوعي، فقد أثبت مؤرخو العلوم أهمية وثراء التقاليد العلمية الأخرى في الهند والصين والمنطقة العربية الإسلامية، وكلها أمدت بطريقتها الخاصة النهر الكبير للعلم، وكانت المنابع التي غذت مجراه قرونا عديدة، ويرى البعض أن إهمال تمايزها ومساهمتها يرجع في الحقيقة إلى تحقير امتدادها التاريخي ([4]) ، ولكن هذه النزعة أخذت في التراجع خلال القرن العشرين بسبب تزايد التخصص في المجالات العلمية.

لن نصدر حكما متعجلا على مدى علمية المعارف غير الغربية، وسوف نكتفي في هذه الورقة بمتابعة مجالين فقط هما الرياضيات وعلوم الطبيعة، لتفنيد الأطروحات المؤيدة لكونية العلم، أما مناهج ونتائج العلوم الاجتماعية فليست في حاجة للبرهنة على خصوصيتها التاريخية والراهنة ومن الصعب وصفها بالكونية (..).

وجدنا في رحلتنا الدراسية إلى اليابان في معابد الشنتو وبوذا مجموعات من الألواح تستخدم كقرابين للآلهة تارة مرسومة، وتارة أخرى منحوتة، تزينها العديد من الرسوم والزخارف تقدم مناظر للطبيعة البحرية وصورا للفوجياما ومجموعات من الخيول الراكضة إلى جانب أشكال هندسية معقدة ومثلثات وأهليجيات ودوائر بتوزيع غاية في الدقة والجمال، أما النص المرافق لتلك الأشكال فهو عبارة عن مسألة رياضية بدون ذكر برهانها.

تعود هذه الألواح والمسائل الهندسية والرياضية التي تسمى السانغاكو Sangaku إلى حقبة الإيدو (Edo) بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وهي الحقبة التي أنعزل خلالها اليابان بمحض إرادته وأنقطع تماما عن المؤثرات الخارجية من البلدان القريبة منه أو البعيدة، وأنطوى تماما داخل حدوده، وتمكن في نفس الوقت من تطوير إبداعاته الثقافية الأصلية، مثل مسرح النو "No" وشعر الهايكو "Haïko" ونوعا من الرياضيات يدعى الواسان يهتم أساسا بالخصائص المترية والاسقاطية للأشكال المسطحة وثلاثية الأبعاد، وأبدع كذلك في نسقية الأرقام والأشكال وتثبت الألواح أن البعض منها يقدم أطروحات هندسية ورياضية سابقة عما توصل إليه الغرب بقرنين ([5]) .

مفهوم جمالي للأرقام

بالإضافة إلى المضامين الرياضية للألواح فإن ما يثير الانتباه هو جمالياتها ووظيفتها، لنتخيل أننا أمام نذر في صورة مستقيم إلير (Euler) أو مثلث باسكال (Pascal)، هذه التحف في نظرنا نحن الغربيين هي تحف فنية حقيقية، هذا هو حال السانغاكو إنها تقدم مفهوما جماليا للرياضيات تتافس في إتقانه عدد من مدارس تلك الحقبة وشارك فيه الكثير من أساتذة الرياضيات والهواة في يابان القرون من السابع عشر إلى التاسع عشر حيث تختفي الجوانب التطبيقية والمنظور الفلسفي وراء المقدس والتأويلات الروحانية نجدها على سبيل المثال في الترقيمية الرمزية لأغراض السحر وقراءة الطالع.

لا تستهدف الإشارات السابقة إعادة الاعتبار لمنتوج تلك الثقافة، وإنما التنبيه إلى أن فكرة كونية العلم ترجع في جوهرها إلى الاعتقاد بتفوق الغرب وقدراته على الوصول إلى فتوحات معرفية لا حدّ لها.

لننظر إلى أشكال تطويع الطبيعة واُستغلال مواردها من صيد وجني للثمار وري وزراعة وهي تتطلب معرفة دقيقة بخصائص التربة والنباتات والحيوان، قبل ظهور الأنظمة التجارية والصناعية الحديثة، وتقتضي كلها معارف أولية مهدت لما نسميه اليوم علوم النبات والحيوان والفلك الذي ينظر في حركة الأفلاك والنجوم، بل هناك ما يشبه علم الإحصاء الحديث ومنظومات رياضية تجريدية قريبة من علم الجبر وتشير فنون العمران إلى ما يقترب من الهندسة الحديثة، كما اعتمدت الألعاب الفكرية على أصول علم المنطق ويجد علماء الآثار (الأركيولوجيا) في تقنيات تشكيل الخشب والحديد والفخار ما يدل على معرفة بخصائص المواد المستعملة تقترب من علم الفيزياء.

نجد في أنظمة الترقيم ([6]) ما يؤكد أن لكل ثقافة أدواتها الخاصة ومساهمتها النوعية في كونية العلم، فنحن نعرف أن قاعدة العشرة –10– المستعملة في الأنظمة الرقمية الحديثة تتطابق مع أصابع اليدين وهي ليست قاعدة عامة، والأمثلة على ذلك كثيرة فشعب اليوكي (Yuki) من هنود شمال أمريكا (كاليفورنيا الحالية) يستعمل نظاما رقميا يقوم على قاعد الثمانية -8– فهم لا يحسبون أصابع اليدين بل ما بينهما، والبابليون يستعملون قاعدتي إثني عشرة –12– وستين –60– (25= 20+5)، وعند الشياب يكون الحساب بالعشرينات ولكنه مربوط دائما بالوحدة الأعلى.

وفي ثقافات أخرى يرتبط العد بالمعدود، أي بما يدل عليه عن طريق الزوائد، فعند الماوري هناك نوعان من الأعداد، أولها يدل على البشر والثاني على الكائنات الأخرى، ولدى الديوا Dioi في جنوب الصين هناك أكثر من 55 صنفا من الأعداد نذكر منها:

- ديون، قروض، محاسبة.
- تركيب، أسوار، أراضي.
- غليون الأفيون، الصفارات، ...الخ

- حقول الأرز.
- ملابس، أدوية.
- أرواح، رجال، عمال، لصوص
- بنات، نساء ، فتيان.
- طرق، وديان، جبال.
- أطفال، قطع نقدية، أحجار صغيرة
- ثنائية من الأشياء ...إلخ.

والقائمة الكاملة تتجاوز بكثير ما ذكره كل من بورج Borges واعتمدها فـوكو (M.Foucault).

صيرورة العلم عند الإغريق والرومان والمسلمين

إن علم الأعراق بنزعته الاستعلائية وميله للوصاية على الثقافات التي يسميها بدائية أو أدنى يجزم بعجز تلك الثقافات عن التجريد وٌاستقلال المعدود عما يعدّه، ولكن مثل تلك الأحكام تغفل عن علاقة العدد بالمعدود والخصائص الثقافية لكل مجتمع، ولعل هذا هو السبب في تعدد تعاريف مصطلح علم التي تقترحها القواميس المختصة واللغوية، فإذا كانت العناية بعلم الفلك في الحضارة البابلية تستهدف التنجيم وقراءة الطالع، فإن جوهر علم الهندسة في الحضارة اليونانية فلسفي وليس تطبيقي، وبالتالي فإن مصطلح "علم" له دلالات مختلفة وأشكال تنظيمية متباينة لإنتاج معارف جديدة لها توظيفات مختلفة حسب حاجات وثقافة كل مجتمع.

إننا نفضل إطلاق كلمة العلوم التحضيرية (Proto–sciences) ([7]) على المعارف النفعية التي يمكن التحقق من جدواها، وخاصة عند النظر في قسم كبير منها المنفصل عن جانبه العملي، وبهذا المعنى فإن الرياضيات اليونانية هي التي أسست المفهوم الأساسي للبرهان، وبلغت أوجها في مبادئ إقليدس وهي الرياضيات المعتمدة إلى اليوم، فهل هي المعجزة التي مهّدت للقطيعة النهائية مع ما سبقها وما أتى بعدها ومكنت الحضارة الغربية من ولوج عصر العلم والنهضة؟ الجواب بالنفي فقبلها ٱكتشف المصريون القدماء طرقا معقدة لحساب مساحات الأراضي ذات الأشكال المختلفة، وعلى الرغم ممّا وصلت إليه تلك الهندسة من دقة ووضوح، فإن بعضها لا يخلو من الأخطاء، فقد بقيت آلاف السنين على العموم في مرحلة التجريب وتقتصر على أهداف نفعية مباشرة ([8]) .

وللتأكد من الانطلاقة الاستثنائية للحضارة اليونانية يمكن أن ننظر إلى ما بعدها ويتعلق الأمر بالثقافة الرومانية التي تميزت بضعف الٌاهتمام بالعلوم المجردة وندرة المساهمة فيها وحتى في ميادين الأدب والفلسفة، فإن الرومان أكتفوا بالنقل من التراث اليوناني.

ويقدم لنا هذا المثال دليلا على عدم وجود علم كوني بتجاوز الحدود الجغرافية والتاريخية التي نشأ فيها، فهناك حضارات كبرى لم تنتج أية تطبيقات أو نشاطات فكرية، ولم يمنعها ذلك من الازدهار وامتلاك أسباب القوة.

بإمكان أي باحث أن يذكر أسماء سلاسل طويلة من العلماء والفلاسفة الإغريق، مثل طاليس وفيثاغورس وإقليدس وجالينوس وأرخميدس ومئات غيرهم... ولكن من الصعب أن يجد علماء من الرومان ساهموا في تقدم العلم واكتشاف حقول جديدة ولو بحثنا في سجل الرومان العلمي سنجد عالم الطبيعيات بلاين (Pline) والمعماري فيتروف (VITROV) وعالم الزراعة كولومال (Columelle) ولم يبق الكثير ممن يستحقون الذكر، حقا لقد سيطرت روما على معظم القارة الأروبية وحوض المتوسط وهزموا الإغريق والقوى الأخرى التي عاصرتهم، ولكنهم اُكتفوا باُقتباس فلسفة اليونانيين وشعرهم وأساطيرهم وقلدوا فنونهم في النحت والعمارة.

على العكس تماما من ذلك أعطت الحضارة العربية الإسلامية اُبتداء من القرن الثامن للحضارة الإنسانية ثروة معرفية وبعدا علميا للثقافة، ولم تقتصر على نقل العلوم العتيقة اليونانية أو الهندية، بل ساهمت بطريقة تثير الإعجاب في اُزدهار العديد من التخصصات العلمية مثل الرياضيات والفلك والطب والبصريات والجغرافيا وقد كتبت كل تلك العلوم الجديدة باللغة العربية من سمرقند إلى سرقسطة وتفوق رياضيون عمن سبقهم، من بينهم الخوارزمي في القرن الثامن أوعمر الخيام الرياضي الشاعر في القرن الحادي عشر، وعلماء في الفيزيا مثل اُبن الهيثم في الجبر والبصريات في القرنين العاشر والحادي عشر والقائمة طويلة، لقد اكتشفوا تخصصات علمية جديدة وأضافوا إليها الكثير ([9]).

لم تتواصل تلك الاُنطلاقة المعرفية القوية بسبب ما أحاط بالعلم العربي الإسلامي من عوامل إيديولوجية وسياسية مختلفة تماما عما عرفه العلم الأروبي في القرون التالية، وتنطبق نفس الملاحظات السابقة على العلوم الصينية التي واصلت تطورا مستقلا حتى التواجد الكثيف للأروبيين واليهود، اُبتداء من نهاية القرن السابع عشر.

أما العلم الموصوف بالحديث فقد نشا في أروبا اُبتداء من القرن السابع عشر بمنطقة الغال واُمتاز بخصائصه المرتبطة بالمجتمعات الأروبية، من بين تلك الخصائص بوادر الحرية الشخصية والتزايد في طبقات الحرفيين والعمال اليدويين وسكان الحضر والنشاطات الإنتاجية التي أصبحت تحظى بشرف وباهتمام وتقدير كبير، كما أشار لذلك غاليليو في نص شهير حول ترسانة البندقية ([10]).

في تلك الفترة أي قبل حوالي ثلاثة قرون بدأ الاُرتباط بين العلوم الجديدة والتكنولوجيا، وتحويل التجربة إلى خبرة مصحوبة بالملاحظة الميدانية ومناهج الاستقراء والتحقق المتطورة، وهي بدورها لا تخرج عن السياق الإيديولوجي والتمثلات الدينية المؤيدة للعلم، نجد ذلك في فكرة غاليليو عن الطبيعة باعتبارها كتابا كبيرا وفي برنامج فرانسس بيكون عن نتائج التطبيقات العلمية والتي تتجلى في مقولته الشهيرة العلم قوة (Knowledge is power)، وفي نداء ديكارت للإنسان ليكون سيد الطبيعة ومالكها، (Devenir comme maitre et possesseur de

la nature) ولا ريب أن مثل تلك الأفكار هي التي أسست لعصر المكننة والتصنيع وفتحت الأبواب للرأسمالية الناشئة.

إن هذه الحلقات المتتالية والمتباينة للتراكم العلمي، تؤكد حدوث تطور متواصل ومتجانس في مضامينه المعرفية، فمهما اتسمت حلقات الثقافة العلمية بكثافة منتوجها وتعدد أساليبها فإنها تنتهي إلى قاعدة علمية عامة قبل أن تؤدي إلى تطبيقات عملية، ولكن في التاريخ الطويل للعلم فإن مراحل الاضطراب والقطيعة أكثر من مراحل الانتعاش والخصب.

لقد حاول جوزيف نيدام (J.Needham) 1900 – 1990 ([11]) إثبات ريادة بعض العلوم التي نشأت في الصين القديمة والتنويه بسبقها ومدى اُستفادة العلوم الغربية منها، ولكن على الرغم من تأكيده على سلامة نواياه، فإن عرضه يبدو تحقيريا جدا، فهو ينكر في النهاية على علوم الصين مميزاتها الابتسمولوجيه وسياقاتها الاجتماعية، وهي مميزات لا تسمح للدارس النزيه باعتبارها مجرد رافد صغير للنهر الكبير للعلم، وهو ما يصدق أيضا على العلوم العربية الإسلامية، إن اعتراف المتأخرين، من المسلمين بأهمية وفائدة العلوم الغربية ينبغي أن لا يدفعهم لإنكار خصوصيات المنتوج العلمي للمتقدمين من أسلافهم وتثمين مساهماتهم الكبيرة في تقدم العلم الحديث؟

هل بالإمكان التواصل والتبادل مع كائنات خارج كوكب الأرض؟

تتضاءل فكرة كونية العلم إذا ذهب بنا الخيال العلمي بعيدا وافترضنا وجود أشكال حياة في كواكب أخرى تتميز بالذكاء، وهذه المسألة من بين القضايا التي تحظى باُهتمام العلماء منذ أمد بعيد، ولنتخيل أن تلك الكائنات الذكية هي من اللافقريات ولها بنية بيولوجية قريبة إلى حد ما من بنيتنا نحن سكان كوكب الأرض ألا يؤدي التطور والتراكم المعرفي لتلك الكائنات لتنمية قدرات وإقامة نظم وتطوير معارف دقيقة بالمحيط الذي تعيش فيه، وبالتالي تكوين ما نسميه نحن أهل الأرض: الحضارة.

من الممكن أن تطور تلك الكائنات الكوكبية حواسا مختلفة عن حواسنا، فمثلا في أعماق المحيطات المظلمة تكون حاسة البصر ثانوية أو غير مجدية أصلا، بينما تعوضها حاسة اللمس، ولن يؤثر ذلك على وسائل التواصل بينها، وعلى طرق إدراك العالم المحيط بها، وبالتالي سيأخذ تطور العلوم لدى تلك الكائنات منحي مخالفا تماما لما هي عليه علوم البشر من سكان سطح الأرض، ومن المحتمل أن تحتل الكمياء مركز النشاط العلمي وتكون ميكانيكا السوائل لها الأولوية على ميكانيكا المواد الصلبة.

سيشهد تطور علم الفضاء تطورا مستمرا ويتطلب أدوات تقص وشديدة التعقيد، وأما اللغة المستعملة وأيا كان تصنيفها لدى الفيزيائيين – (تكون على الأرجح غير سمعية) – فإنها ستكون على الأرجح على شكل رموز وروابط ذهنية وبنيات معلوماتية مختلفة تماما عن تلك التي عرفناها إلى حد الآن، إلى درجة يستحيل معها التبادل بين السمعي

والحسي ومن الواضح أنها تستعصي أيضا على الترجمة التي تتطلب الفهم وهو غير ممكن بين ثقافتين من عالمين لم يحدث بينهما أي تبادل.

خـــــلاصــــــــــــــة

لقد اُتجه الكثير من العلماء إلى التسليم بكونية العلم، فنحن نشهد أن الفزيائيين يدرسون نفس المواضيع ويستعملون نفس الأدوات من جنيف إلى شيكاغو، وعلماء الأحياء يجرون نفس التجارب من طوكيو إلى باريس، كما يستعمل الفلكيون نفس المراصد في هاواي أو الشيلي، إلاّ أن هذه الكونية لا تمثل في الحقيقة سوى اُنتصار وتفوق العلوم الغربية التي ظهرت في أروبا واُنتقلت بعدها إلى الولايات المتحدة. إن هذا الانتصار والتفوق ليسا مضمونين على مرّ الزمن، ولن يكون مصيره أفضل من مصير الحضارة الإغريقية والصينية والعربية الإسلامية وهي اليوم وبعد أربعة قرون من التطور والازدهار تلوح على قسماتها إنذارات الاُحتضار، إن فعاليتها القوية التي سمحت لها ابتداء من القرن التاسع عشر بتحقيق مشروعي ديكارت وبيكون تتحول الآن إلى ضدها.

إن المتطلبات التجارية والتحولات الاجتماعية تضع اليوم التقدم العلمي تحت رحمة معيار الإنتاج والإنتاجية، كما أن التلهّف على الربح يقلل من الاهتمام بالبحث العلمي الأساسي (النظري)، لأنه لا يضمن ربحية سريعة وآنية، و سوف يؤدي ذلك إلى تفكك الروابط بين الفكر والفعل، وهي الخاصية التي حققت التقدم والتفوق للعلم الغربي طيلة القرنين الماضيين.

وبما أن المعرفة العلمية تمكنت من تزويد مجتمعات أخرى في أزمنة وأماكن أخرى بوظائف فكرية عملية مختلفة عن التي أنتجها الغرب، ألا يحق لنا إذن أن نتساءل عما ستكون عليه العلوم في حضارات الإنسان في المستقبل؟!(..)

تعليقات من المترجم

يميّز عالم الاجتماع الجزائري علي الكنز بين ثلاثة أنماط من الباحثين والمختصّين في العلوم الإنسانية والاجتماعيّة في المنطقة العربيّة (المغرب والمشرق) على النحو التالي:

– النمط الأكاديمي الذي تخرّج من الجامعات في عهد الحماية والاُحتلال وأغلب أفراد هذا النمط ينتمون إلى عائلات أرستوقراطية وتبنوا القيم المعتمدة في الغرب (بريطانيا وفرنسا بوجه خاص)، انضمّت إليهم بعد الاستقلال فئات من بورجوازيّة الأعمال الناشئة.

وتعني الأكاديميّة هنا، النزعة النخبويّة واُحترام الدرجات السلميّة واللاتسيس (Apolitisme) النسبي.

– النمط الملتزم المرتبط تماما بالحرص على الانتماء الوطني ويكون غالبا من أبناء الأعيان ونذكر من ممثلي هذا النمط إدوارد سعيد وليلى فواز ومصطفى الأشرف.

الكثير من أعضاء هذه النخبة اُتّجهوا بعد اُستقلال بلدانهم إلى تبني الماركسية بمختلف أشكالها، واُنضموا أو أسّسوا معارضات لما اُعتبروه انحرافات السلطات الحاكمة في بلدانهم.

في العلوم الاجتماعية هناك اُرتباط وثيق بين العلم والالتزام ولا يلغي أحدهما الآخر، ومن الأمثلة المعروفة على ذلك الاقتران نذكر: سمير أمين، أنور عبد المالك، حسان حمدان، محمد حربي، عبد اللطيف اللعبي، محمد أركون، نعوم تشومسكي...

– المختص الاستشاري ظهر هذا النمط في البلاد العربية في وقت متأخر نسبيا أي بعد الانفتاح الاقتصادي بسبب ضغوط خارجية، وبعد ظهور بعض المنظمات غير الحكومية –ONG– وتزايد الطلب على هذا النوع من الخبرة من طرف البنك الدولي والاتحاد الأروبي ووكالات الأمم المتحدة لإنجاز دراسات ميدانية لإشكاليات المنطقة مثل: الفقر، العلاقة بين الجنسين، إدارة الدولة، السوق الموازي، العنف، المعرفة في الاقتصاد.

معظم البحوث التي يقوم بها هذا الصنف من المختصين والخبراء تفضّل المؤشرات الرقميّة وتعتمد على المعلوماتيّة وقياسات الرأي العام والاقتصاد والمحادثة، ولا تعطي اُهتماما يذكر للتحليل والتأسيس النظري الصارم.

تطور هذا النمط على هامش الجامعات وأحيانا بالتعاون مع تلك التي اكتسبت شهرة ومصداقية يؤدّي متطلبات عمل الاستشاري في كلّ الحالات إلى التقليل من النشاط الأكاديمي، مثل التدريس وتأطير أطروحات البحث العلمي.

إنّ تعاقدا واحدا مع إحدى تلك المؤسسات والهيئات الدولية والإقليميّة يحقق لصاحبه في بضعة شهور ما يزيد على مرتب سنة كاملة في جامعاتهم الأصلية.

Ali El-kenz: Ecrits d'exil, pp 450-459 Casbah ed. 2009.

ويذكر علي الكنز في نفس الدراسة ص 457 أن المرتبات الشهرية للجامعيين تتدرج من 1500 أورو في لبنان إلى 1000 أورو في المغرب و800 أورو في تونس و300 أورو في كل من الجزائر ومصر.

بالنسبة للجزائر حدثت في السنوات الأخيرة تعديلات برفع مرتبات الأسلاك الجامعية، فهل أخذها الباحث بعين الاعتبار؟ فدراسته في الفصل المخصّص للعلوم الاجتماعية مؤرخة بشهر ديسمبر 2003.

*– أستاذ الفيزياء بجامعة نيس– فرنسا– الدراسة منقولة عن "العالم الدبلوماسي" ص ص 32-33 والعناوين 2-3-4– من وضع هيئة التحرير

إحـــــالات وهــوامــــش

1 - E.Renan, l'avenir de la science, Flammarion, paris 1999.

2 – ثلاثة أشهر بعد قصف هيروشيما وناكازاكي بالسّلاح النووي. F.joliot – curie, discours du 12 novembre 1945,

3 - لاحظ جوهانس كبلر سنة 1609 أن الكواكب تسبح كمجموعات في مداراتها الفلكيّة.

4 - C.F.A. D aham: la tension nécessaire: les savoirs scientifiques entre universalité et localité Alliage N°45-46, commun avec la revue dialogue Nice 2001.

5 - C.F. Ftony Rothman et Hidetoshi Fukagawa: Géométrie et religion au japon, pour la science, N° 249, Paris Juillet 1998;

وكذلك:

Hidetoshi Fukagawa et D.Pedoe. Japanes Temple Geometry, ch. Babbage reseach Foundation, (canada), 1989.

6 - C.F. A.Horiuchi: Les mathématiques peuvent-elles n'être que pur divertissement? une analyse des tablettes votives de mathématiques à l'époque d'Edo, extrême orient, extrême occident, N° 20, Puf, univ de vicennes, octobre 1998.

7 - اقتبسنا الأمثلة المذكورة من دراسة لـــ:

M.Ascher: Mathématique d'ailleurs, nombres formes et jeux dans les sociétés traditionnelles, seuil, Paris, 1998.

نجد في هذه الدراسة أمثلة كثيرة تتصل بالهندسة والمنطق ونجد في التقديم الذي وضعه كل من كارين شملا وسرج راهول إضاءات تنظيرية مفيدة عن فكرة الرياضيات وإشكالياتها الكونية أنظر:

K.Chemla et S.Rahault: Ecriture et relecture mathématiques.

8 - وذلك في علاقتها بمعطى خارجي.

9 - أنظر.

A.Djebbar (entretiens avec J.Rosmorduc): une histoire de la science arabe, seuil, Paris, 2001.

10 - يقرّ غاليليو بأنّه اُستوحى نظرياته من ملاحظة العمال في ترسانة البندقية، وفي رأيه فإنّ التقدّم التقني هو الذي سبق وضعه للنظريات.

11 - J.Needham (S/D): Science and civilisation in China, Cambridge univ. Press 1959.

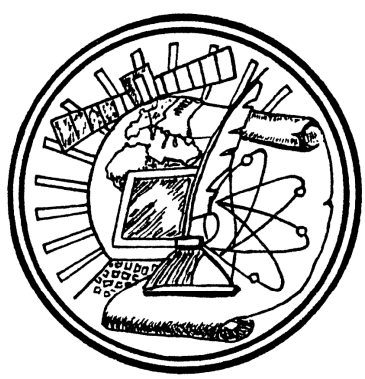

الـفـيـزيـاء والـلانـهـايـة

د. جون –بيير لوميني, د. مارك لاشييز –ري *ترجمة :د. أبو بكر خالد سعد الله*

تــــقــــديــــم

لقد حيّرت مسألة اللانهاية الإحساس البشري أكثر من أية مسألة أخرى؛ وليست هناك فكرة أنعشت العقل البشري وخصّبته أكثر من فكرة اللانهاية. ومع ذلك، ليس هناك مفهوم لا زال يتطلب التوضيح أكثر من مفهوم اللانهاية .

ديفد هلبرت David Hilbert

كل ما يمكن أن نتعرّف عليه بطريقة مباشرة لا بد أن يكون منتهيا. ورغم ذلك ففكرة اللانهاية تبرز كلما اشتغل فكرنا. وحسب إمانويل ليفيناس Emmanuel Lévinas فإن "اللانهاية يشير إلى خاصية تتمتع بها بعض الكميات تبدو من خلالها للفكر بأنها قادرة على التوسع إلى ما وراء كل نهاية ممكنة". لكن هل بالإمكان الالتقاء باللانهاية في الطبيعة، وفي الفيزياء التي تريد تمثيله؟ هل يعتبر اللانهاية في الكون ككائن حاضر في كل الأشياء، كبعد فعلي ومتعدد للواقع؟ أو هل هو، على العكس من ذلك، تخيّل ضروري للفكر دون أن يتمكن أي واقع فيزيائي من تجسيده؟ كانت هذه المفارقة حاضرة برمتها حتى في مؤلف "الفيزياء" لأرسطو.

لقد ظلت مسألة اللانهاية خلال أمد طويل ذات طابع فلسفي. لكن الحديث الجاد عن اللانهاية يتطلب الرجوع إلى التاريخ وإلى التطورات الحديثة للعلم. ما هي "إشكالية اللانهاية "في الفيزياء؟ تخضع جميع المقادير (الحركة، الفضاء، الزمن، الخ.) لمقياس المحدودية (فهي محدودة أو غير محدودة). غير أن الفيزياء تعتبر أن الكيانات التي تعطَى فعليًا والسياقات التي تقبل التنفيذ عمليًا هي الكيانات والسياقات المنتهية. وهذا لا يمنعها من اعتبار مفاهيم

يتدخل فيها اللانهاية إن كان في ذلك "تيسيرا"، إلا أنها لا تمنح لتلك المفاهيم وجودا حقيقيا : فاللانهاية يكون كامنا وليس فاعلا. وهكذا يتضح أن رجال العلم قد أبدوا خلال الحقبات التاريخية المتوالية مقاومة شديدة لفكرة اللانهاية الفاعل، دون مراعاة لعقلانية المواقف .وكان أول من اقترح إعطاء اللانهاية مكانة تعادل مكانة "المنتهي" هو الرياضياتي برنارد بولزانو .Bernard Bolzano وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت أعمال جورج كانتور Georg Cantor حول اللانهاية الرياضياتي، التي تعتبر اليوم منطلق الرياضيات الحديثة، قد رُفِضت بقوة من قبَل العلميين. وكان كانتور يقاوم التيار منفردا حتى اختل عقله. وكان لا بد من انتظار بداية القرن العشرين ليتخذ اللانهاية –جزئيا – مكانة لائقة في الفيزياء. ومنذ ذلك الوقت صار المنتهي واللامنتهي مترافقين ضمن نفس السياق.

إن مسألة اللانهاية موضوع لا ينضب (وكيف يكون الأمر عكس ذلك!)، وهناك مؤلفون كثيرون، من جميع الاختصاصات، قد عبروا عن آرائهم في هذا الشأن. سوف لن نشير في هذا المقام سوى للأعمال التي نراها أكثر تمثيلا لتيار فكري أو لحقبة زمنية معينة.

والملاحظ أن التقدم في إدراك الظواهر الطبيعية غالبا ما تواكبه إزالة اللانهايات. لكن الفيزياء الحديثة، مثل النظرية الكمومية[2]،وكذا نماذج الثقوب السوداء، تبرز لانهايات جديدة .

العالم واللانهاية

"في بداية العالم كان هناك حساء كوني لامحدود، ومتراص لا حركة فيه. وكان السماء يحتوي على عدد غير منته من الحبّات. فهو مكون من نفس المواد التي تتكون منها الأرض، ولم يكن تتحكم فيه الآلهة." كانت هذه العبارات، التي كتبت منذ 2500 سنة قد جعلت من صاحبها أنَكْسَغور الكلازومينسي Anaxagore de Clazomènes (428–500 قبل الميلاد) أول عالم في التاريخ يتهم بالكفر والإتيان بالبدع. لكنه كان محظوظا أكثر من العلماء الذين أتوا بعده : لأنه حظي بحماية أصدقاء أقوياء فبرئت ساحته وتمكن من الفرار بعيدا عن عداوة أثينا.

وهكذا كان مفهوم اللانهاية قد خلق مبكّرا جوا من الانفعالات والمجادلات. وكما هو الشأن بالنسبة لأمهات الأفكار الفلسفية فإن اللانهاية نبع من الفكر الإغريقي. كانت المدارس الأولى لعلماء وفلاسفة اليونان القديم تعرف باسم مدارس "ما قبل سقراط" على الرغم من أنها امتدت زمنيا إلى أكثر من قرنين واختلفت فيما بينها اختلافا كبيرا. وقد حاولت تلك المدارس، التي سبقت سقراط، فيلسوف أثينا الكبير، الوصول إلى تفسير عقلاني للكون (العالم) بالابتعاد بقدر المستطاع عن الأساطير :ما هي مصادر المادة وتحويلاتها وعناصرها الأخيرة؟ ما هو شكل الكون، وما هي القوانين التي تحكمه؟ وهنا نصادف نفس الانشغالات التي تطرحها في الوقت الراهن فيزياء الجسيمات [3] وعلم الكون.[4]

كان نموذج الرؤية للعالم قبل سقراط قد قدمه أَنَكْسِيمَندر الميلتي Anaximandre de Milet منذ القرن السادس قبل الميلاد. وهكذا اقترح لفظ "الأبيرون apeiron "كعنصر أولي لكل شيء. وكان المعنى الدقيق لهذا اللفظ موضع نقاش دائم، فهو يعني في آن واحد اللانهاية (اللامحدود والخالد) وغير المحدد (غير المعيّن). والملاحظ أن عالَم أنكسيمندر عالم مغلق: بمعنى أن النطاق الذي تصل إليه أبحاثنا وتقصياتنا، أي مسرح الظواهر، نطاق منته. ومع ذلك فهذا العالم منغمس في وسط غير منته، هو وسط ما يمكن اعتباره اليوم بمثابة الفضاء. وهكذا، وحسب أنكسيمندر، فالعالم منته مع أنه سابح في وسط غير منته .وقد ظلت هذه الفكرة قائمة خلال عدة قرون .وكان الأمر كذلك لدى طالس Thales، المنتسب هو الآخر إلى ميلت :Milet الوسط هو الماء، والعالم فقاعة هواء شبه كروية تسبح في كنف تلك الكتلة السائلة غير المنتهية.

أما الذّرية [5]التي أسسها لوسيب Leucippe وديموقريط Democrite خلال القرن الخامس فتقترح رؤية أخرى للانهاية العالم تختلف تماما عن الرأي السابق. ولهذا المذهب الذي كان من أبرز ممثليه إبيكور(Epicure 270-341) قبل الميلاد (ولوكريس) Lucrèce القرن الأول قبل الميلاد(، اعتقاد أساسي يتمثل في وجود جزء من المادة لا يتجزأ ولا يقبل التقطيع) لفظ "الذرة "باليونانية يعني "لا يقبل التجزئة")، وهو العنصر الأول في الكون. أما العنصر الأساسي الآخر فهو الخلاء (الفراغ)، الشبيه بالمسرح غير المحدود الذي تتحرك فيه الذرات .والذرات أجزاء لا تنكسر ولا تتغير، وحاضرة حضورا أزليا، ولا تختلف إلا بأحجامها وأشكالها .وأما عددها فهو غير منته، وهي تتجمع هنا وهناك فتشكل أجساما كونية في كنف الخلاء غير المنتهي.

وقد تأسس مفهوم تعدد العوالم في ظل لانهاية أصحاب مذهب الذرّية. وفي هذا السياق كتب إبيكور في "رسالة إلى هيرودوت "Hérodote النص التالي : "هناك عوالم غير منتهية تشبه عالمنا وتختلف عنه، في آن واحد. ذلك أن عدد الذرات غير منته [...] ومن ثمّ فهي تُدفَع بعيدا في الفضاء. وسبب ذلك أن غايتها –بحكم طبيعتها – هي إنشاء أو تصميم عوالم، وعليه فهي لا تستنفد كلية في عالم واحد أو في عدد محدود من العوالم، ولا في عوالم متشابهة، ولا في عوالم تختلف عن العوالم السابقة. ونتيجة لهذا الوضع فليس هناك أي حاجز يمنع وجود عدد غير منته من العوالم ".وهكذا يتنبأ هذا المذهب بوجود كمّ كبير من العوالم، وسط فضاء غير منته، يعادل عددها عدد الحالات الممكنة التي توفرها الذرات. وتُنْشِئ هذه الذرات الكائنات والعوالم، فهي فاعلة السببية. ولما كان عددها غير منته فالأمر كذلك بالنسبة لعدد الحالات الممكنة التي توفرها، وكذا بالنسبة لتعدد العوالم وتنوع هذه العوالم.

وإذا كانت فرضية الذرات واسعة وخصبة فإن كسمولوجيا أصحاب مذهب الذرّية لا تزال علما هزيلا .وفي هذا السياق، يقال أن ديمقريط ذاته كان يجهل عدد الكواكب المرئية في السماء ! وقد اقترح خلال القرن الرابع إفلاطون Platon وأودوكس الكنيدي Eudoxe de Cnide وأرسطو Aristote نظاما أكثر انسجاما يفسر العالم،

لأنه يعتمد جزئيا على المشاهدات التي سرعان ما عوضت الكسمولوجيا الذرية. وقد أدى صدى هذا النظام إلى إدانة كل المبادئ العامة للنظرة الذرية، ولم يسترجع هذا المذهب بعض مصداقيته إلا بعد مرور وقت طويل .

الفــعل أو الــقدرة

يعتبِر إفلاطون (428؟–347؟ قبل الميلاد) في مؤلفه "طيماوس "العالم والسماء منتهيين. ويرى أنهما محصوران، في آخر المطاف، في كرة تحيط بالعالم لا يوجد خارجها شيء. ولمن يبحث عن التناغم وعن أقصى التناظر فإن الكرة تمثل فعلا الشكل الأكمل : مظهرها لا يتغير مهما كانت الزاوية التي ننظر من خلالها للكرة. ولذا فمن "الطبيعي "أن تتدرج الكرة ضمن تصميم الكون مبرزة الكمال والثبات الإلهيين.

وكان أرسطو(322–384) Aristote قبل الميلاد هو من طرح قضية اللانهاية بمصطلحات حديثة .فقد ميّز بين اللانهاية "الفاعل" (قيْد الفعل) واللانهاية "الكامن" (ممتلك القدرة). واللانهاية "الفاعل" هو ذلك الذي يمكن إنجازه في الطبيعة؛ أما اللانهاية "الكامن" فهو مجرد نسيج خيال ضروري للفكر إذا ما تعلق الأمر بحل مسائل معينة، غير أنه لا يوجد واقع فيزيائي يعبر عنه هذا المفهوم.

وقد رفض أرسطو في مؤلفه "الفيزياء" وجود اللانهاية الفاعل، إذ يعتبر أن اللانهاية هو ما لا يمكن الإحاطة به، وعليه فهو لا يوجد إلا في الشكل الكامن. وبوجه خاص، فإن الفضاء منته ولا وجود لشيء خارج الكرة السماوية .ومع ذلك يعترف أرسطو بضرورة وجود اللانهاية في الرياضيات: يمكن أن نضطر إلى اللجوء إليه في البراهين. وهكذا نلاحظ أن هناك ثلاث طرق تجعل مقدارا كيفيا غير منته (اللانهاية الكامن).

يمكن أن يكون مقدار غير منته من خلال التركيب .والمثال النموذجي على ذلك هو الأعداد التي يولّد جمعها أو ضربها أعدادا أكبر بدون حدود. وقد استغلت هذه الفكرة، بعد مرور ألفيْ سنة، لتكون منطلق إنشاء اللانهايات الأصلية Cardinaux [6]، أي منطلق نظرية اللانهايات الرياضياتية.

كما يمكن أن يكون مقدار غير منته من خلال التجزئة .مثال ذلك المادة إذ نستطيع تجزئتها إلى ما لانهاية عندما نفترض أنها متصلة فيما بينها ولا تحتوي على عناصر قابلة للتقطيع، وهذا خلافا للرؤية الذرّية. ومن هنا ولدت نظرية اللامتناهيات [7]التي لولاها ما كانت الفيزياء الحديثة لترى النور. وأخيرا يمكن أن يكون مقدار غير منته من خلال التركيب والتجزئة في آن واحد. ذلك هو حال الزمن، أي حركة الكرات السماوية التي لا تعرف نهاية ولا بداية.

وهكذا نرى أن كسمولوجيا أرسطو تجيب عن مسائل اللامتناهي الكبر واللامتناهي الصغر. أما اللامتناهي الكبر فينبغي إقصاؤه لأن العالم منته ولا يمكن أن يوجد شيء خارج هذا العالم. وذلك خلافا للامتناهي الصغر الذي نقبله، غير أن التجزئة اللامنتهية للمادة تجزئة كامنة وليست فاعلة.

وقد واجه أرسطو بعض المنتقدين بخصوص تصوراته المتعلقة باللانهاية، مثل أرخميدس. وحاول هذا الرياضياتي الشهير، الذي توفي دفاعا عن مدينته سيراقوسه حين حاصرها الرومان، اعتبار اللانهاية الهندسي "الفاعل "بدل "الكامن". فهو يرى تجسيدا له في "عدد حبات الرمل المبثوثة على وجه البسيطة ."وطوّر أرخميدس في مؤلفه "أرِناريوس Arenarius "طرقا رياضياتية جديدة تسمح بالتعبير عن أكبر عدد ممكن باستخدام الرموز المتوفرة لديه، فبلغ هذا العدد . وقد "برهن "على أنه أكبر من عدد "حصى الرمل الضرورية لملء كرة النجوم الثابتة" (التي تتطلب "فقط "حسب دعواه الحسابية).

وعلى الرغم من ذلك كانت كسمولوجيا وفيزياء أرسطو تتداول حتى بداية القرن السابع عشر، وبلغتَا ذروتهما على يدي الفلكي الأسكندراني كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemy نحو عام 150 بعد الميلاد. وحتى تتفق المشاهدات مع كرات أرسطو فقد عوض بطليموس هذا النظام (باستثناء الكرة الأخيرة المتعلقة بالثوابت) بمجموعة دوائر إضافية: يتعلق الأمر بتركيب حركات هذه الدوائر – المسماة "دويرات فوقية " épicycles[8] و"متساويات الحركة – équants[9] "وهو التركيب الذي يعبّر عما يجري من حركات معقدة (مباشرة أو غير مباشرة) للكواكب. لكن هذا اللجوء إلى الهندسة يمرّ برفض فيزياء السماء، الذي طالب به أرسطو : القوانين الفيزيائية القائمة في الأرض لا تقوم في السماء؛ ذلك أن السماوات مقدسة وتخضع لمبادئ ثابتة في حين يخضع العالم الواقع تحت القمر للقوانين الصارمة التي تسيّر التوالد (التكاثر) والتلف .

تـــخوم الـــعـــالم

لقد وجدت فكرة انتهاء العالم (الأرض والكواكب والنجوم) التي يتشبث بها أصحاب مذهب أنكسيمندر المليتي صدى لها في مدارس فلسفية إغريقية أخرى، مثل تلك المنسوبة إلى هيراقليط Héraclite وإمبدوقليس Empedocle و"الرواقيين "(أو "الزينونيين"). وقد تصور الرواقيون وجود دورية كونية للعوالم المتدافعة تتوالى الواحد بعد الآخر بدون انقطاع مرورا بمراحل إنفجارات متفاوتة القوة. إن الفضول يدعونا إلى ربط ذلك بنماذج "الانفجار الأعظم [10]"التي يقترحها علم الكون الحديث. غير أن هناك فارقا أساسيا بين هذا وذاك : فالإغريق كانوا يميّزون بين "العالم" الفيزيائي و"المكان" الذي يعني بلغة عصرنا "الفضاء الهندسي". فهم يعتبرون العالم (الكروي مثلا) جزءا من الفضاء الذي يضمه ويحويه، وهذا الفضاء الأخير فضاء "خارج الكون"، غير منته، وبدون مميزات فيزيائية. وعلى العكس من ذلك فإن النماذج الكونية لا تفرق اليوم بين الكون والفضاء (أو بالأحرى، بينه وبين كيان أشمل، هو "الفضاء- الزمن- المادة "الذي سنتحدث عنه لاحقا). وفي هذا السياق فقد قطع الأرسطوطاتيون – الذين لا يميزون بين العالم والفضاء المنتهيين – والذرّيون – الذين لا يميزون بين العالم والفضاء غير المنتهيين – شوطا حاسما في تطور علم الكون.

وقد واجه أنصار فكرة انتهاء العالم صعوبة أساسية : يبدو من اللازم تصور وجود مركز وحدود للعالم. وهذه الحدود يمكن أن تكون جدارا، أما الكون فهو منحصر داخل قوقع مادي كروي ربما يشكل كرة النجوم

الثابتة. وهناك من ينظر للحدود على أنها حافة متدرّجة، تنتقل تدريجيا من ملكوت الفيزياء إلى ملكوت السماء أو الروح (موطن الآلهة). بينما يدعم أصحاب مذهب أنكسيمندر الميلتي والرواقيون فرضية وجود منحدر: العالم المنتهي ذو حدود غير مادية، يحتويه خلاء (فراغ) شاسع غير منته .

وكان أرشوطاس التارنتي Archytas de Tarente، وهو من فيثاغورسيي القرن الخامس، أول من قدم محيّرة تهدف إلى البرهان على تناقض فكرة وجود حافة مادية للكون. وقد لقيت فكرته صدى كبيرا في النقاشات التي دارت حول الفضاء " :إذا كنت موجودا في طرف سماء النجوم الثابتة فهل يمكنني مد يدي أو مد عصا؟ إنه من غير المعقول أن نقول باستحالة ذلك؛ وإن استطعت فهل ما نجده وراء ذلك، جسما أم فضاء. وعليه بإمكاننا الذهاب أبعد من هذا الحد، وهكذا دواليك. وإذا وجد في كل الحالات فضاء يمكن أن نمد نحوه العصا فهذا يتطلب، بالضرورة، توسعا بدون حدود." يؤدي بنا هذا الوضع إلى اعتبار بأن ما وراء العالم، مادةً أو فضاءً، جزءٌ من العالم. ومن ثمّ لا يمكن من الناحية المنطقية أن يكون العالم محدودا دون أن تواجهنا محيّرة .

وبناء على ذلك ينبغي إقصاء صورة عالم متواجد في وسط خارجي ليس جزءا منه. وقد أعيد العمل بهذا الاستدلال من قبل مناصر النظرية الذرية الروماني لوكريس Lucrece باعتبار صورة رمي الرماح .غير أنه كان علينا انتظار ظهور الهندسات غير الأقليدية* خلال القرن التاسع عشر لحل هذا الخلاف. تمكّن هذه الهندسات من تصور فضاءات ذات خواص مختلفة عن تلك التي نتعلمها في المدرسة: مجموع زوايا مثلث لا يساوي في جميع الأحوال 180 درجة. كما أنه لا يمرّ دائما مستقيم وحيد من نقطة معطاة يوازي مستقيما معلوما ... وعلى الرغم من أن هذه الخواص بدت "فظيعة" في بداية الأمر فقد اعترف الرياضياتيون بكونها مؤسَّسَة بشكل سليم؛ واعتبرها الفيزيائيون بدورهم بأنها ربما توفّر تمثيلات أفضل للفضاء الحقيقي. وفي هذا الإطار الجديد يمكن أن نتصور بأن الفضاء قد يكون منتهيا بدون أن يمتلك حافة، ومن ثمّ نعتبر الكون منتهيا وعديم الحدود، وهذا بدون مواجهة مفارقات.

إن هذا التصور ليس جد طبيعي، والغموض لا زال يكتنفه إلى اليوم. فعندما يحاضر أحدهم ويصف مثلا توسع الكون فغالبا ما يطرح عليه السؤال التالي: في أي شيء كيان ينتفخ حجم الكون؟ والملاحظ أن هذه الصياغة الخاطئة تزداد حدة عند إجراء مقارنة سيئة تتمثل في تشبيه توسع الكون بسطح كرة نقوم بالنفخ فيها .والجواب هو أن الكون لا يتوسع في أي كيان إذ أنه لا وجود لفضاء غيره !

معـــارضـــة أرســطـــو

بعد ظهور الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية كان لا بد من تنقيح وتعديل لانهاية أرسطو (الذي ليس هو لانهاية الله) للتعبير عن اللانهاية الإلهي.

كان الأسكندراني جون فيلوبون Jean Philopon قد أوضح، في حوالي عام 500، الصعوبات التي تثيرها الصلة بين أطروحتي أرسطو المتعلقتين باللانهاية .فمن جهة، نجد أرسطو لا يعترف باللانهاية الفاعل. ومن جهة أخرى، ليست هناك بداية ولا نهاية للزمن والحركة. وقد اقترح جون فيلوبون، ذو التوجه المسيحي، التخلي عن الفرضية الثانية، وعكف من أجل ذلك على الإتيان ببرهان نشأة العالم.

وفي أرض الإسلام كان الكندي (حوالي 800–870م) من الفلاسفة القلائل الذين ثاروا ضد خلود الكون، وهي معارضة تأتي عادة من رجال الدين وليس من الفلاسفة. كما أن هناك الفيلسوف الشهير ابن سينا (980–1037) الذي ناقش مطولا أعمال أرسطو في مؤلفه "كتاب الشفاء "مدمجا فيها عناصر من الفلسفة الإفلاطونية الجديدة. فهو يدافع عن انتهاء المقادير الهندسية مثل الخط المستقيم، غير أن برهانه على ذلك لا ينطبق على الزمن ولا على الحركة . وميّز ابن سيناء جيدا – كما فعل أستاذه الكندي – بين المقادير الفضائية والزمنية . لكنه يوافق على وجود لانهاية فاعل، وهو لانهاية عدد الأرواح الإنسانية. وحتى يفنّد كلام القائلين بانتقال الروح من فرد إلى آخر يختتم بالقول إن الأرواح البشرية، المنفصلة عن الأجساد، تشكّل تكاثرا لانهائيا فاعلا (أي بمفهوم اللانهاية الفاعل) !

والملاحظ أن أرسطو لم يواجه معارضة حتى الآن إلا حول نقاط معينة من تصوراته للانهاية. ثم جاء رجل دين من المجموعات اليهودية في أرَغون Aragon، وهو هاسداي كرِسكاس Hasdai Crescas (1340–1412؟) وناقض حجج أفلاطون برمتها. كان كرِسكاس صاحب كتاب ديني فلسفي سماه "مصباح الله "دافع فيه دفاعا قويا عن أطروحات عدم انتهاء الكون وعن تعدد العوالم الممكنة وعن وجود خلاء فضائي، أي عن فكرة المقادير والأعداد غير المنتهية فعليا.

وقد جرت العادة خلال القرون الوسطى على التأكيد بأن الكردينال نيكولاس دي كويس (1401–1464) قال بعدم انتهاء الكون في مؤلفه(De la docte ignorance حول التباهي بالجهل). وكان الكردينال قد تأثر بنص لوكريس (De la nature حول الطبيعة) الذي عثر عليه عام 1417 في دير للرهبان. والملاحظ أن حججه الرئيسية ذات طابع ماورائي : الكون غير منته لأنه من خلق الله الذي لا يمكن أن تكون أعماله محدودة. يجب على الكون أن يعمّر بالكائنات، وعلى الأرض أن تتحرك.

غير أن الطريق إلى اللانهاية ظل محفوفا بالحواجز. وقد حافظ الكاهن البولندي نيكولاس كوبرنيكوس – (1473–1543) Nicolas Copernic الذي ذاع صيته بفضل قوله إن الأرض ليست مركز الكون – على فكرة العالم المنتهي المحتوي داخل كرة النجوم الثابتة. ولم يضف سوى أن هذا العالم شاسع ولا يمكن قياسه تاركا الكرة في ملعب الفلاسفة. ومع ذلك فقد مهّد الطريق لفكرة الكون غير المنتهي بـــ"توسيع" عالم القرون الوسطى : كان نموذجه يزيد ألفيْ مرة عن عالم بطليموس، وهذه خطوة صغيرة في اتجاه اللانهاية، لكننا لم نبلغ بعد اللانهاية .

بـــرونـــو Bruno أو نـــشوة الـــلانهاية

يعتبر جوردانو برونو Giordano Bruno (1548-1600)، في آخر المطاف، صاحب الكسمولوجيا غير المنتهية" .ها قد ظهر الإنسان الذي اخترق الأجواء، وعبر السماء، وتخلل النجوم، وتجاوز حدود العالم، وأسقط الأسوار الخيالية للكُرات –من أول منزلة إلى الثامنة، إلى التاسعة، إلى العاشرة، أو يزيد – وهي الكرات التي أوجدتها حسابات رياضياتية غير مجدية أو فلسفة عمياء ومبتذلة [...]. إنه الإنسان الذي استخدم مفاتيح مهارته ليفتح بأبحاثه أبواب الحقيقة التي لم نكن قادرين على اختراقها .فقد جرّد الطبيعة التي غلّفتها الأقنعة .إنه منح أعينا لحيوان الخلد، وردَّ البصر للعميان. [...] نحن نعلم ذلك : هناك سماء واحد، ومنطقة سماوية شاسعة حيث تحافظ البؤر الضوئية الجميلة على المسافات التي تفصلها لتضمن دوام الحياة وإعادة ظهورها".

بهذه العبارة مجّد برونو ذو الحماس الفياض الرجل الهادئ كوبرنيكوس.

لقد قدم برونو حججا معتمدا على أسس فيزيائية، وليست دينية محضة، ونشر مذهبه في كامل أرجاء أوروبا حتى حرِق حيًا من أجلها عام 1600 ! كانت كتاباته تتميز بجرأة وأصالة منقطعتي النظير. وظل فكره، الذي خانه القوم وشوّهوه، بعيدا عن إدراك معاصريه، سيما من قبل غاليليو Galelio. وكان قد أعاد فلاسفة عصر الأنوار خلال القرن الثامن عشر اكتشاف برونو من جديد وبرزت صورته الأسطورية في منتصف القرن التاسع عشر حين عارض العلم "الإيجابي"* الكنيسة بقوة. ورغم ذلك فبرونو هو، قبل كل شيء، فيلسوف استوحى فكره الكسمولوجي من مذهب الذرّية للوكريس ومن الاستدلالات الكوسمولوجية لنيكولاس دي كويس ومن أطروحة كوبرنيكوس .وقد أخذ برونو من هذا الأخير فكرة المركزية الشمسية héliocentrisme[11] وترتيب النظام الشمسي. لكنه رفض فكرة "الانتهاء "الكوسمولوجي لهذا النظام واحتوائه في الكرة الثامنة (كرة النجوم الثابتة). وقد سبق جوهانس كبلر Johannes Kepler وإسحاق نيوتن في رفض التقيّد الأعمى بجمال الشكل الكروي والحركة الدائرية المنتظمة.

وتجدر الإشارة إلى أن التوجه الفكري لبرونو في ما يتعلق باللانهاية ينطلق من ملاحظة كون ما نشاهده يعتبر دائما أمرا نسبيا : فالأفق ليس سوى حافة ظاهرية تتحرك مع المشاهد.

وكان برونو قد قدم حججا جد حديثة ترفض الرأي السائد المتمثل في اعتبار كل النجوم تبعد بنفس المسافة عن الأرض كما لو كانت "مسمّرة ومثبتة على كرة نهائية". وقد أطلق برونو العنان لشاعريته فكتب: "ومن ثمّ فأنا أحرّك جناحي نحو الأجواء، لا أخشى مواجهة أي حاجز، سواء كان من بلّور أم من زجاج، أشق السماوات وانتصب في اللانهاية. وعندما أرتفع فوق هذا العالم متجهًا إلى عوالم أخرى وأنفذ إلى ما وراءها عبر الحقل السماوي فإني أترك ورائي ما يشاهده آخرون عن بعد ".[من مقدمة De l'infini, de l'Univers et des mondes (حول اللانهاية والكون والعوالم)] .

ومن ثمّ فلا وجود لنهايات أو حدود أو حافات أو أسوار تعرقل وتوقف الزخم اللانهائي للأشياء. ومن ذلك يأتي التكاثر اللانهائي للعوالم. غير أن التفكير في تعداد العوالم يطرح بعض الانشغالات عند الفكر الديني المسيحي: إذا ما وجدت عدة عوالم آهلة بالسكان فكم مرة تم التجسّد؟ مرة واحدة؟ في هذه الحالة ستكون الأرض في موقع استثنائي : إنه امتياز معتبر إذا ما راعينا المظهر الإيجابي لإعادة التجسد الإلهي، أو على العكس من ذلك، سخط رهيب لأن الأرض تكون المكان الوحيد الذي وقعت فيه الخطيئة الأولى .أما إذا تم التجسّد عدة مرات فستكون عملية تافهة بسبب تكرارها، ولن تكون عندئذ معجزة لأن المعجزة تحدث، حسب تعريفها، مرة واحدة .

وهكذا نلاحظ في نهاية المطاف أن الفكرة الكسمولوجية الهدامة لا تكمن في تأكيد مركزية الشمس بل في تأكيد التكاثر غير المنتهي للعوالم .تلك هي الفكرة التي أدت إلى حرق برونو أمام الملأ في ساحة من ساحات روما .

علـــــم الـــفلك الــــجديد

والواقع أن نيكولا دي كويس وجوردانو برونو لم يكن لهما، خلال عصرهما، أي صدى علمي رغم قوة اعتقادهما. ذلك أنهما لم يكشفا عن أية مشاهدات تدعم تصوراتهما المناهضة للعقيدة المسيحية .وكان علينا انتظار عام 1572 – حين شوهد النجم (فوق) الجديد "سوبرنوفا[12] Supernova "من قبل تيخو براهي–1546) Tycho Brahe – (1601 ليتوفر أول عنصر مشاهدة حيّر العقول، ومهّد سقوط كسمولوجيا أرسطو. والسبب هو أن هذا النجم قد ظهر في كرة النجوم الثابتة، أي في عالم خارج عالم القمر الذي كان لا يزال يعتبر ثابتا لا يتحوّل .

كان الأنكليزي توماس ديجس Thomas Digges قد أبدى عام 1576 رأيا يميل إلى الاعتقاد بأن النجوم الثابتة ليست معلقة في سطح كرة بل إنها منتشرة لانهائيا نحو الأعلى. ولقي كتابه الفلكي صدى أكثر مما لقيت كتابات برونو الفلسفية.

ومع ذلك لم يقترح ديجس تصورا فيزيائيا للانهاية .فهو يعتبر أن السماء والنجوم تمثل دائما موطن الآلهة. ومن هذا المنظور فهي لا تنتمي إلى عالمنا انتماءً كليا. أما جوهانس كبلر (1630–1571) فيعتبر مفهوم عدم انتهاء الكون ماورائيا محضا لأنه لم يستند إلى تجربة، ولذا فهو خال من أي مغزى علمي : " الواقع أن الفكر لا يمكنه إدراك جسم غير منته.

ذلك أن تصورات العقل في موضوع اللانهاية تُحيل إلى معنى كلمة "اللانهاية" أو إلى شيء يتجاوز أي قياس عددي نستطيع إدراكه، مرئي كان أو قابل للملامسة؛ بمعنى شيء ليس لانهائيا "فعليا" (أي بمفهوم اللانهاية الفاعل) إذ أنه لا يمكن إدراك قياس غير منته".

لقد وفّر منظار غليليو غليلي (1564–1642) Galileo Galillei في مطلع القرن السابع عشر الحجج الأولى المتصلة بالمشاهدات المباشرة ضد ثبات عالم ما فوق القمر. لكن غليليو تبنى، مثل كبلر، موقف الفيزيائي الحذر: "إنه من غير المؤكد (وأعتقد أن الأمر سيظل هكذا بالنسبة لكل العلم الإنساني) أن العالم منته أو، على عكس ذلك، غير منته".

ومهما يكن من أمر فالطريق انفتح بصفة نهائية أمام علوم جديدة للكون، مبنية على أساس فضاء غير منته. وقد اعتبر روني ديكارت (1596–1650) René Descartes أن وحدة وتنظيم الكون في مضمونه وقوانينه لا يعتريه أدنى شك. إن إدراك المنتهي يعترف باللانهاية، لكن هذا الأخير مخصص للخالق وحده.

وكما كتب ألكسندر كويري Alexandre Koyré فإن هذا التصور الجديد للكون قد أحدث انقلابا في الفكر الفلسفي والعلمي أبعده كثيرا عن الحماس الذي كان في بداية الأمر لدى كويس وبرونو : "إن تدمير النظام الكوني وفقدان الأرض لمركزيتها في هذا النظام، حتى لو ظلت الأرض وحيدة، جعل الإنسان يضيع، في الأخير، موقعه الوحيد والمتميّز في مسرحية الخلق التي كان يؤدي فيها، حتى ذلك الوقت، دور الممثل المركزي والمشهد. وفي نهاية هذا التطور نجد العالَم الصامتَ والرهيبَ لـــ"لفاجر" الملحد باسكال(Pascal الصمت الأبدي لهذه الفضاءات غير المنتهية يخيفني)، إنه عالَم مجرد من معاني الفلسفة العلمية الحديثة . وفي آخر المطاف نجد العدَمية والخيبة ". (عن كتاب) Du monde clos à l'univers infini من العالَم المغلق إلى الكون غير المنتهي (للأكسندر كويري).

إلا أن العالم يتّجه بقوة نحو انتصار اللانهاية :لقد شرح إسحاق نيوتن (1642–1727) الميكانيكا السماوي باستخدام لفظ الجاذبية الكونية*، أي التثاقل*، الذي صار يعتبر مسؤولا عن هيكلة نظام الكون. ولما كانت قوة التثاقل ذات بعد غير منته فقد انغمس علم الكون في إطار فضاء غير منته، ثم إن تأثير الإرث الإغريقي جعله يعتبر الزمن غير منته.

وهكذا بدأ قرن الأنوار تحت شعار اللانهاية. وكان إمانويل كانط Emmanuel Kant معجبا بنيوتن فاهتم باللانهاية. وقد عبّر في مؤلفه "التاريخ الطبيعي والنظرية العامة للسماء" عن قناعته بأن العالم غير منته لأن الله غير منته، ولأن العالم مرتبط بالله. وبعد فترة عالج في كتابه "نقد العقل الطاهر "مسألة اللانهاية بطريقة جدلية رابطًا إياها بمسألة الكون ومبينًا بأن النقاش حول وجود (أو عدم وجود) اللانهاية نقاش أفكار "تدّعي اكتساب معارف تمتد إلى ما وراء نطاق كافة التجارب الممكنة."

ظــلام الــليل والــلانـــهاية

كان أحد الأطباء خلال القرن الثامن عشر في مدينة بريم Brême يقضي لياليه أرقًا أمام منظار منتصب فوق سطح داره يرصد السماء .وبتلك الطريقة اكتشف ويلهلم أولبرس Wilhelm Olbers كُوَيْكِب [13] بالاس Pallas وبعض المذنبات. وقد طرح هذا الفلكي الهاوي ذات يوم سؤالا محرجا :إذا كان الفضاء غير منته ومَلِيء بالكواكب بشكل منتظم فإن ذلك يؤدي بالضرورة إلى مشاهدة أحد النجوم في أي اتجاه ننظر فيه إلى السماء . وبعبارة أخرى فكبد السماء سيصبح مشكلا من النجوم دون سواها، ومن ثمّ فشدة لمعانه سيعادل لمعان تلك النجوم. ويمكن من خلال عمليات حسابية بسيطة إثبات بأن السماء ستبدو في ذلك الكون مضيئة بدرجة لا تقل عن شدة إضاءة سطح الشمس. وفي هذه الحالة، من أين تأتي ظلمة الليل؟

كان آخرون قبل أولبرس، مثل كبلر وجون فيلب لويز دي شيزو Jean–Philippe Loys de Chéseaux، قد طرحوا سؤالا مماثلا بشكل أكثر احتشاما .وفي القرن التاسع عشر بلغت الأمور درجة من النضج جعلت "محيّرة ظلمة الليل "محلّ شروحات ونماذج جنونية. وفي مطلع القرن العشرين سمح بروز علم الكون الحديث بإدراك أن هذه المحيّرة كانت في واقع الأمر ثرية بالمعاني بخصوص موضوع انتهاء المكان و/أو الزمان للكون .

وتقول أبسط الشروحات أن الكون منته فضائيا. وإذا ما سبقنا الأحداث قليلا فسنجد هذا الشرح مقبولا اليوم دون أية مفارقة في سياق الهندسة الحديثة. والحل يأتي من كون عدد النجوم محدودا في حالة انتهاء الفضاء، ومن ثمّ لا نستطيع تأكيد بأننا سنشاهد نجما في أي اتجاه ننظر من خلاله إلى السماء (يكفي، في الواقع، افتراض انتهاء عدد النجوم دون افتراض انتهاء الفضاء). وإذا كان هذا الشرح هو الشرح الممكن الوحيد نستطيع اعتبار أن ظلمة الليل تثبت الانتهاء المكاني للكون، أو على الأقل انتهاء عدد النجوم.

غــير أن هــناك عــلى الأقل ثــلاثة تفــسيرات مــمكنة أخرى.

تفطن لأول هذه التفسيرات الكاتب إيدغارألان بو Edgar Alan Poe في نص محذِّر بعنوان Euréka (عرفتها). ويستند التفسير إلى انتهاء الزمن بل الفضاء. فنحن نعلم أن الضوء ينتشر بسرعة منتهية. غير أن النجوم لم تكن دائما موجودة في كون منته زمنيًا :بما أننا لا نستطيع استقبال ضوء تلك النجوم إلا إذا كان لها متسع من الوقت لبلوغنا، أي إذا كانت النجوم الصادرة منها قريبة بكفاية، فإن لمعان السماء لا يكون منظّما . يترتب عن ذلك أن النجوم (وليس الكون) لم تكن موجودة إلا منذ مدة محدودة. ذلك هو بالتحديد ما تنص عليه نماذج الانفجار الأعظم: الكون لم يكن موجودا – على الأقل بصفة تسمح بوجود نجوم – إلا منذ بعض ملايير السنين.

توفر نماذج الانفجار الأعظم جوابا ثانيا محتملا لمحيّرة أولبرس: يمكن اعتبار السماء مضيئا خلال الليل ! إنه لا يلمع بضوء عادي، مرئي، لكنه يقع في نطاق إشعاع كهرومغنطيسي آخر، هو الموجات المجهرية. ويوافق هذا اللمعان المنتظم للسماء ما يسمى بـــ "عمق كوني شعشع" (تعتبر مشاهدة هذا اللمعان واحدة من أهم الحجج المؤيدة للانفجار الأعظم) .ويعتقد الفيزيائيون الفلكيون بأن هذا الإشعاع صدر منذ حوالي 15 مليار سنة، وأنه كان عند صدوره شبيها بإشعاع نجم. ولماذا لم يبق على تلك الحال؟ إن الجواب على هذا السؤال هو الذي يزودنا بالتفسير الثالث الممكن لمحيرة أولبرس : السبب هو توسع الكون، الذي اكتشف في مطلع القرن العشرين. ذلك أن طاقة الإشعاع الكهرومغنطيسي في الكون المتزايد الاتساع، تخفّ تدريجيا (وهذا يؤدي عمليا إلى "زحزحة نحو الأحمر*") : طاقة الإشعاع (المرتبطة بالتردد) تتضاءل خلال التطور الكوني. هذا هو السبب الذي يجعل إشعاع العمق الكوني لا يظهر اليوم إلا بشكل قليل الطاقة على الرغم من أنه تم بثّه في شكل طاقة – ضوء مرئي وأشعة تحت الحمراء. وذلك أيضا حال ضوء النجوم والمجرات* البعيدة: إشعاعات أبعد المجرات ضعيفة الطاقة إلى حد أصبحنا لا نستطيع مشاهدتها؛ والوضع صار كما لو كانت محدودة العدد .

وهكذا تبيّن لنا ظلمة وبرودة الليل بأن الكون (المتوسّع ... وقد يكون عمره منتهيا) يختلف، في كل الأحوال، عن الوضع الذي كان فيه قبل بعض ملايير السنين. ومن ثمّ ندرك أن الكون يتطور بشكل أو بآخر .

الـــزمـــكان (الـــزمضاء) الـــجديـــد

كانت الثورة التي عرفها علم الكون في مطلع القرن العشرين ثمرة الربط بين التقدم النظري الذي وفرته نظرية النسبية العامة [14]لألبرت آينشتاين والتقدم المنجز في مجال المشاهدة.

لقد قلبت النسبية العامة حتى مفاهيم الزمن والفضاء. فلم يعد الكون بنية فضاء (أقليدي[15]) ثابتة تحدث فيها ظواهر تحركها قوى، بل صار زمضاءً "قابلا للتشوّه"، وهو ما يسميه الرياضياتيون "منوّعة" رباعية الأبعاد 3 (أبعاد للفضاء وبعد واحد للزمن) يشوّهها وجود المادة. أما التثاقل فيصبح تجليا لانحناء الزمضاء. ومن ثمّ فالتثاقل هو الذي يحدد المسارات الممكنة للجسيمات المادية وللأشعة الضوئية المجبرة على مسايرة انعراجات الهندسة المنحنية .

تصف المعادلات الأساسية للنسبية – وهي معادلات آينشتاين – الطريقة التي يحدد بها المحتوى الماديُ للكون الشكلَ الهندسي للزمضاء .وهكذا فالنظرية تسمح بوصف الكون في مجمله وفق نماذج كونية محتملة. وبطبيعة الحال فمن بين الحلول التي توفّرها النظرية هناك البعض منها (فقط) يصف الكون وصفا سليما دون الوقوع في تناقضات مع المشاهدات الفلكية.

وعلى سبيل المثال، نجد آينشتاين قد أنشأ عام 1917 النموذج الأول للكون المبني على النظرية النسبية، الذي يعتبر أول علم كون نسبي .وأهم عنصر جديد في ذلك هو اقتراح مقاربة جديدة تماما لمسألة الفضاء المنتهي أو غير المنتهي. فالهندسة غير الأقليدية، التي تعتبر أساس النسبية العامة، سمحت بتصوّر فضاء – وتمثيله تمثيلا دقيقا – يكون في آن واحد منتهيا (أي ذا حجم ومحيطات منتهية بوضوح وقابلة للقياس) وبدون حدود. وهكذا سمحت النسبية، لأول مرة في تاريخ الأفكار، باعتبار كون منته لا يبرز أية مفارقة. ثم كان لا بد من التخلي عن هذا النموذج الدقيق – المسمى نموذج آينشتاين – لأنه يصف كونا ساكنا في حين أن المشاهدات أظهرت بسرعة بأن الكون في حالة توسّع.

ورغم ذلك فالنموذج أتى بجديد : من الممكن أن نتصور فضاء منتهيا وبدون حدود. كما يحتمل اعتبار كون غير منته. وهكذا نلاحظ أن النسبية قد أعادت إلى طاولة النقاش محيّرة المنتهي واللامنتهي موفّرة، في ذات الوقت للباحثين في علم الكون، فضاءات جليّة الانتهاء أو جلية اللانتهاء .

فــضـــاء فـــي تـــوسّـــع

كانت المستجدات التقنية، سيما تنصيب المنظار الفلكي البالغ قطره 2.50 مترا على جبل ولسن Wilson بالولايات المتحدة، وراء التقدم الذي حققه مجال الرصد في مطلع القرن العشرين، وهذا إلى جانب منجزات الثورة المفاهيمية المنبثقة عن ظهور نظرية النسبية .وكان الفلكي الأمريكي إدوين هوبل Edwin Hubble محظوظا عندما استخدم لأول مرة هذا المسبار الكوني [16]لاستكشاف الكون. وأثبت هوبل عام 1924 أن سديم "المرأة المسلسلة " (أندروميدا Andromeda) يقع بعيدا عن مجرّتنا .وسرعان ما بيّن، هو ومعاونوه، بأن الحال ذاته نصادفه في كل سديم حلزوني : [17]إنها مجرات كثيرة تشبه مجرتنا، والعالم مكوَّن من كل هذه المجرات. وكأنها "الجزر الكونية" التي تصوَّر وجودها كانط ! وهكذا يبدو الكون المادي، أي العالم الفيزيائي، متسعا جدا متجاوزا كثيرا حدود مجرّتنا: هناك مسافات بملايين – ولم نعد نقول آلاف –السنوات الضوئية.

وإلى جانب هذا المظهر الفضائي نجد اكتشافا رصديا متعلقا بالتطور الزمني للكون. فقد أعلن هوبل عام 1929 بأن المجرات الأخرى تبتعد باستمرار عن مجرّتنا بسُرَع متناسبة مع المسافات التي تفصلنا عنها. وظلت هذه النتيجة الرصدية غير مفهومة حتى سلّمت الأسرة العلمية – خلال الثلاثينيات من القرن العشرين – بفكرة اقترحها الفيزيائي البلجيكي جورج لوماتر Georges Lemaître عام 1927 (وعبّر عنها بشكل مستقل الرياضياتي الروسي ألكسندر فريدمن Alexandre Friedmann مفادها) أن: الفضاء برمّته يتمدّد بمرّ الزمن؛ فهو في توسّع، وهذا التوسّع يجرّ معه مجموعة المجرات. ويتعلق الأمر هنا بخطوة جبارة في موضوع تصوّر الكون. ذلك أن السماء كانت تعتبر منذ العهود الغابرة غير خاضعة لأي تحرك أو تطوّر. والحقيقية أننا سلّمنا منذ عصر النهضة بحدوث ظواهر جديدة في السماء غير أنه لم يخطر ببالنا أن الكون برمته يمكن أن يتطور. وكان آينشتاين نفسه قد وقع في قبضة هذا التسليم عند إنشاء نموذجه الساكن.

وقد ظلت أسطورة الكون الساكن، أو المستقر، جاثمة إلى اليوم في بعض العقول التي لم تستطع التخلص من هذا التأثير الفكري. ولعل ذلك هو سبب رفضها لنماذج الانفجار الأعظم .

وعلى كل حال فالكون لم يعد، ولن يكون، في ضمير الإنسان، إطارا ثابتا وخالدا تسَجَّل فيه الأحداث الكونية. ومن الآن فصاعدا صار من الجائز الاعتقاد بأن الكون يتحوّل ويتطوّر (بل يزداد الأمر صعوبة في عدم تقبّل ذلك) .وقد أدرك الفيزيائيون، بعد جورج لوماتر، مدى انعكاس ذلك على عمق تغيّر النظرة لخصوصيات الفضاء والزمن.

فـــهل هـــو مـــنته أو غيـــر مـــنته؟

إن مسألة انتهاء وعدم انتهاء الفضاء – وربما الزمن أيضا، إلى درجة معينة – مطروحة طرحا جيدا في سياق نماذج فريدمن–لوماتر (المشار إليها بنماذج " FL ف.ل."). تفترض هذه النماذج أن عدم انتظام توزيع المادة أمر مهمل وهو ما يجعل الكون يتمتع بنفس الخواص في كل مكان. نقول في هذه الحالة إن الكون "متجانس ومتساوي الخواص". وتتميز هذه الخواص بأمرين لا ثالث لهما : انحناء الكون (وهو ثابت في الفضاء غير أنه ينبغي تحديد إشارته) وطبولوجيته .[18]ويهتم الفيزيائيون الفلكيون وعلماء الفلك في غالب الأحيان بصيغ مختصرة لهذه النماذج: هم يهملون الجانب "الطبولوجي" (يفترضون هذه الطبولوجيا أبسط ما يمكن) ويركزون اهتمامهم على الانحناء وحده. سنرى لاحقا أن هذا الاختصار جوهري عندما يتعلق الأمر بمسألة اللانهاية الفضائي.

وفي ما يتعلق بالانحناء ليس هناك سوى ثلاث مجموعات من الفضاءات تعتبر مقبولة في نماذج ف.ل .هي : 1(الفضاء الأقليدي (أي الفضاء المعدوم الانحناء، وهو الذي نلمّ جيدا بخواصه)، (2 الفضاء الكروي [19]) (الموجب الانحناء)، (3 فضاء لوبتشفسكي) Lobatchevski[20] المسمى أيضا الفضاء الزائدي، السلبي الانحناء). والملاحظ أن الفضاء الكروي منته في جميع الأحوال، وذلك هو أحد الأسباب التي جعلت آينشتاين يختاره. أما فضاءات المجموعتين الأخريين فإن طابع الانتهاء أو عدمه يتعلق بالطبولوجيا، مع العلم أن تلك الفضاءات غير منتهية حتى في أبسط الحالات. ومن ثمّ فإن إهمال التعقيدات الطبولوجية يجعل معضلة الانتهاء/اللاانتهاء تنحصر في معرفة انحناء الفضاء.

غير أن النسبية العامة تشير إلى الطريقة التي يتم بها حساب هذا الانحناء. وتتعلق قيمته بالمحتوى المادي للكون، سيما بالكثافة المتوسطة للمادة التي يحتويها، وكذا بثابت جمْعِيٍّ يدعى الثابت الكوني. وفي أغلب الأحيان نلجأ إلى اختصار ثان يتمثل في افتراض انعدام هذا الثابت. وفي هذه الحالة نجد أن طابع الانتهاء/اللانتهاء لا يتعلق إلا بالكثافة المتوسطة للمادة : يتبيّن أن انحناء الفضاء موجب إن كانت تلك الكثافة أكبر من قيمة معينة، "قيمة حرجة"، تساوي ، والانحناء سالب إن كانت الكثافة أصغر من تلك القيمة .وبالتالي فالفضاء سيكون منتهيا – منطويا، بمفهوم معين، على ذاته نتيجة تأثير تثاقله – أو غير منته.

تشير مختلف المشاهدات الفلكية إلى كثافة متوسطة تقل بعشر مرات عن القيمة الحرجة. ومن ثم فالظاهر أن الكون غير منته. والجدير بالذكر أن القيمة المرصودة ليست سوى نهاية دنيا (بلغة الرياضيات). ومن العبث أن نعتقد بأننا نشاهد كل كمية المادة المتواجدة في الكون؛ بل قد يكون من الأرجح – وهناك عدة أسباب تدعونا إلى هذا الترجيح (دون وجود سبب قاطع) – تواجد كميات كبيرة من المادة المختفية من شأنها أن تجعل الكثافة الحقيقية تبلغ القيمة الحرجة. وفي هذه الحالة سيكون الكون مغلقا ومنتهيا.

وهكذا فمسألة اللانهاية الفضائي ما فتئت تنير تاريخ علم الكون، بشكل متميّز، منذ أزيد من ألفي سنة. وكان الفلاسفة الإغريق قد قطعوا شوطا حاسما في نمْذَجة الكون عندما انتقلوا من "لانهاية" ما قبل سقراط إلى "المنتهي"، وعندما تطابق لديهم العالَم الفيزيائي بالفضاء الهندسي. وجرت الأمور خلال القرن السابع عشر في الاتجاه المعاكس : لقد رسّخ نيوتن فكرة الانتقال من العالم المغلق إلى الكون اللامنتهي الذي طابق الكون بالفضاء الأقليدي اللامنتهي .أما المرحلة الأساسية الثالثة فبدأت عندما وفّرت نظرية النسبية العامة سياقا جديدا لإدراك الكون باعتبار زمكان تحدب وانحنى بفعل المادة. وقد لجأت هذه النظرية إلى الهندسات غير الإقليدية، وهو ما جعل الاحتمالين (الفضاء المنتهي أو غير المنتهي) حاضرين منذ ذلك الحين ضمن نفس النمْذَجة. سنرى في القسم الثاني كيف سمحت تطورات نظرية النسبية بتناول مسألة الحدود الفضائية والزمنية للكون من خلال زوايا جديدة تماما، وكيف أعادت تلك التطورات النقاشات حول اللانهاية إلى السطح .

إعـــادة الـــتفكير فـــي الــلانـــهـــاية

يبدو أن الفيزيائي لا يستطيع النظر للانهاية برصانة. فالواقع يظهَر منتهيا، لكن سادت، بعد أرسطو، الفكرة التي تعتبر اللانهاية أداة مقبولة في سياق التصورات، لا أكثر .وبالتالي فقد ابتعد الفيزيائيون عن اللانهاية سواء برفضه رفضا كاملا أم بإخفائه وراء "أفق". إن ظهور اللانهاية في نظرية فيزيائية يعدّ نهاية صلاحيتها، فهو كالمرض الذي ينبغي علاجه بمجرد الإصابة به. وعلى سبيل المثال، كان الفيزيائي الكبير هنري بوانكريه Henri Poincaré قد حكَم على أعمال جورج كانتور Georg Cantor التي أعطت معنى للانهاية الرياضياتي بأنها "مرض ."هل من الممكن أن نصف كل نظام فيزيائي وصفا مجردا من اللانهاية باعتباره نظاما محدودا، ولا يحتوي سوى على عدد منته من الجسيمات وعلى كمية منتهية من المعلومات؟ هنا يكمن فرق جوهري بين النظرية والواقع، بين خريطة إقليم والإقليم ذاته. لا الصفر ولا اللانهاية يوافقان كائنًا فيزيائيا نستطيع قياسه .إنه لا يمكن أن يتفق اللانهاية مع التجربة لأنه لا وجود لقياس يعطي نتيجة لانهائية) باستثناء بعض العدّادات المزودة بهذه الكتابة الرمزية تسهيلا للاستعمال، مثل آلة التلمتر [21] الخاصة بآلات التصوير.

ورغم ذلك نتساءل : هل تعتبر القيم العددية اللامنتهية غير قابلة للقياس إلى هذا الحد؟ وماذا نقول عن الأعداد الصماء؟ إنها ليست أكثر تقبلا للقياس من باقي الأعداد. ورغم ذلك يتضح من تصورنا للطبيعة أن مثل

تلك الأعداد موجودة في كل مكان !ومن ثمّ تبدو هذه الحجة غير مؤسسة، وليس من اللائق أن نرفض اللانهاية بدون التفكير مليًا حتى لو كان وضعه يطرح أحيانا بعض المشاكل.

لقد رأينا بأن استخدام اللانهاية يمكن أن يكون ثريًا، بل ضروريا من وجهة نظر الطريقة المتبعة، كما يحدث مثلا خلال عملية "الانتقال إلى النهاية"، الكثيرة الاستعمال في الفيزياء. والملاحظ أن محاولات الفيزيائيين في التخلص من اللانهايات هي ذاتها محاولات خصبة. وإذا كان ميلاد نظرية النسبية قد تطلّب عدة قرون، بعد أن أثبت أولاوس رومر Olaüs R□mer انتهاء سرعة الضوء، فنحن ندرك أن بزوغ الفيزياء الكمومية قد أتى بسرعة فائقة، بعد إزالة احتمال قسمة المادة بصفة لانهائية.

لكن هذه المسيرة الدائرية تبدو بدون نهاية .ذلك أن محاولات الإزالة تعتبر في آن واحد نجاحا – لأنها تولِّد نظريات علمية جديدة – وفشلا لكونها تتسبب في بروز لانهايات جديدة : تفردات في نظرية النسبية، وتباعدات (لانهايات) في الفيزياء الكمومية. وهي كلها، على السواء، تبدو غير مقبولة، ويكاد يجمع الفيزيائيون على الرغبة في إزالتها بدون استثناء. فما هي أفضل طريقة للقيام بذلك؟ لا ندري !غير أننا نستطيع المراهنة على ظهور لانهايات جديدة. وبالتالي فلعله ينبغي أن ننصح الفيزيائي بأن يتظاهر بإرادة التخلص من اللانهايات دون الوقوع في الفخ .

اللانهايات المقَنّعة

إذا كانت اللانهايات تخيف الفيزيائيين فذلك يرجع أحيانا إلى أسباب واضحة متعلقة بالمشاهدة، كما هو الحال في موضوع الثقب الأسود. غير أن تلك الأسباب غالبا ما تكون ما ورائية غير معلنة. وعلى سبيل المثال، فليس هناك ما يبرر، قَبليًا، استبعاد اللانهايات المتعلقة بالزمن والفضاء. ولعل هناك عبرة في ملاحظة أن بعض الفرضيات الماورائية، التي يتخذها الفيزيائيون وكأنها من وضعهم الخاص، تخدم في الواقع الاتجاه المعاكس لاستبعاد اللانهايات .

لنأخذ على سبيل المثال انحناء الفضاء. هناك حكم مسبق مرتبط بعلم الكون، يميل إلى اعتبار انحناء الفضاء في الكون منعدما، أي أقليدي :إنه الاحتمال " الأقرب للطبيعية أو الأكثر "جمالا". ورغم ذلك فهذا الفضاء ليس سوى فضاء نصف قطره غير منته : الميول إلى وجود كوْن منعدم الانحناء يعني ترجيح وجود قيمة غير منتهية بدون انحناء !نلاحظ في هذا السياق أننا نميل دائما إلى السهولة والرجوع لنصف قطر انحناء غير منته :لوضع خريطة سطح الأرض نستخدم مستويات نتحصّل عليها بجعل نصف قطر انحناء كوكبنا يؤول – تخيليا – نحو اللانهاية .

يبدو في الاستدلال نوع من الخديعة، ومع ذلك نستطيع تجديده بخصوص الثابت الكوني. فهذا الثابت غالبا ما يفسر على أنه تفاعل طردي يعارض التثاقل الجاذب، على مستوى السلالم الكبيرة .إنه لا يؤدي أي دور في المسائل المحلية (مثل مسائل النظام الشمسي) لكنه يغيّر هندسة وديناميكا الكون. والملاحظ أن هذا الثابت يتمتع بمكانة فيزيائية يكتنفها الغموض، ولا نعرف الآن كيف نفسّر وضعيتها على الرغم من أن تبريرها الرياضياتي قائم من الناحية النظرية. ويتفادى البعض هذا المشكل بالإعلان عن أنه ثابت ينبغي أن يكون منعدما لعدة أسباب. ومرة أخرى فالفرضية التي غالبا ما تراها "أقرب للطبيعة" هي تلك التي تسلّم بوجود قيم لانهائية للمقادير الفيزيائية.

والواقع أن علم الكون ليس الوحيد الذي تتقنّع فيه اللانهايات. فالكل يعلم مثلا أن سرعة الضوء منتهية عدديا. ومع ذلك لا بد من طاقة غير منتهية لكي تمكّن متحركا من امتلاك تلك السرعة. وهكذا فالقيمة المنتهية تخفي قيمة فيزيائية غير منتهية تعبّر عن استحالة النفوذ إليها. وبالمثل فإن قيمة الصفر المطلق المنتهية لدرجات الحرارة تخفي درجة برودة لا نستطيع بلوغها. وللتأكد من ذلك يكفي ملاحظة الجهود الفائقة التي تبذل في المخابر لتبريد عينة صغيرة من المادة إلى بضعة أجزاء من المليون للدرجة المطلقة !كما أن الفوتون الصادر من أفق ثقب أسود، على بعد مسافة منتهية، يقضي مدة غير منتهية للوصول إلينا. ونلاحظ أيضا أن الفوتون الذي صدر من تفرد الانفجار الأعظم – منذ مدة لا شك أنها منتهية – له طاقة لامتناهية الصغر. وفي كل هذه الحالات هناك ارتباط بين مقادير منتهية ومقادير غير منتهية لوصف نفس المظهر. والجدير بالذكر أنه لا غرابة في كل ذلك إذ أن الفيزياء قادرة بهذا الشكل على التعامل مع المقادير المنتهية وغير المنتهية دون ظهور مفارقات. والأمر المهم في هذه القضية هو أن نكون ملمين بالموضوع الذي نتناوله وألا نخطئ خلال تعاملنا معه: استخدام الكمية اللائقة، أي تلك التي نستطيع قياسها والتي يحمل طابعها المنتهي أو غير المنتهي معنى دقيقا جدا .

إن علم الكون حقل مثالي في موضوع اللانهاية – فهو بمثابة الإقامة الفاخرة للانهايات :هناك لامتناهيات الكبر في الفضاء، وفي الزمن الماضي، وفي الزمن القادم؛ وهناك اللانهايات الكبيرة أو الصغيرة المرتبطة بالتفرد الابتدائي. يرى ألكسندر كويري Alexandre Koyré أن علم الكون الحديث يبدأ بالتخلي عن العالم المغلق لفائدة كون غير منته فضائيا. يظهر ذلك محيّرا بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون أن المسعى الأساسي الذي ينبغي أن يسلكه الفيزيائي يتمثل في إزالة اللانهايات من الفيزياء. غير أن النماذج الكونية المتوفرة لدينا تذهب إلى أبعد من ذلك : لهذه النماذج مكانة متميزة تسمح لها بمعالجة مسائل اللانهايات برصانة. وتتقبل هذه النماذج في حلولها "المنتهي" و"غير المنتهي "بدون مفارقات. يعتبر هذا الوضع فريدا في تاريخ الفيزياء، ومع ذلك هناك من يرفض هذا الاختيار : فبعضهم يتخوّف من اللانهاية، بينما يخشى الآخرون "المنتهي". وينبغي هنا الإشارة إلى أن الأساطير لا تزول بسرعة من الأذهان. كما أنه من الصعب وضع الإصبع على الحجج الماورائية لأن أصحابها يقدمونها عبر واجهة علمية، مثلما حدث بالنسبة للتهجمات ضد نماذج الانفجار الأعظم؛ في حين أن علم الكون الحديث يسمح للجميع بمعالجة مسائل اللانهاية بكل رصانة .

خـــــاتـــــمـــــة

يعتبر اللانهاية كمطلب باطني وعميق لضمير الإنسانية، وهو ليس حكرا للرياضياتيين ولا للفيزيائيين . ذلك أن علم الدين والفن والجمال، إضافة إلى الفلسفة، تواجه بدورها اللانهاية . ولذلك فإن رفض اللانهاية من قبل الفيزيائيين لا يمكن اعتباره، في جميع الأحوال، ظاهرة ذات صبغة منطقية. ألا ينتج ذلك الرفض من تأثيرات ومواقف لاشعورية؟ أليس ينتج من كون "منهج حياتنا في هذا العالم" مرتبطا بدافع عامل الموت، كما يصف الفلاسفة أحيانا اللانهاية؟ أليس هناك عجز، على مستوى الفكر، في تناول اللانهاية بسبب التخوفات التي تنجم عن ذلك: لحسن الحظ فإن الحياة، البالغة القسوة في معيشتها، ستعرف نهاية !ذلك هو مغزى ملاحظة جاك لاكان Jacques Lacan : " نحن لا نستطيع العيش إلا لأن حياتنا ستعرف نهاية ".فنفسيتنا يمكن أن تتشكل وتتهيْكل بفضل هذا الانقطاع الذي يبرز منه انتهاؤنا. ومن ثمّ يأتي رفض عنيف للانهاية ووضعه في قالب "محظور" اعتراضًا على بعض الانجذاب نحو ماورائي افتراضي واعد إلى درجة كبيرة .

لقد اكتشفت الفيزياء المعاصرة آفاقا عبّرت عن استحالة بلوغ اللانهايات الكلية والمجهرية : يرجع الأفق الكوني للنسبية إلى استحالة إرسال إشارات أسرع من الضوء، أما الأفق الكمومي فهو يرجع لمبدأ الارتياب الذي يمنع الصفر كنتيجة لقياس فيزيائي. لكن ذلك لم يخلّص الفيزياء من اللانهاية؛ ولا مجال للاعتقاد أنه ينبغي أن تبلغ ذلك الهدف .وفي هذا السياق، قال نيوتن: "النجوم لا تسقط لأنه لا وجود لنقطة مركزية يتم السقوط منها في كون غير منته." ومما لا شك فيه أن علم الكون، المرتبط تقدُّمه بفهم اللانهايات، يعتبر فرع الفيزياء الوحيد الذي نجد فيه إشكالية المنتهي/اللامنتهي مطروحة طرحا يسمح بتفادي المفارقات والتناقضات .ولعل هذا التفرد اللافت لعلم الكون – الذي نادرا ما يتم التنبيه إليه – هو إشارة تدلّ على أن نماذج الانفجار الأعظم تمثّل نموذجا مثاليا للسيرورة العلمية. والسبب في ذلك ربما يرجع إلى المدافعين عن تلك النماذج الذين اضطروا – لمواجهة الانتقادات التي غالبا ما كانت مضللة – إلى تحسين جانبها المعرفي وتقييدها بالمنهجية العلمية، محققين في ذلك نجاحا تجاوز مثلا نجاح الفيزياء الكمومية.

ومن ثمّ فلا شك أننا نستطيع تثمين حضور اللانهايات في الفيزياء، ولا يسعنا إلا أن نكون سعداء بذلك الحضور. فاللانهايات لا تمنع النظريات من أداء وظائفها، بل تكشف أيضا، عندما تشير إلى نقاطها الحساسة، عما تبقّى علينا إنجازه في مجال تطوير تلك النظريات، وهي توضّح السبل التي ينبغي إتباعها لبلوغ ذلك الهدف. فكلما أزيل لانهاية ظهرت نظرية جديدة أكثر اكتمالا، تولِّد بدورها لانهاية جديدا. وعليه يمكن أن تتخذ الفيزياء الشعار التالي: " لقد مات اللانهاية، فليحيا اللانهاية "!

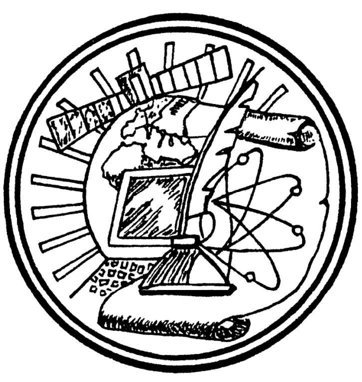

من الانتــرنــت إلى غوتـنـبرغ
(من سيقتل الآخر؟)

بقلم /إمبرتو إيكو ترجمة/ إيمان بقطاش عن اللغة الإنجليزية

حين عرض هيرمس، صاحب اختراع الكتابة المزعوم، ابتكاره على الفرعون تاموس، حسبما جاء في كتاب أفلاطون (فيدرا)، أشاد بتقنيته الجديدة تلك التي كان من المفترض أن تسمح للبشرية باستذكار ما قد ستؤول إلى نسيانه . لكن ذلك لم يرض الفرعون، إذ كان رده : " أيها العبقري ثوت، إن الذاكرة هبة عظيمة ينبغي إبقاؤها على قيد الحياة، من خلال تدريبها باستمرار، غير أن اختراعك هذا لن يلزم الناس قط على تدريبها أبدا، إذ أنهم لن يتذكروا الأمور بفضل جهد داخلي بل بمجرد الاستناد إلى وسيلة خارجية ".

بإمكاننا أن نتفهم انشغال الفرعون، ذلك لأن الكتابة، مثلها مثل أي أداة تكنولوجية جديدة، قد يكون من شأنها أن تجعل القوة البشرية بليدة، حين تحل مكانها وتعززها، كما هو الحال في مجال السيارات التي صيرتنا عاجزين عن المشي. لقد شكلت الكتابة خطرا لأنها هونت قدرات العقل حين قدمت روحا متحجرة للكائن البشري ورسما كاريكاتوريا للعقل وذاكرة عضوية.

ويعتبر نص أفلاطون نصا تهكميا بالطبع، إذ انه أقام حجته في مواجهة الكتابة، لكنه زعم أن خطابه ذاك إنما هو كلام سقراط الذي لم يدون شيئا قط (ذلك أنه لم ينشر شيئا، بل هلك في أثناء نضاله الفكري).

لا أحد في الوقت الحاضر يشاطر مثل هذا الانشغال وذلك لسببين اثنين في غاية البساطة، أولهما هو أننا نعلم أن الكتب ليست طرقا لجعل شخص ما يفكر نيابة عنا، بل هي على العكس من ذلك أدوات تستحثنا على إثارة أفكار أخرى. فبعد ابتداع الكتابة فقط، أصبح من الممكن تأليف تحفة فنية عن الذاكرة العفوية على حد ما فعله مارسيل بروست في روايته (بحثا عن الزمن الضائع) (A la recherche du temps perdu).

وثانيهما هو أنه إذا كان الناس فيما مضى يحتاجون إلى تدريب ذاكرتهم من أجل استذكار الأشياء، فإنه تعين عليهم بعد اختراع الكتاب تدريب ذاكرتهم أيضا بغاية استذكار الكتب . فالكتب تتحدى الذاكرة وتقويها، ولا تسعى إلى تخديرها.

ومع ذلك فقد كان الفرعون في زمنه يرى في ذلك خطرا مستديما، أي الخطر الذي قد يثيره إنجاز تكنولوجي جديد بإلغاء أو إتلاف ما نعتبره أمرا ثمينا مثمرا، أو شيئا يمثل فضيلة في حد ذاته، وينطوي على قيمة روحية.

ولكأننا بالفرعون يقول وهو يشير إلى المساحة المكتوبة أولا، ثم إلى صورة مثالية للذاكرة البشرية: " هذه ستقتل تلك ".

وبعد مرور أكثر من ألف سنة، عرض علينا فيكتور هيجو في كتابه "أحدب نوتردوام " القسيس كلود فرولو وهو يشير بإصبعه أولا إلى كتاب، ثم إلى الأبراج فإلى صور كاتدرائيته المحبوبة، قائلا: "هذا سيقتل ذاك " (سيقتل الكتاب الكاتدرائية، و ستقضي الحروف على الصور).

لقد وقعت أحداث قصة "نوتروادم" في القرن الخامس عشر، أي بعد اختراع الطباعة بوقت قصير، وقبل ذلك، كانت المخطوطات مقصورة على نخبة من المتعلمين، لكن الوسائل الوحيدة لتعليم الجماهير قصص الكتاب المقدس وحياة المسيح والقديسين والمبادئ الأخلاقية، بل وحتى المآثر التاريخية الوطنية أو أبسط المفاهيم المبدئية في الجغرافيا والعلوم الطبيعية (طبيعة الشعوب الغير المعروفة وخصائص الأعشاب والأحجار) كانت جميعها مأخوذة من صور الكاتدرائية. وكانت كاتدرائية العصور الوسطى أشبه ببرنامج تلفزيوني دائم وغير قابل للتغيير، يفترض فيه أن يقول للناس كل شيء ضروري لحياتهم اليومية تماما مثلما هو الحال عليه بالنسبة لخلاصهم الأبدي. إذ كان من الممكن أن يقود الكتاب إلى أن يشغل الناس أذهانهم عن أهم قيمهم كلها وأن يشجعهم على اكتساب معلومات لا طائل من ورائها وأن يسعوا إلى تأويل الكتب المقدسة على هواهم وإلى الخوض في فضول أرعن.

خلال الستينات، نشر "مارشال ماكلوهان" كتابه "مجرة غوتنبرغ"(the Gutenberg Galaxy معلنا فيه أن الطريقة الخطية للتفكير التي كان اختراع الصحافة وراءها على وشك أن تستبدل بوسيلة استقبال وفهم أكثر عالمية عبر صور التلفزيون أو أنواع أخرى من الأجهزة الالكترونية. وإذا لم يكن ماكلوهان قد جزم برأيه في هذا الشأن، فمن المؤكد أن أعظم قرائه أشاروا حتما إلى ملهى في (مانهاتن) أولا، ثم إلى الكتب المطبوعة قائلين : "هذا سيقتل ذاك".

كانت وسائل الإعلام في حاجة إلى بعض الوقت لكي تتقبل الفكرة القائلة بأن حضارتنا صارت على وشك أن تصبح صورة موجهة، وفي مقدورها أن تؤدي إلى تدهور مستوى المعرفة والكتابة. وأصبح هذا الأمر في الوقت الحاضر بمثابة شعار بين جميع المجلات الأسبوعية. والغريب فيه هو شروع وسائل الإعلام في الاحتفاء بتدهور نسبة المعرفة والكتابة وطغيان قوة الصورة في الوقت الذي شهدت فيه الساحة العالمية ظهور الحاسوب.

ولا شك في أن الحاسوب جهاز يمكن المرء من عرض الصور وطبعها، كما أنه لا شك في أن تزويده بالمعلومات يتم عن طريق الأيقونات، ولكن من المؤكد سواء بسواء أن الحاسوب صار، أولا و قبل كل شيء، جهازا أبجديا تجري الكلمات والجمل على شاشته، وعند استخدامه لابد أن تكون لدينا القدرة على الكتابة والقراءة. إن الجيل الجديد الذي يستخدم الحاسوب الجديد مدرب على القراءة بسرعة خيالية، ذلك أنه ليس بمقدور أستاذ جامعي قديم قراءة ما هو مكتوب على شاشة الحاسوب بنفس سرعة المراهقين. وإذا كان هؤلاء المراهقون راغبين في برمجة حواسيبهم الشخصية، تعين عليهم معرفة ودراسة الإجراءات المنطقية والخوارزميات وكذا كتابة الكلمات و الأرقام على لوح المفاتيح بشكل سريع.

وفي هذا النطاق يمكن أن نقول إن الحاسوب جعلنا نعود إلى "مجرة غوتنبرغ", فالأشخاص الذين يقضون لياليهم في دردشة غير منتهية عبر الانترنيت يستخدمون الكلمات أساسا. وإذا اعتبرت شاشة التلفاز نافذة مثالية يمكن للمرء أن يشاهد العالم بأكمله من خلالها على شكل صور، فان شاشة الحاسوب هي بمثابة كتاب مثالي في وسع المرء أن يقرأ العالم عبره في شكل كلمات وصفحات.

لقد قدم الحاسوب الكلاسيكي شكلا خطيا عن التواصل الكتابي، وعرضت شاشته سطورا مكتوبة، فصار بمثابة كتاب للقراءة السريعة.

أما الآن، فهناك نصوص تجمع بين ما هو مكتوب ومصور. فقد كان على الإنسان أن يقرأ بطريقة خطية ما في الكتاب، من اليسار إلى اليمين (أو من اليمين إلى اليسار، أو من أعلى إلى أسفل تبعا للثقافات المختلفة). وكان قادرا على أن ينزلق على نحو جلي عبر الصفحات والعودة – بعد الوصول إلى الصفحة 300 – إلى مراجعة أو إعادة قراءة شيء في الصفحة العاشرة، لكن ذلك يتطلب جهدا، أعني جهدا جسديا. أما في النص الذي يتضمن الصور والحروف في شكل شبكة متعددة الأبعاد، فإنه من الممكن أن تترابط جميع النقط أو العقد ويتحقق الانتقال فيما بينها.

ونكون ها هنا قد وصلنا إلى الفصل الأخير من قصة "هذا سيقتل ذاك ". وقد اتضح أكثر فأكثر أن الأقراص المضغوطة المتضمنة نصوصا تجمع بين الحروف والصور هي التي ستحل مكان الكتب.

ويفترض أن تصبح الكتب في عداد الماضي بظهور القرص المرن الذي يتضمن النص والصورة. فإذا اعتبرنا أن النص الذي ينطوي على الحروف والصور عبارة عن تكنولوجيا متعددة الوسائط كذلك، فإن جل الأقراص المرنة لن تتضمن نصوصا مماثلة فحسب، بل وأشرطة فيديو أيضا وأدوات أخرى.

وعلينا أن نسأل أنفسنا الآن ما إذا كانت مثل هذه التطلعات واقعية أم محض خيال، وما إذا كانت الموازنة التي أشرنا إليها بين الاتصال المرئي والأبجدي، والكتب والنصوص التي تحيل على روابط متعددة، بسيطة إلى هذا الحد. دعوني أعرض عليكم سلسلة من المشاكل والحلول الممكنة المتعلقة بمستقبلنا.

فحتى بعد اختراع الطباعة، لم تعتبر الكتب الأداة الوحيدة لاكتساب المعلومات، بل كانت هناك اللوحات الفنية والرسوم الشعبية المطبوعة والتعليم الشفهي وغير ذلك. وهكذا أمكن القول إن الكتب كانت، في جميع الأحوال، أهم أداة لنقل المعلومات العلمية، بما في ذلك الأخبار عن الوقائع التاريخية. وذلك يعنى أنها كانت الأداة الأساسية المستخدمة في المدارس.

ومع انتشار وسائل الإعلام المختلفة، من سينما وتلفزيون، حدث نوع من التغيير. فمنذ عدة سنوات كانت الطريقة الوحيدة لتعلم لغة ما (باستثناء السفر إلى الخارج) تتمثل في دراسة هذه اللغة من خلال كتاب. أما الآن فغالبا ما يتعلم أولادنا لغات أخرى بالاستماع إلى تسجيلات ومشاهدة أفلام في طبعاتها الأصلية وفك رموز التعليمات المطبوعة على علب المشروبات، كما أن نفس الشيء فيما يتعلق بالمعلومات الجغرافية. وفي طفولتي، لم أعتمد في الحصول على معلوماتي عن البلدان الأجنبية على نصوص الكتب، بل بقراءة المغامرات الروائية (جول فيرن على سبيل المثال). وقد تعلم أبنائي في وقت مبكر جدا أكثر مني عن نفس المواضيع بمشاهدة التلفزيون والأفلام. فبإمكان الإنسان أن يتعرف على تاريخ الإمبراطورية الرومانية من خلال الأفلام شريطة أن تكون هذه الأخيرة صحيحة تاريخيا. ولم يكمن ذنب (هوليوود) في جعل أفلامها تتعارض مع كتب "تاسيتوس" (Tacitus) و"جيبون" (Gibbon)، بل في فرض رواية تتسم بالإثارة و الرومانسية على كل من "تاسيتوس" و"جيبون".

وبمقدور برنامج تلفزيوني تعليمي (ولا يدور الحديث هنا حول القرص المضغوط) تفسير موضوع الوراثة أفضل من الكتاب. إذ تدخل في الوقت الحاضر وسائل إعلام كثيرة ضمن مفهوم محو الأمية، وعليه، فلا بد من انتهاج سياسة مستنيرة لمحو هذه الظاهرة تراعي الإمكانيات التي تتضمنها جميع وسائل الإعلام، ولا بد من توسيع مجال الانشغالات التعليمية لتشملها بأكملها. ثم إنه لا بد من الحرص على توزيع المسؤوليات والمهام بشكل متوازن. فإذا كانت آلة التسجيل أفضل من الكتب لتعلم اللغات، فذلك يعني ضرورة الاهتمام بالأشرطة، وإذا ساعد حفل موسيقي ل "شوبان Chopin" مدعم بتعاليق على الأقراص المضغوطة من أجل فهمه، فلا عجب إن تردد الناس في اقتناء خمسة مجلدات عن تاريخ الموسيقى.

وحتى وإن كان صحيحا في عالم اليوم أن الاتصال المرئي يطغى على الاتصال المكتوب، فإن المشكلة لا تكمن في معارضة أحدهما للآخر، بل في كيفية تحسينهما معا. لقد كان للاتصال المرئي في العصور الوسطى أهمية أكبر في أنظار الجماهير، لكن ذلك لا يعني أن كاتدرائية "شارتر" كانت أقل أهمية على الصعيد الثقافي من (موسوعة) " صورة العالم، لهونوريوس" (Imago Mundi of Honorius of Autun). لقد كانت الكاتدرائيات بمثابة تلفاز تلك الفترة، إلا أن الفرق بين ذلك التلفاز وبين الجهاز الحالي هو أن مديري تلفزة العصور الوسطى كانوا، إلى جانب مطالعاتهم الكتب القيمة، يتمتعون بخيال فياض، ويعملون من أجل المصلحة العامة (أو على الأقل من أجل ما كانوا يؤمنون بأنه يمثل مصلحة عامة).

غير أن المشاكل الحقيقة لا تكمن هنا، إذ لا بد من المساوقة بين ما هو ملفوظ وبين ما هو مكتوب أساسا وذلك لأسباب عديدة. وقد نشر صول وورث Sol Worth، أحد علماء علم الدلالة، مقالة تحمل العنوان التالي " الصور لا يمكنها أن تقول لا "، وبالتالي يمكنني القول إنه "لا وجود للحصان الوحيد القرن unicorn"، لكن إذا عرضت صورة لهذا الحصان فمعنى ذلك أنه موجود. فهل هذا الحصان الذي أراه هنا واحد من بين أنواع أخرى، أم هو الحصان الوحيد القرن في حد ذاته؟ أعني هل الحديث يخص حصانا واحدا أم جميع الأحصنة الوحيدة القرن بشكل عام ؟

ليست هذه المسالة عديمة الأهمية مثلما تبدو عليه، إذ كثيرا ما كتب علماء علم المنطق و الإشارات عن الفروق الكامنة بين عبارات مثل: طفل، الطفل، هذا الطفل، جميع الأطفال، الطفولة من حيث فكرة عامة. وكثرة وجوه الاختلاف هذه لا يمكن عرضها عرضا يسيرا بواسطة الصور. وفي هذا الصدد، يتساءل "نلسون غودمان" في كتابه "لغات الفنون" (Languages of Arts) ما إذا كانت صورة امرأة تمثل امرأة بصفة عامة، أم لوحة امرأة معينة، أم مثالا لمواصفات مميزة تخص امرأة ما، أم مرادفة لجملة : هناك امرأة تنظر إلي.

يمكن القول إن التعليق في مقدوره أن يساعد الإنسان على فهم ما يعنيه الملصق أو الكتاب المصور وأنواع أخرى من الكتابة. ولكنني أود تذكيركم بصورة بلاغية يقال لها المثال، وهي الصورة التي خصص لها أرسطو عددا من الصفحات المثيرة للاهتمام. فمن أجل إقناع شخص ما حول مسألة معينة، يكون البرهان الأكثر إقناعا عن طريق الاستقراء. واشترط لهذا الأخير وجود حالات عديدة، ثم استنتج أنها قد تمثل قاعدة عامة له.

فلنفترض أنني أريد البرهنة على أن الكلاب لطيفة ومحبة لأسيادها: إنني أشترط وجود حالات عديدة يكون فيها الكلب قد أثبت أنه لطيف وخدوم، وأقترح أن تكون هناك قاعدة عامة يكون فيها اللطف ميزة جميع الحيوانات المنتمية إلى هذه الفصيلة.

ولنفترض الآن أنني أريد إقناعكم بأن الكلاب خطرة، وبمقدوري فعل ذلك بتقديمكم المثال التالي: "ذات يوم، قتل كلب سيده ". يمكنكم حينئذ الفهم ببساطة أن حالة واحدة لا تثبت شيئا. لكن إذا كان المثال مريعا، فإنني أقترح خلسة أن الكلب بإمكانه أن يكون عدائيا. وعند اقتناعكم أن الأمر قد يكون كذلك، أكون تمكنت على نحو غير ملائم من استخلاص قاعدة من خلال حالة واحدة ومن بلوغ الاستنتاج التالي: "إنه لا يمكن الوثوق بالكلاب". إنني باستعمال الصورة البلاغية، وأعني بها هنا المثال، أكون قد انتقلت من كلب واحد إلى التعميم على جميع الكلاب.

إذا كان تفكيركم نقديا، أصبح في مقدوركم أن تدركوا أنني تلاعبت في استخدام تعبير لفظي (كان هناك كلب مؤذ) لتحويله إلى (أن جميع الكلاب مؤذية)، وهو ما يختلف في معناه. ولكن إذا كان المثال مرئيا بدلا من أن يكون لفظيا، فسيكون الرد النقدي أكثر صعوبة. لو عرضت عليكم صورة فظيعة لكلب معين يعض سيده، سيكون التمييز هاهنا بين الكلام الخاص والكلام العام صعبا، لكن سيكون من السهل أن أجعل هذا الكلب يمثل فصيلته.

فللصورة، إن جاز التعبير، نوع من القوة المعنوية الأفلاطونية من حيث إنها تحول الأفكار الخاصة إلى أفكار عامة.

وبالتالي يصبح تحقيق إستراتيجيات مقنعة كفيلة بأن تقلل قدرتنا النقدية أمرا أسهل عن طريق اتصال مرئي محض وبواسطة التربية. فإذا قرأت في الجريدة عن رجل معين يقول: " نريد أن يكون السيد فلان رئيسا" أكون على دراية بأنني تلقيت الرأي عن شخص معين. و لكن إذا شاهدت على شاشة التلفزيون رجلا يقول بحماس: "نريد السيد فلان رئيسا" يكون من الأسهل كثيرا اتخاذ رغبة هذا الفرد مثالا عن الرغبة العامة.

وكثيرا ما يدور في خلدي أن مجتمعاتنا سائرة نحو الانشطار في وقت قريب (هذا إذا لم تكن قد انشطرت بالفعل) إلى فئتين من المواطنين: أولئك الذين يشاهدون التلفزيون، أي يتلقون صورا جاهزة، ومن ثم، مفاهيم مسبقة عن العالم دون أن تتوافر لديهم القدرة على نقد المعلومات التي يلتقطونها والتي تكون قد اختيرت مسبقا. وأولئك الذين يعرفون كيفية التعامل مع جهاز الحاسوب وانتقاء المعلومات، وهو الأمر الذي سيعيد الانشطار الثقافي الذي سبق أن وجد في عهد "كلود فرولو" بين الذين كان بإمكانهم قراءة المخطوطات، ومن ثم، نقد المسائل الدينية والعلمية أو الفلسفية وأولئك الذين تلقوا تعليمهم عن طريق صور الكاتدرائية المختارة التي قدمها لهم سادتهم، أي الأقلية المتعلمة.

يستطيع كاتب قصص خيالية تصور الشيء الكثير عن عالم مستقبلي تتلقى فيه غالبية الطبقة الكادحة الاتصال المرئي فقط، أي ذلك الذي برمجته نخبة من الذين تعلموا الحاسوب.

هناك نوعان من الكتب: كتب موجهة للقراءة وأخرى للإطلاع على ما تتضمنه من معلومات. وطالما تعلق الأمر بالكتب الموجهة للقراءة (سواء أكانت روايات أم مقالات فلسفية أم دراسات سوسيولوجية أم غيرها) فإن الطريقة العادية لقراءتها، هي تلك التي أطلق عليها تسمية " قصص التحريات البوليسية ". فأنتم تبدأون قراءتها من الصفحة الأولى، أي حيث يطلعكم الكاتب على أن هناك جريمة ارتكبت، فتتابعون جميع خطوات التحقيق حتى النهاية، وتكتشفون في آخر المطاف أن المذنب هو كبير الخدم. وهنا تنتهي القصة وتجربتكم في القراءة أيضا. لاحظوا أن مثل هذا الأمر يحدث كذلك حتى وإن أنتم قرأتم على سبيل المثال " مقالة في المنهج "(Discours de la Méthode) لديكارت، ذلك أن الكاتب أراد منكم فتح الكتاب على صفحته الأولى ومتابعة سلسلة الأسئلة التي طرحها وملاحظة كيف تمكن من الوصول إلى بعض الاستنتاجات النهائية. وبالطبع، يستطيع المثقف الذي اطلع على هذا الكتاب من قبل إعادة قراءته مع الانتقال من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، محاولا عزل وجود أي صلة بين تعبير وارد في الفصل الأول وآخر في الفصل الأخير. كما يمكن للمثقف أن يقرر عزل جميع الأحداث المتعلقة بكلمة "قدس" في مؤلف "توماس الأكويني الضخم، وسيعني ذلك تجاوز آلاف الصفحات من أجل لفت انتباهه إلى الفقرات التي تتعلق بموضوع القدس، وما تلك إلا طرق من القراءة التي يعتبرها الشخص العادي غير طبيعية.

ثم تليها الكتب التي يمكن الرجوع إليها مثل كتب الإرشادات والموسوعات. فأحيانا لابد من قراءة كل محتوى الكتيبات من البداية الى النهاية، لكن إذا كان للمرء معرفة كافية بالمسألة أمكنه الإطلاع عليها أو اختيار بعض الفصول أو الفقرات منها. عندما كنت في الثانوية، كان علي قراءة كتيبي في الرياضيات بكامله وبطريقة خطية، واليوم إذا احتجت إلى مفهوم معين في اللوغارتم، ما علي سوى الاطلاع عليه. ولقد احتفظت به على أحد رفوفي، لا لقراءته أو إعادة قراءته كل يوم، بل لأنني سأبقيه من أجل العثور على عنصر قد أكون بحاجة إليه ربما بعد عشر سنوات.

أما الموسوعات فهي موضوعة بهدف الإطلاع عليها، لا لقراءتها من أول صفحة إلى آخر صفحة منها. وأحيانا، قد يأخذ شخص ما مجلدا من مجلدات موسوعة ما لمعرفة تاريخ وفاة نابليون أو لاستعادة صيغة حمض الكبريت، لكن المثقفين يستعملونها في حالات أكثر تعقيدا. فعلى سبيل المثال إذا أردت معرفة ما إذا كان ممكنا أن يكون نابليون قد التقى بكانط، تعين علي أن أتناول المجلد الذي يحمل حرف "كاف" ومجلد حرف "النون" من الموسوعة، وأكتشف حينها أن نابليون ولد في عام 1769 وتوفي سنة 1821، أما كانط فهو من مواليد 1724 وتوفي سنة 1804، أي حين كان نابليون إمبراطورا. وعليه، فإن لقاءهما أمر ممكن. وربما اقتضى الأمر أن اطلع على ترجمة حياة كانط أو نابليون – لكن في نبذة عن حياة نابليون، الذي التقى بالعديد من الأشخاص. لا يمكن استبعاد فكرة لقائه بكانط، في حين يفترض أن يكون أي لقاء بينهما مدونا في سيرة كانط. وبإيجاز، يتعين علي تصفح كتب عديدة في مكتبات عديدة وكذا تدوين ملاحظات من أجل القيام بمقارنة تالية بين جميع المعطيات التي جمعتها، وذلك ما يكلفني جهدا بدنيا شاقا.

لكن، مع النص الذي يجمع بين الكتابة والصورة، بإمكاني التنقل عبر الموسوعة بأكملها، وبمقدوري ربط حدث ما مسجل في البداية مع سلسلة من الأحداث المماثلة التي جرى ذكرها في النص، ومقارنة البداية بالنهاية. سيكون في وسعي استعراض قائمة الكلمات التي تبدأ بالحرف "ألف" وجميع الحالات التي ذكر فيها اسم نابليون مرتبطا باسم كانط، وكذا مقارنة تواريخ الميلاد والوفيات. إنني باختصار أستطيع القيام بواجبي في ظرف دقائق معدودة.

ولا شك في أن مثل هذه النصوص ستؤدي إلى التخلي عن الموسوعات والكتيبات، إذ يمكن في عدد قليل من الأقراص المضغوطة (وربما في قرص واحد في وقت قريب)، تخزين أكبر عدد من المعلومات مقارنة بدائرة المعارف البريطانية بأكملها، مع ميزة الانتقال عبر المراجع و العودة إلى المعلومات بطريقة غير خطية. وستشغل الأقراص المدمجة، (compact disk) بالإضافة إلى الحاسوب خمس المكان الذي تشغله الموسوعة، ذلك أنه لا يمكن الانتقال إلى أي مكان وحمل الموسوعة مثل القرص المضغوط، ولا يسهل تحديثها مثلما هو الأمر بالنسبة للقرص المضغوط. فالرفوف تعج حاليا في منزلي – كما في جميع المكتبات العامة– بالموسوعات، وقد تنقل من مكانها في مستقبل قريب، فلا داعي للتذمر من اختفائها.

فهل تستبدل الكتب الموجهة للقراءة بالقرص الذي يحيل على روابط متعددة؟ في الواقع، هذا السؤال يربط بين مسألتين، وقد يعاد صياغته ضمن سؤالين مختلفين .

أولــهما عــملي: هــل ستــعوض الأدوات الالــكترونية الكتب الموجهة للقراءة؟.

ثانيهما نظري وجمالي: هل بإمكان القرص المتعدد الوسائط، (multimedia) الذي ينطوي على روابط متعددة، تحويل شكل الكتاب الموجه للقراءة مثل الروايات والمجموعات الشعرية؟

دعوني أجيب في البداية عن السؤال الأول. ستبقى الكتب ضرورية لا بالنسبة للأدب فحسب، ولكن في جميع الحالات التي تتطلب قراءة متمعنة كذلك، لا من أجل تلقي المعلومات فحسب، بل وللمناقشة والتفكير حولها، فالقراءة على شاشة حاسوب لا تشبه قراءة كتاب. تخيلوا عملية تعلم برنامج حاسوب جديد. من المألوف أن يتمكن البرنامج من عرض جميع التعليمات المتطلبة على الشاشة، ولكن غالبا ما يلجأ المستعملون الذين يرغبون في تعلم البرنامج إلى طباعة التعليمات وقراءتها في شكل كتاب، أو اقتناء دليل مطبوع، (اسمحوا لي هاهنا أن أنتقد الوضع الراهن الذي يظهر جليا انه يتم تدوين دليل الحاسوب المساعد من قبل أغبياء مستهزئين، في حين تدون الكتيبات المعروضة في السوق بأيدي عباقرة). فمن الممكن وضع برنامج مرئي يوضح جيدا طريقة طباعة و تجليد كتاب، ولكن قصد الحصول على تعليمات حول كيفية كتابة (أو استخدام) برنامج حاسوب، يتطلب الأمر وجود كتيب مطبوع.

وبعد قضاء أكثر من 12 ساعة أمام لوحة تحكم الحاسوب أصبحت عيناي مثل كرتين من لعبة التنس، وشعرت برغبة الجلوس مستريحا على الأريكة، وقراءة جريدة، وربما قصيدة جميلة.أعتقد أن الحاسوب ينشر نوعا جديدا من معرفة الكتابة والقراءة، لكنه عاجز عن تلبية جميع الاحتياجات الفكرية التي تستوجب التحفيز .

وأثناء ساعات استراحتي حلمت بحاسوب من جيل جديد، يقرأ لوحده ما هو مكتوب على شاشته، وملم بطرق القراءة. ولكن فجأة، زال حماسي ورحت أبحث عن طريقة للقراءة تكون مختلفة وأكثر راحة.

خلال ندوة انعقدت في جامعة سان مورينو حول مستقبل الكتاب (حيث قامت مؤسسة بريبولز "Brepols" بنشر الحوار)، لاحظ رجيس دبراي "Regis Debray" أن هناك علاقة بين قيام الحضارة اليهودية على أسس كتاب مقدس وكونها حضارة بدوية في نفس الوقت. وأعتقد أن ملاحظته هذه بالغة الأهمية. فقد استطاع المصريون نحت شواهدهم على المسلات الحجرية، ولكن لم يكن ذلك بمقدور النبي موسى. وإن أنتم أردتم عبور البحر الأحمر تبين لكم أن القراطيس كانت أنفع وسيلة لتسجيل الحدث. كما يمكننا أن نذكر بهذه المناسبة حضارة بدوية أخرى، هي الحضارة العربية القائمة على أسس كتاب مقدس كذلك، والتي كانت تفضل الكتابة بدلا من الصور.

للكتب كذلك مزية أخرى مقارنة بالحاسوب حتى وإن تمت طباعتها على ورق الحمض الحديث الذي يعيش 70 سنة أو أكثر، أي إنها أكثر دواما من الأقراص المغناطيسية . وعلاوة على ذلك، فإنها لا تعاني من انقطاع التيار الكهربائي، بل تتميز بمقاومتها للصدمات . ولا تزال تمثل أكثر الوسائل اقتصادية ومرونة لنقل المعلومات

وبأدنى الأسعار . أما أجهزة الحواسيب فتبقى في انتظاركم في مكانها، بينما تظل الكتب تسافر معكم وبنفس سرعتكم، وفي حال ما إذا جنحت سفينتكم نحو جزيرة قفراء، انتفعتم بها، في حين أنه لن تتاح لكم الفرصة لوصل جهازكم بالكهرباء، وحتى إن كان حاسوبكم مدعما ببطاريات شمسية لن تسهل عليكم القراءة خاصة إذا استلقيتم على أرجوحة. لذلك تبقى الكتب أفضل رفيق عند غرق سفينتكم أو بعد ذلك.

ولأغراض علمية، قد تحول الكتب الموجهة للقراءة إلى قرص مضغوط يتضمن نصا ذا روابط متعددة، فقد يحتاج المثقف إلى أن يعرف على سبيل المثال عدد المرات التي ظهرت فيها كلمة " good" في كتاب " الفردوس المفقود (the Paradise Lost)، فضلا عن وجود أنواع من النصوص التي تحيل على روابط متعددة خاصة بالشعر وتبعا للكتاب الموجه للقراءة أو النص الشعري المراد تحويله إلى نص فائق متعدد الروابط.

وفي هذه النقطة، نكون قد انتقلنا إلى السؤال الثاني، إذ لم يعد الأمر يتعلق هنا بمسألة عملية بل بطبيعة عملية القراءة.

يمكن للرواية البوليسية أن تبنى على طريقة مفتوحة باعتبارها قائمة على طريقة نص متعدد الروابط، وبهذا يكون بمقدور القارئ تحديد مسار معين من القراءة لتطوير أحداث روايته الشخصية، فيكون له عندئذ رأي في تعيين هوية المذنب الذي قد يصبح بذلك المحقق بدلا من كبير الخدم. وهذه الفكرة ليست جديدة، فقبل اختراع الحاسوب، كان الشعراء و كتاب الرواية يحلمون بنص مفتوح تماما، ويعيد القراء كتابته بصفة مختلفة لعدد غير متناه من المرات. وهذا ما كان موضوع فكرة "الكتاب" (Le Livre) الذي أثار حماس صاحبه مالارمي (Mallarmé)، ورواية (صحوة فينجان (Finnegans Wake) الذي كان في اعتقاد "جويس" (Joyce) انه الكتاب الملائم لقارئ واقع تحت سيطرة الأرق. وفي الستينات من القرن الماضي، كتب "ماكس سابورتا (Max Saporta) رواية كان من الممكن فصل صفحاتها لتأليف قصص صغيرة. وكتب "ناني بلستريني ' على أحد أقدم حاسوب قائمة من الأبيات المتقطعة التي جمعها الجهاز ونظمها بطرق مختلفة ليتم تركيب عدد من القصائد. وابتكر "رموند كونو " (Raymond Quenau) تركيبة من الحلول الحسابية كان لها الفضل في إتاحة إمكانية نظم الملايين من القصائد من خلال مجموعة محدودة من الخطوط. كما سجل العديد من الموسيقيين المعاصرين على أجهزة الحواسيب عددا من العلامات المتحركة يمكن للمرء تأليف مقطوعات موسيقية مختلفة باستعمالها.

ربما أدركتم الآن أننا نتعامل هنا مع مسألتين مختلفتين. أولاهما، فكرة النص القابل للتحريك شكلا، ويفترض أن يمنح القراء شعورا بالحرية المطلقة، لكن ذلك يبقى شعورا، أو مجرد وهم بالحرية.

فالجهاز الوحيد لوضع نصوص غير محدودة موجود بالفعل، وهذا منذ آلاف السنين، وأعني به الحروف الأبجدية، إذ بعدد قليل من الحروف يتمكن المرء من إنتاج الملايين من النصوص، وهو بالضبط ما تم القيام به في كتاب "هوميروس" (Homer) إلى يومنا هذا. نصوص تحفيزية لا تزودنا بالحروف أو بالكلمات، بل بسلسلة من

الكلمات المسبقة الوضع، أو الصفحات التي تقيد حريتنا في إبداع ما نريده. فحريتنا تقتصر فقط على تحريك عدد محدود من الطرق الموضوعة مسبقا في شكل فقرات نصية.

ولكنني كقارئ أمتلك هذه الحرية، وحتى وإن أنا قرأت رواية بوليسية تقليدية، فلن يمنعني أحد من تخيل نهاية مختلفة. مثلا في رواية عن موت عشيقين، يمكنني كقارئ التباكي على مصيرهما، أو تخيل نهاية ينجو فيها كلاهما من موت محقق ويعيشان سعيدين إلى الأبد. أنا كقارئ، أشعر إلى حد ما بالحرية مع النصوص المحدودة شكلا، تلك التي قد تسيطر على تخيلاتي عدة سنوات، مقارنة بتلك التي يمكن تحريكها ولا تسمح بإحداث تحويرات كثيرة فيها.

ويقودنا هذا الاحتمال إلى المسألة الثانية التي تتعلق بالنصوص المنتهية شكلا، ذات التأويل المفتوح بطرق مختلفة على الأقل. في الواقع، كان هذا هدف جميع الشعراء والروائيين. ولكن النص الذي قد يحتمل تأويلات عديدة ليس بالضرورة نصا يحتمل جميع التأويلات.

أعتقد أننا هنا أمام ثلاثة أنواع من النصوص التي تحيل على روابط متعددة، وينبغي علينا أولا وقبل كل شيء، أن نوضح بكل دقة الاختلاف القائم بين الأنظمة والنصوص. فالنظام (اللساني على سبيل المثال) يتضمن جميع الاحتمالات التي تعرضها لغة طبيعية ما، إذ يمكن تفسير كل عنصر لساني بمصطلحات لسانية أو دلالية أخرى: كلمة بواسطة تعريف، حدث بمثال، صنف من أصناف الطبيعة بصورة وهكذا. وربما كان النظام محدودا، ولكن غير محدد، وعندئذ تجدون أنفسكم داخل دوامة لا متناهية. بالطبع، هذا يعني أن كل الكتب الموضوعة موجودة ضمن قاموس جيد وقواعد نحوية مضبوطة. فإذا كان بمقدوركم استعمال قاموس "وبستر" (the Webster) صار في إمكانكم كتابة " الفردوس المفقود " ورواية " أوليس".

وبلا شك، قد يجعل النص المتعدد الروابط كل قارئ كاتبا إذا جرى تصوره بهذه الطريقة. ضعوا نصا بين يدي شكسبير وتلميذ ما إذا انطويا على نفس الرغبة في كتابة "روميو و جولييت"، فإنهما سيصلان إلى نفس المفارقة.

ومع ذلك لا يعتبر النص نظاما لسانيا أو موسوعيا، ذلك أن نصا معينا يقلل من احتمالات نظام ما غير محدودة وغير محدد لتشكيل عالم مغلق. لاشك في أن رواية (صحوة فينجان) مفتوحة على تأويلات عديدة، ولكن من المؤكد أنها لن تقدم لكم أبدا شرحا لنظرية "فيرما" أو القائمة الكاملة لكتب "وودي آلان". قد يبدو هذا أمرا تافها، لكن الخطأ الذي ارتكبه التفكيكيون حين اعتقدوا أنه في مقدورهم فعل كل ما نريده بالنص كان خطأ جسيما. فالنص الذي يحيل على روابط متعددة محدود ومحدد رغم كونه مفتوحا على التأويلات الغريبة التي لا يمكن عدها.

إذ أن هذا يتأقلم في تعامله مع الأنظمة بشكل ممتاز، ولكن هذه الأخيرة لا تتوافق مع النصوص كلها. الأنظمة محددة لكن غير محدودة، لكن النصوص محددة ومحدودة حتى و إن هي سمحت بوجود عدد هائل من

التأويلات الممكنة (ولن تبرر جميع هذه التأويلات). ومع ذلك هناك احتمال ثالث، وهو أنه قد نتصور وجود نصوص متعددة الروابط غير محددة وغير محدودة.

لكل قارئ القدرة على إضافة شيء، وتأليف نوع من موسيقى الجاز انطلاقا من قصة لا نهاية لها. وهنا بالتأكيد يختفي المفهوم الكلاسيكي للتأليف لتحل محله طريقة جديدة لإنجاز إبداع حر. وكوني وراء " العمل المفتوح"، لا يسعني إلا أن أحيي مثل هذه الإمكانية. ومع ذلك فهناك فرق بين القيام بعملية إنتاج نصوص ونصوص موجودة مسبقا. ينبغي أن تكون لنا ثقافة جديدة يتم فيها التفريق بين إنتاج نصوص غير محدودة وتأويلات دقيقة ونصوص محدودة . وهذا ما يحدث في ثقافتنا الحالية حيث نسعى إلى تقويم مختلف لأداء مسجل لسمفونية "بيتهوفن" الخامسة ومقطع من دورة موسيقية في نيوأورليانز.

نحن نسير نحو مجتمع أكثر تحررا، يتعايش فيه الإبداع الحر مع التأويل النصي، ويروقني ذلك. ولكن، علينا ألا نقول إننا استبدلنا شيئا قديما بآخر، .بل لدينا الاثنان معا، وهذا بفضل الله . فلا علاقة لعملية الانتقال بين القنوات التلفزيونية بمشاهدة الأفلام . ولا علاقة للوسائل المتضمنة نصا متعدد الروابط بقدرتنا على تأويل نصوص موجودة مسبقا. ولا يزال هناك غموض بين وحول مسألتين مختلفتين:

(1) هل سيؤدي الحاسوب إلى إهمال الكتب؟

(2) وهل سيؤدي إلى إهمال أدوات الكتابة والطباعة؟

ولنفترض أن الحاسوب سيؤدي إلى زوال الكتاب، لكن ذلك لا يعني زوال وسائل الطباعة . ذلك أن الحاسوب قد وضع طريقة جديدة لإنتاج المستندات ونشرها. وقصد إعادة قراءة نص وتصحيحه على نحو لائق، هذا إن لم يكن رسالة قصيرة، فإن الإنسان يحتاج إلى طباعته، ثم إعادة قراءته وتصحيحه على الحاسوب وإعادة طباعته مرة ثانية . ولا أعتقد أنه يمكن لشخص ما كتابة نص من آلاف الصفحات وتصحيحه دون طباعته على الأقل مرة واحدة.

الناس يرغبون في التواصل فيما بينهم، وكان هذا الأمر يتم في المجتمعات القديمة شفهيا. وقد حاولت المجتمعات الأكثر تعقيدا القيام بذلك عن طريق الطباعة. وينبغي التوضيح بأن الكتب المعروضة في محلات بيع الكتب مطروحة على سبيل الدعاية حتى وإن كانت من المطبوعات الجامعية. لكننا مع تكنولوجيا الحاسوب ندخل عصرا جديدا من المنشورات الحائطية. إذ بمقدور الناس التواصل بشكل مباشر دون وساطة دور النشر. العديد منهم لا يريدون النشر، بل أن يتواصلوا فيما بينهم فقط. وهم اليوم يقومون بذلك عن طريق البريد الالكتروني أو الانترنيت، وسيكون لذلك امتياز كبير على الكتب وحضارة الكتب وسوق الكتب.

فلننظر إلى محلات بيع الكتب. إنها تعج بها . وأنا شخصيا تصلني كتب كثيرة كل أسبوع، فإذا نجح الحاسوب في تقليص عملية نشر الكتب هذه، سيمثل ذلك أعظم تطور ثقافي.

ولعل من أكثر الاعتراضات شيوعا ضد القراءة والكتابة المزعومة بفضل الحاسوب اعتياد الشباب أكثر فأكثر على التكلم باستعمال صيغ قصيرة مبهمة مثل: دير (dir) – مساعدة (help) – نسخ القرص (discopy) –

خطأ رقم67 (erreur67) وغيرها. ومن أكثر الصيغ استعمالا في الشبكة: CULTR (رسالة قصيرة اللغة على شكل: نراكم في وقت لاحق). فهل هذه هي المعرفة بالقراءة والكتابة ؟

أنا من هواة جمع الكتب النادرة، وأشعر بالسعادة حين أقرأ عناوين تعود إلى القرن السابع عشر على مدى صفحة واحدة، وأحيانا أكثر، فهي تشبه عناوين أفلام " لينا فيرتمولر"(Lina Wertmuller) . المقدمات تنطوي على عدة صفحات، وهي تتضمن صيغ مجاملة تتم فيها الإشادة بشخصية مثالية غالبا ما تكون شخصية الإمبراطور أو البابا، وتتعدد الصفحات التي يجري فيها شرح المقصد وقيمة النص الذي يليه بأسلوب فيه الكثير من البهرجة.

لو اطلع كتاب عهد الباروك على كتب مثقفينا المعاصرين لأصيبوا بالرعب. المقدمات عبارة عن صفحة واحدة، وهي تلخص بإيجاز موضوع الكتاب، وتوجه الشكر لأولئك الذين قدموا دعمهم السخي من الوطن أو من الأجانب، ثم كلمة قصيرة عن الحب والتفهم الذي عبر عنه كل من الزوجة أو الزوج والأطفال مما جعل صدور هذا الكتاب أمرا ممكنا مع الإشارة إلى السكرتيرة التي طبعت المخطوط بإتقان، ومن هنا نطلع على جميع الصعوبات الإنسانية و الأكاديمية التي تكشف عنها هذه السطور القليلة: السهر مئات الليالي في سبيل تصوير النسخ، والعدد الهائل من سندويتشات 'الهمبرغر' الباردة التي هضمت على وجه السرعة.

لكن دعوني أتوقع أننا في مستقبل قريب سيقتصر كل ذلك على ثلاثة سطور : C /W , سميث , روكفيلر (تقرأ على النحو التالي: أشكر زوجتي وأولادي. تمت مراجعة الكتاب بكل تمعن من قبل البروفيسور سميث، والفضل لمؤسسة "روكفيلر" التي جعلت صدوره أمرا ممكنا).

ومن شأن هذه الصيغة أن تصبح فصيحة مثل المقدمات المكتوبة بأسلوب البهرجة الباروكية. فالمسالة لا تخص البلاغة فحسب، بل والمعارف المتعلقة بها وبجميع أنواعها أيضا. أعتقد أنه سيتم خلال السنوات القادمة بعث رسائل غرامية على شكل تعليمات قصيرة على أساس لغة قاعدية بصيغة "لو ...ف..." للحصول على شبه معلومة، مثلما جاء في: "أحبك، ولهذا لا أستطيع العيش من دونك " (بيت جميل للشاعرة إميلي ديكنسون).

وإذا لم تخنني الذاكرة، فإنه تم إدراج بعض البرامج اللغوية إلى جانب أعظم الأدباء الانجليز: 2B OR/NOT 2 B (أن نكون أو لا نكون)، وفقا للصيغة التي يتداولها الشباب اليوم لكتابة رسائلهم القصيرة).

هناك مقولة غريبة ترى أنه كلما زادت الألفاظ في التعبير ازداد التفكير عمقا واتسعت آفاقه. فالشاعر "مالرمي" يبقول إنه "يكفي تفسير كلمة 'وردة' للدخول في عالم من العطور والأشكال والأفكار". وعادة ما تدل قلة التعابير في قصيدة ما على كثرة معانيها. وتوحي ثلاثة أسطر للفيلسوف'باسكال' (Pascal) بالشيء الكثير مقارنة ب 300 صفحة من دراسة طويلة ومملة حول الأخلاق والميتافيزيقا. فالسعي وراء إيجاد معرفة جديدة بالقراءة والكتابة، أو ما تبقى منهما، لا يجب أن يكون نفس السعي وراء الكم المطلع على كيفية استعمال الحاسوب، ذلك أن أعداء المعرفة يختفون في غير هذا المكان.

حاولت حتى الآن أن أبين لكم أن ظهور الوسائل التكنولوجية الجديدة لن يجعل بالضرورة الوسائل السابقة في دائرة الإهمال. فالسيارة أسرع من الدراجة، ولكنها لم تمكن من إهمال الدراجات. ولن يكون أي تقدم تكنولوجي أحسن مما كانت عليه هذه الأخيرة. والفكرة التي ترى أن التكنولوجيا الجديدة ستبطل دور ما وجد من قبل تبالغ في التبسيط. فلم يشعر الرسامون بعد اختراع "داغير"، أي آلة التصوير، بضرورة استخدامها لرسم الواقع كما نحلم به، كما أن الحرفيين لم يلزموا أنفسهم بالقيام بذلك. لكن هذا لا يعني أن اختراع آلة التصوير عمل على تشجيع الفن التجريدي فقط. فهناك تقاليد كثيرة تتعلق بفن الرسم الحديث لم يكن وجودها ممكنا بدون نموذج الصورة الفوتوغرافية، من مثل تيار الواقعية المفرطة على سـبيل المثال (hyper–realism). الواقع هو الذي تشاهده عينا الرسام من خلال العين الفوتوغرافية.

ولا شك في أن ظهور السينما والمسلسلات الكوميدية أعفى الأدب من بعض الأعمال السردية. وإذا كان شيء من هذا القبيل يدعى بالأدب الحديث فهو راجع إلى حد كبير إلى تأثره بالمسلسلات الكوميدية أو السينما. ولنفس السبب، أنا لا أحتاج اليوم إلى بورتريه ضخم لرسام غير محترف، وبإمكاني أن أرسل إلى حبيبتي صورة جميلة لي. وهذا التغيير في الوظائف الاجتماعية لم يؤد إلى إهمال فن الرسم رغم أن عملية رسم البورتريهات لا تضطلع اليوم بنفس الوظيفة التي تؤديها عملية تصوير الأشخاص، (وهب الوظيفة التي يمكن القيام بها بشكل أفضل وبتكلفة أقل.) إلا أن رسم لوحات لشخصيات هامة على سبيل الاحتفاء بها يقتضي اقتناء وعرض مثل هذه الصور على أن يتم ذلك في جو يوحي بالارستقراطية.

وببساطة، فإن عدم التعود على ثقافة ما في التاريخ يعني ببساطة أن شيئا قتل شيئا آخر، أو أن أمرا ما غير شيئا آخر. ولقد اقتبست هذا من "ماكاوهان" وفقا لفكرة استبدال "مجرة غوتنبرغ" ب "المجرة المرئية "، وقد رأينا عدم صحة ذلك خلال العقود الأخيرة، إذ أعلن ماكلوهان نفسه أننا نعيش في قرية الكترونية عالمية جديدة. بالطبع، نحن نعيش في مجتمع إلكتروني، عالمي بما فيه الكفاية، لكنه ليس قرية، اللهم إلا إذا كنا نعني مستوطنة بشرية يتواصل فيها الناس مباشرة مع بعضهم البعض.

والمشاكل التي يواجهها المجتمع الالكتروني هي كالآتي:

(1) الوحدة، فالمواطن الجديد في هذا المجتمع حر في إبداع نصوص جديدة، وأبطال بالمعنى المفهوم التقليدي للتأليف، وحذف التمييز التقليدي الكامن بين الكاتب والقارئ ، لكن الخطر الكامن في الاتصال الذي يتم مع العالم بأكمله عن طريق شبكة المجرة هو أن يشعر المرء بالوحدة.

(2) كثرة المعلومات وانعدام القدرة على التمييز. عادة أقول إن صحيفة نيويرك تايمز NYT التي تظهر كل يوم أحد هي نوع من الصحف التي يمكنكم أن تجدوا فيها كل شيء صالح للطباعة. فهي تتضمن 500 صفحة تخبركم عن كل ما تريدون معرفته حول أحداث الأسبوع الماضي، ومعلومات عن العدد القادم. مع كل هذا لن يكفي

أسبوع واحد للإطلاع على جميع صفحات جريدة NYT ليوم الأحد .فهل هناك فرق بين جريدة تخبركم عن كل شيء لا يكون بمقدوركم قراءتها بأكملها، وأخرى لا أخبار فيها؟ . وهل هناك فرق بين NYT و جريدة "Pravda"؟

ولا يزال قارئ صحيفة نيويرك تايمز يستطيع التمييز بين عرض الكتب والصفحات المكرسة للبرامج التلفزيونية والملحق الخاص بالعقارات وهي القدرة على التمييز التي لا يمتلكها مستخدم الانترنيت. نحن اليوم عاجزون عن التفريق للوهلة الأولى بين مصدر موثوق به وآخر غير موثوق به. نحن بحاجة إلى شكل جديد من القدرات النقدية، كفن غير معروف من الاختيار، وباختصار، نحن بحاجة إلى حكمة جديدة، إلى نوع جديد من التدريب التعليمي.

اسمحوا لي أن أقول لكم إن وظيفة الكتب ستظل بالغة الاهمية بهذا المنظور. فمثلما تكون حاجتكم إلى كتيب مطبوع لمعرفة كيفية التصفح على مواقع شبكة الانترنيت، ستكون حاجتنا إلى كتيبات أخرى مطبوعة من أجل مواجهة حاسمة على الشبكة العنكبوتية العالمية "WWW".

واسمحوا لي أيضا أن أختم محاضرتي هذه بالإشادة بالعالم المحدود والمحدد الذي يقدمه لنا الكتاب. فلنفترض أننا نقرأ رواية "تولستوي" " الحرب والسلام"، إنكم حينئذ تتمنون من كل قلوبكم ألا تقع البطلة 'ناتاشا' في غرام ذلك البائس النذل (Anatoli)، وتتمنون أن يظل (Andrej)على قيد الحياة، وأن يعيش هو و'ناتاشا' معا إلى الأبد. لو كانت هذه الرواية في شكل قرص مضغوط يتضمن نصا متعدد الروابط، لكان بمقدوركم إعادة كتابة قصتكم الخاصة، حسب مزاجكم وإبداع عدد هائل من قصص "الحرب والسلام" يتمكن فيها "بيير بيزوخوف" (Pierre Buschov) من قتل نابليون، أو ربما يهزم فيها نابليون الجنرال Kustov.

للأسف لن يتسنى لكم ذلك مع هذه الرواية، إذ يتعين عليكم القبول بقوانين القدر، وأن تدركوا أنه لا يمكنكم تغييرها. فالرواية المتضمنة نصا متعدد الروابط تسمح لنا بممارسة الحرية والإبداع، وآمل أن يمارس مثل هذا النشاط الإبداعي في المدارس مستقبلا. لكن رواية " الحرب والسلام" المكتوبة لا تجعلنا نتعرف على إمكانيات الحرية اللامتناهية، بل أن نكون في خدمة قانون الضرورة. إننا نحتاج كذلك إلى تعلم دروس الموت والحياة من أجل أن نصبح أحرارا، وستبقى الكتب الوحيدة الوسيلة الوحيدة التي تزودنا بمثل هذه الحكمة.

هذه المحاضرة ألقاها إمبرتو إيكو Umberto Eco في الأكاديمية الايطالية للدراسات العليا بالولايات المتحدة الأمريكية. وإمبرتو إيكو عالم دلالات وروائي ترجمت أعماله الفكرية والأدبية إلى العديد من اللغات العالمية.

الحدود النهائية

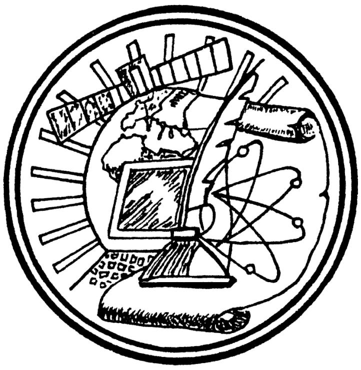

ستيفان هوكينغ Stephen Hawking *ترجمة: مرزاق بقطاش*

لم، يا ترى، يتعين علينا أن ننطلق نحو الفضاء؟ ما الذي يبرر إنفاق كل هذا الجهد والمال مقابل الحصول على كمية من الصخور القمرية؟ أليست هناك قضايا أخرى تستحق العناية على سطح هذه الأرض؟

ألا ما أشبه هذا الوضع بذلك الذي ساد في أوربا قبل عام 1492! لا شك في أن أهل ذلك الزمان قالوا إن هناك تبذيرا للمال وراء إرسال كولومبوس في مغامرة همجية على مدى مسافة لا يمكن تخيلها. ومع ذلك، فإن اكتشاف العالم الجديد يمثل علامة فارقة بالقياس إلى العالم القديم.

سيكون للانتشار في أجواز الفضاء تأثير أكبر، إذ أنه سوف يغير مستقبل الجنس البشري، وهو قد يحدد ما إذا سيكون لنا مستقبل على الإطلاق.

لن يحل هذا الانتشار عددا من مشاكلنا المباشرة على سطح الأرض، لكنه سيعطينا منظورا جديدا عنها، وسيؤدي بنا إلى أن ننظر إلى الخارج والداخل معا، بل إنه قد يوحدنا في سبيل مواجهة نفس التحدي.

وسيكون ذلك كله استراتيجية على المدى الطويل، أي مئات أو آلاف السنين. ويمكن أن ننشىء لنا قاعدة على سطح القمر في مدى ثلاثين عاما، وأن نبلغ المريخ في بحر خمسين عاما، بل وأقمار الكواكب الخارجية في مدى مائتي سنة.

وأنا أقصد بكلمة (نبلغ) امتطاء مركبات فضائية موجهة. لقد سبق لنا أن قدنا عربة (روفر) على سطح القمر، وأنزلنا مسبارا على (تيتان)، وقمرا على (ساتورن)، لكن إذا ما نظرنا إلى مستقبل الجنس البشري، فإنه يتعين علينا أن نذهب إلى هناك بأنفسنا.

لن يكون الانطلاق صوب الفضاء رخيصا، لكنه لن يأخذ إلا نسبة صغيرة فقط من ثروات العالم. ميزانية وكالة (النازا) بقيت على حالها منذ أن هبطت مركبة أبولو على سطح القمر، بل إنها ازدادت انخفاضا من 0،3 في المائة في عام 1970 إلى 0،12 في المائة في أيامنا هذه.

وإذا ما تعين علينا أن نضاعف المبلغ المصروف على الفضاء بنسبة قدرها عشرون بالمائة من أجل القيام بجهد جدي لإرسال أناس إلى الفضاء، فإن هذا المبلغ سيمثل جزءا ضئيلا على المستوى العالمي.

وسيرى البعض أنه من الأفضل إنفاق أموالنا في حل مشاكل كوكبنا، مثل التغيرات الطقسية والتلوث، بدلا من تبذيرها في البحث عن كوكب جديد دون فائدة ترجى من ورائه. أنا لا أنكر أهمية مواجهة التغيرات الطقسية والحرارة الشاملة، لكن نستطيع أن نقوم بها وندخر في الوقت نفسه نسبة ربع في المائة من المعدل الخام العالي من أجل توظيفها في الفضاء. أليس مستقبلنا جديرا بأن ننفق عليه نسبة ربع في المائة؟

اعتقدنا أن الفضاء كان جديرا ببذل جهد أكبر في ستينات القرن الماضي. وفي عام 1962، أكد الرئيس كنيدي أن الولايات المتحدة تتعهد بإنزال إنسان على سطح القمر في نهاية العقد. وتحقق ذلك في الوقت المحدد بإنجاز مهمة أبولو 11 عام 1969.

لقد أدى التسابق الفضائي إلى الافتتان بالعلم وإلى تحقيق تطور كبير في مجال التكنولوجيا، بما في ذلك توسيع المواصلات التي هي أساس جميع الحواسيب الحديثة.

ومع ذلك، تقلص الاهتمام العام بالفضاء بعد الهبوط الأخير على سطح القمر في عام 1972، وانعدمت مخططات الرحلات الفضائية الموجهة. حدث ذلك كله بفتور الحماس من أجل العلم في العالم الغربي بالرغم من فوائده العظيمة، والسبب هو أنه لم يحل المشاكل الاجتماعية التي استحوذت على اهتمام الناس.

إن أي برنامج جديد لرحلة فضائية موجهة سيؤدي دون شك إلى شحذ عزائم الناس في كل ما يتعلق بالفضاء وبالعلم عامة.

لا شك في أن رحلات الإنسان الآلي أرخص بكثير، ويمكن أن تزودنا بأخبار علمية أكبر، لكنها لن تبلغ خيال الناس بنفس الطريقة، وهي لن تنشر الجنس البشري في أجواز الفضاء، وذلك ما ينبغي حسب رأيي أن يمثل إستراتيجيتنا على المدى الطويل.

إن الهدف من إنشاء قاعدة على سطح القمر في عام 2020، وإنزال إنسان على سطح المريخ في عام 2025، لا بد وأن يحفز كل برنامج فضائي ويحدد مقصده بنفس الطريقة التي قام بها الرئيس كنيدي ببرمجة الهبوط على سطح القمر في ستينات القرن الماضي.

ثم إن الاهتمام مجددا بالفضاء سيرسخ أيضا موقف الناس من العلم بصورة عامة، ذلك لأن فتور هذا الاهتمام بالذات في صدور العلماء يفضي إلى عواقب وخيمة. إننا نعيش في عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا باطراد، لكن ما أقل الناس الذين يتطلعون إلى الدخول في حلبة العلم.

هناك سؤال مهم يطرح نفسه: ما الذي سنعثر عليه إذا ما بذلنا الجهود تلو الجهود لكي ننطلق نحو الفضاء؟ هل هناك حياة أخرى، أم هل نحن وحدنا في هذا الكون؟

لقد اعتقدنا أن الحياة نشأت على سطح الأرض تلقائيا. وعليه، فإنه في الإمكان أن تظهر حياة في كواكب أخرى مماثلة، أي من تلك التي يبدو أنه يوجد منها عدد كبير في المجرة.

غير أننا لا نعرف كيف ظهرت الحياة أولا. هناك احتمال يقول بوجود شيء معقد مثل جزيء الحامض النووي الذي يكون قد تشكل إثر تصادم عفوي للذرات في محيط يبدو صغيرا في الحقيقة. ولعل بعض الجزيئات الأكبر حجما قد وجدت قبل ذلك، وكانت عبارة عن كتلة مبنية من الحامض النووي أو من جزيء آخر قادر على أن يعيد إنتاج نفسه بنفسه.

وحتى وإن كان من المحتمل أن تكون الحياة قد ظهرت تلقائيا على كوكب ملائم، فإنه يظل احتمالا صغيرا، ذلك لأن الكون لانهائي، والحياة تكون على وجه الاحتمال قد ظهرت في مكان آخر ما. وإذا كان مثل هذا الاحتمال منخفضا، فإن المسافة بين مصادفتين مستقلتين للحياة قد تكون أوسع.

ومع ذلك، هناك نظرية معروفة ببذور الحياة توحي بأن الحياة تكون قد انتقلت من كوكب إلى آخر، أو من مجموعة شمسية إلى مجموعة شمسية أخرى على متون الشهب والنيازك. إننا نعرف أن الأرض قد ضربت بالنيازك القادمة من المريخ، وأن نيازك أخرى قد تكون جاءت من مجالات فضائية أبعد. وليست لدينا براهين على أن النيازك يمكن أن تنقل الحياة، لكن يظل ذلك أمرا ممكنا.

هناك جانب هام بخصوص نشأة الحياة عن طريق هذه البذور الكونية بالذات وهي أنها تكون قد اتخذت من الحامض النووي قاعدة لها أيضا، على الأقل في ما يجاور كوكب الأرض. أما في الجانب الآخر، فإن نشأة الحياة بصورة مستقلة على أساس الحامض النووي قد يكون أمرا غير محتمل.

هناك دليل ملحوظ حول احتمال نشأة الحياة ويتمثل في الحفريات التي يعود تاريخها إلى 3،5 مليار سنة. فلقد تشكلت الأرض منذ 6،4 مليار سنة، ومن المحتمل أنها ظلت ساخنة جدا لمدة نصف مليار سنة أو ما يعادل ذلك. وعليه، فإن ظهور الحياة على سطح الأرض في مدى نصف مليار سنة هو أمر ممكن، بل هي مدة قصيرة إذا ما قورنت ب 10 ملايير سنة التي تمثل عمر الأرض ككوكب.

هذه الحقيقة قد تشير إلى أن هناك بذورا كونية، أو إلى احتمال أن تكون الحياة قد ظهرت مستقلة وهو أمر معقول جدا. إذا ما كانت نسبة الاحتمال منخفضة جدا، فإنه كان ولا بد من المنتظر أن يتطلب ذلك 10 ملايير سنة من الزمن المتوافر.

وإذا كان في الإمكان أن توجد حياة بدائية في منطقة أخرى من المجرة، فإنه لا يبدو عليها أنها حياة كائنات ذكية متقدمة. إذ لا يظهر علينا أننا كنا محل زيارة من جانب كائنات أخرى. أنا أستبعد في هذا الشأن التقارير حول المركبات الفضائية المجهولة، واعتقادي فيما يتعلق بهذا الموضوع هو التالي: لماذا تظهر تلك الكائنات إلا أمام بعض السذج والمنبوذين اجتماعيا ؟

إذا كانت هناك مؤامرة من جانب الحكومات لإلغاء التقارير التي جاءت بها كائنات خارجية أو للاحتفاظ بالمعرفة العلمية لنفسها، فإنها على ما يبدو سياسة عديمة النفع على الإطلاق.

وعلاوة على ذلك، فإنه على الرغم من البحث المعمق في نطاق مشروع استكشاف مخلوقات ذكية خارج الأرض، لم نسمع بأي عرض تلفزيوني في هذا الشأن . وذلك ما قد يشير إلى أنه لا وجود لحضارات خارجية في مستوى تطورنا وضمن مسافة قدرها بضع مئات من السنوات الضوئية. وعليه، فإن استصدار أي تأمين حيال انسحاب مثل هذه الكائنات الخارجية يبدو رهانا مأمون العواقب.

ولماذا لم نسمع بوجود واحد منها في الفضاء الخارجي؟ هناك فكرة عبرت عنها رسوم كالفن وهوبز المتحركة، إذ في إمكاننا أن نقرا ما يلي: (أعتقد أحيانا أن الإشارة المؤكدة إلى وجود حياة عاقلة في جهة أخرى في الكون تتمثل في أنه ما من أحد حاول الاتصال بنا).

لكن، وبصورة أكثر جدية، هناك ثلاثة تفاسير عن كوننا لم نتصل بأي شيء من كائنات خارجية . التفسير الأول هو من المحتمل أن تكون هناك حياة بدائية قد ظهرت على كوكب ملائم، لكن هذا الاحتمال ضعيف جدا.

التفسير الثاني يتمثل في احتمال ظهور حياة بدائية قد يكون أمرا معقولا، لكن هذه الحياة التي يكون وراءها عقل مماثل لعقلنا هو احتمال بالغ الضآلة.

وذلك لأن التطور قاد إلى بروز العقل في حالنا نحن البشر، ولا يمكن أن نتذرع في هذا الشأن بأن العقل هو نتيجة حتمية للاصطفاء الطبيعي حسب نظرية داروين. ليس واضحا أن العقل يعطي فائدة حيوية بعيدة المدى. البكتيريا والحشرات سوف تعيش سعيدة حتى وإن قادنا عقلنا المزعوم إلى تحطيم أنفسنا.

التفسير الثالث وهو أن الحياة تظهر، وهي تتطور في بعض الحالات إلى كائنات عاقلة، لكنها عندما تبلغ مرحلة إرسال إشارات عن طريق الراديو تكون قد توافرت على التكنولوجيا أيضا، وصنعت قنابل نووية وأسلحة فتك جماعي أخرى. وعليه، فإنها ستكون في خطر تدمير نفسها بنفسها قبل وقت طويل.

نتمنى ألا يكون ذلك هو السبب وراء أننا لم نسمع عن أي كائن آخر. شخصيا، أنا أفضل الاحتمال الثاني، وهو أن حياة بدائية هي حياة مشتركة نسبيا، لكن الحياة العاقلة نادرة جدا. وقد يقول البعض إنها ستحدث على سطح الأرض.

هناك سؤال آخر: هل يكون في مقدورنا أن نعيش لوقت طويل بعيدا عن الأرض؟

تجربتنا مع المحطة الفضائية الدولية تبين أنه من الممكن للكائنات البشرية أن تعيش شهورا عديدة في الفضاء، لكن الجاذبية الصفر تتسبب في تغيرات فيزيولوجية غير محببة مثل الإصابة بضعف في الهيكل العظمي.

وعليه، فإننا نريد قاعدة طويلة المدى للكائنات البشرية تكون على سطح كوكب أو قمر من الأقمار التي تتوافر على الجاذبية.

إننا إذا حفرنا السطح، أمكننا أن نتجنب سطوة الحرارة وأن نحمي أنفسنا من النيازك والأشعة الكونية. في مقدور كل من هذا الكوكب أو ذاك القمر أن يكونا بمثابة مصدر للمواد الخام التي نحتاج إليها إذا ما تعين على المجموعة البشرية التي تعيش خارج الأرض أن تضطلع بشؤونها بعيدا عن الأرض.

ما هي المواقع الممكنة للاستيطان في المجموعة الشمسية؟ القمر، دون شك. إنه قريب ويمكن الوصول إليه بسهولة نسبيا. لقد سبق لنا أن هبطنا عليه، وسرنا عبره في مركبات صغيرة.

القمر صغير، من جهة أخرى، وهو بدون جو أو حقل مغناطيسي يعكس جزيئات الإشعاع الشمسي، مثلما هو الأمر عليه مع الأرض. ليس هناك ماء سائل، لكن، يمكن أن يوجد به جليد في الفجوات البركانية في الشمال والجنوب القطبي. إن الاستيطان على سطح القمر يمكن أن يستعمل ذلك الجليد بمثابة مصدر للأوكسجين عبر قوة مزودة بالطاقة النووية أو لوحات شمسية.

المريخ هو الهدف التالي البديهي. إنه مثل الأرض من حيث وجوده على نفس المسافة من الشمس، وهو بذلك يستقبل نصف حرارتها. كان فيما مضى له حقل مغناطيسي، لكنه تلاشى منذ أربعة ملايير سنة وتركه بدون وقاية من الإشعاع الشمسي. وذلك ما انتزع من المريخ أغلب غلافه الجوي، تاركا إياه بنسبة واحد في المائة من ضغط الجو الأرضي.

وأيا ما كان الأمر، فإن الضغط كان أعلى في الماضي ذلك لأننا نشاهد ما يظهر منه أنه بمثابة جداول وبحيرات جافة. الماء السائل لا يمكن أن يوجد على المريخ الآن، ذلك لأنه يتبخر في الفراغ القريب. وذلك يوحي بأن المريخ له فترة حرارة ورطوبة تكون الحياة خلالها قد ظهرت إما تلقائيا أو عبر البذور الكونية.

ليس هناك ما يشير إلى الحياة في المريخ الآن، لكن، إذا ما وجدنا دليلا على أن الحياة وجدت سابقا على سطحه، فإن ذلك سيفضي بنا إلى القول بأن إمكانية نشوء الحياة كانت عالية جدا على سطح كوكب مثله.

لقد سبق للنازا أن أرسلت عددا من المركبات الفضائية نحو المريخ، بدءا بمارينير 4 في عام 1964. وطافت هذه المركبات بعدد من المدارات التي كان آخرها مدار استكشاف المريخ. هذه المدارات أدت إلى الكشف عن أودية عميقة وعن أعلى الجبال في المجموعة الشمسية على سطح هذا الكوكب.

كما أن النازا أنزلت عددا من آلات السبر على سطح المريخ، وأحدثها مركبتا المريخ الإثنان. وقد أرسلت هاتان المركبتان صورا لسطح صحراوي جاف.

ومع ذلك، هناك كمية من الماء في شكل جليد في المناطق القطبية. وقد يؤدي استيطان المريخ إلى استخدام ذلك الجليد كمصدر للأوكسيجين، على الأقل. كان هناك نشاط بركاني على المريخ أيضا. وقد يكون ذلك وراء المعادن على سطحه، وفي مقدور الذين يستوطنونه أن يستخدموها حسب حاجاتهم.

القمر والمريخ هما أكثر المواقع ملاءمة في مجال استيطان الفضاء ضمن المجموعة الشمسية. عطارد والزهرة كوكبان ساخنان جدا، بينما المشتري وساتورن عبارة عن كوكبين غازيين عملاقين بدون سطح صلب. وأقمار المريخ صغيرة جدا وليس لها أية امتيازات على المريخ نفسه.

بعض أقمار المريخ وساتورن يمكن استيطانها، خاصة (تيتان) الذي هو أحد أقمار ساتورن، بل هو أكبر من الأقمار الأخرى، وله جو كثيف.

أدى برنامج (كاسيني هويجن) الذي ضبطته وكالة النازا إلى إنزال مسبار على سطح تيتان في عام 2004، وقد أرسل هذا المسبار صورا عن سطحه. لكن، هو سطح بارد جدا بحكم بعده عن الشمس، وأنا لا أتصور أن تقوم حياة قريبا من بحيرة غاز من الميثان السائل.

ما هي الحال عليه وراء المجموعة الشمسية؟ ملاحظاتنا تشير إلى أن بعض النجوم تتوافر على أقمار تدور في أفلاكها.

وعليه، في مقدورنا أن نضع اليد على كواكب عملاقة مثل المشتري وساتورن، لكنه من المعقول أن نقول بأنها ستكون مصحوبة بأقمار أصغر تكون بحجم الأرض. سيكون البعض منها موجودا في المنطقة المسكونة بحكم أن المسافة بينها وبين النجوم تمثل المكان الأصوب لوجود الماء السائل على سطوحها.

هناك الآلاف من النجوم ضمن مسافة ثلاثين سنة ضوئية من الأرض. لو أن واحدا في المائة منها يتوافر على كواكب بحجم الأرض، فإنه ستكون لنا عشرة عوالم مرشحة من العوالم الجديدة.

في مقدورنا أن نزورها من جديد بواسطة التكنولوجيا التي توجد بين أيدينا، لكن، يتعين علينا أن نجعل من الرحلات نحو الكواكب هدفا على المدى الطويل. وأنا أعني بذلك مدة تتراوح ما بين مائتي وخمسمائة سنة.

لقد وجد الجنس البشري كأنواع منفصلة لمدة حوالي مليوني سنة. بدأت الحضارة قبل حوالي 10000 سنة، ونسبة التطور ظلت متنامية باطراد. لكن، إذا ما استمر الجنس البشري في العيش لمدة مليون سنة أخرى، فإنه سوف يكون لنا حينئذ أن ننطلق رأسا نحو ما لم يسبق لأي أحد أن انطلق نحوه سابقا.

ستيفان هوكينغ عالم مختص في فيزياء الكواكب وأستاذ الرياضيات في جامعة كمبردج بإنجلترا.

تجارب في الترجمة....

" الروض العاطر..." للنفزاوي
قصة توليد النص الروسي

يميتري ميكولسكي الدكتور الأستاذ في معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم الروسية.

كانت الحضارة العربية الاسلاميّة إحدى الحضارات العالميّة التي تتّسم بالإحساس الجسمي الطبيعي الصحيح. ومن المعروف أن العرب المسلمين قد تمكّنوا من تحقيق انجازات بارزة في شتى مجالات النشاط البشري. فأحد هذه الانجازات التي لا جدال في أهميتها هي الثقافة الجنسيّة الظريفة التي تكوّنت في ظل الحضارة العربيّة الاسلاميّة.

فمن المعروف انّه في حضون الحضارة المسيحيّة، وذلك في أوربّا الغربيّة الكاثوليكيّة وفي بلاد الروم الأورثودكسيّة والأقطار المتأثّرة بثقافتها على حدّ سواء كانت تغلب نظرة الازدراء للجانب الجسديّ للكيان البشريّ. وعلى عكس ذلك وضع الدين الاسلاميّ العلاقات الجنسيّة في إطار محدّد عقلانيّ. فنشأ في مضمار الأدب العربيّ عديد من النكت والملح والحكايات والقطع الشعريّة ذات الطابع الآروطيّ وهي مبثوثة في مختلف مؤلّفات الأدب. هناك تفاصيل آروطيّة في السير والحكايات الشعبية، إنما نسبتها ليست كبيرة كما يعتقد أحيانا.

أمّا المؤلّفات الآروطيّة بالذات فهي كما يتبيّن من خلال التحقيق فعلا قليلة العدد. هذا ويذكر المستعرب الألماني الكبير كارل بروكيلمان (1956 – 1868) في معجمه الشامل للأدباء العرب وآثارهم فقط تسعة مؤلّفين كانوا يتخصصون في هذا الموضوع. ومن الطريف أن خمسة منهم من أبناء المغرب العربي ممّا يشير إلى كون مفكّري هذه الربوع قد قدّموا اسهاما مميّزا في خزانة الثقافة الآروطيّة العربيّة الاسلاميّة.

أمّا اسم الشيخ سيدي محمد بن محمد النفزاويّ فيلمع لمعان القمر بين كوكبة النجوم هذه. وهو أيضا من أبناء المغرب. ذلك وتنعدم ترجمة حياته ولكنه من الظاهر أنّه كان يعيش في فترة ملتقى القرنين الخامس عشر والرابع عشر. فبالرغم من مفاخرها الأدبية الواضحة من الأرجح أنّ رسالة النفزاويّ لم تخرج آنذاك عن النطاق الضيّق من أتباع البلاط الأميري الذين كما يبدو كانت قد أُلّفت من أجلهم. ويشهد بضيق انتشار الرسالة وجود مخطوطتين لها فقط، حيث يحتفظ إحداهما في باريس وثانيتهما في مدينة غوطة الألمانية . أما المخطوطة الباريسية، فقد غنمت من قبل العساكر الفرنسيّين في البلاد الجزائريّة أثناء حرب العدوان الاستعماريّ. فتمّ تعرّف القارئ الأوربيّ على "الروض العاطر" بفضل الترجمة الفرنسيّة التي صدرت في سنة 1850 . أمّا الطبعتان العربيّتان فقد ظهرتا في سنة 1900–01 19 (في مدينة فاس، وهي طبعة بالحجر على الحجر) وفي سنة 1928 (في مدينة تونس ، وهي طبعة عادية).

لقد وقعت الرسالة في متناول صاحب هذه الأسطر بالصدفة. وذلك أثناء زيارة إلى تونس في عام 1986 مع وفد اتحاد الأدباء السوفيات. فقد تشرّفت بالحصول على هذا الكتاب هديّة من زميلي الشاعر التونسيّ عبدالله القاسميّ . انّها كانت طبعة شعبيّة تشمل الى جانب الرسالة المذكورة على أثر آخر للشيخ النفزاوي وهو "كتاب الإيضاح في علم النكاح". وسرعان ما تيقّنت قيمة الجوهرة التي منّ بها علي القدر، وعزمت على ترجمة هذا النص غير المثمّن ونشره يوما ما، انّما كان من المستحيل أن يحلم المرء بذلك في ظروف النظام السوفياتي.

وسبب ذلك يعود في نهاية المطاف الى كون الثقافة الأدبية الروسية تتميّز تاريخيا بدرجة عالية من التزهّد، وأمّا النزعة الآروطية فضعيفة التطوّر فيها.

لقد تهيّأت الظروف للعمل على ترجمة الرسالة ونشرها في الفترة ما بعد السوفياتية. وفي أثناء العكوف على الترجمة كنت أسترشد بأفضل نماذج ترجمة الآثار العربيّة إلى اللغة الروسيّة التي وضع مبادئها وصقل أسلوبها في القرنين التاسع عشر والعشرين كلّ من سينكوفسكي (1800 – 1858) وسابلوكوف (1804 – 1880) وكريمسكي (1871 – 1942) وكراتشكوفسكي (1883 – 1951) وساليي (1899 – 1961) وغيرهم من الباحثين والمترجمين الروس الذّين كانوا يستقصون آثار الأدب العربيّ الرفيع والأدب العربيّ الشعبيّ على حد سواء.

ومن بين المهامّ الشاقّة التّي كنت أواجهها في عمليّة تحقيق ترجمة الرسالة كانت تلحّ عليّ مهمّة وضع الأسلوب اللغويّ الروسيّ الملائم لنقل المفاهيم الآروطيّة التي تعبّر عنها اللغة العربيّة بالطريقة الطبيعيّة جدّا. ونظرا لخصائص التقاليد اللغويّة الروسيّة كان يترتّب عليّ استعمال الكلمات الروسيّة من غير الترجمة ولكنّ مصحوبة بالشرح حيث كنت أوضّح معانيها.

هذا وأجرؤ أن آمل بأن مجهودي المتواضع لم يذهب عبثا، إذ أن ترجمة "الروض العاطر" قد نشرت ثلاث مرّات وذلك في سنوات 1994 و 1997 و 2008. ومع ذلك لا أعتقد أن عملي في هذا المجال قد انتهى لأنه لا يزال أمامي غرض تعريف القارئ الروسي علي رسالتي كلّ من التيجانيّ والتيفاشيّ. وذلك له أهميّة كبرى

حيث تتقدّم بسرعة ما يسمى بالثقافة الجماهيريّة التي تشوّه ملامح كافّة أوجه الثقافة الأصيلة بما في ذلك الثقافة الآروطيّة.

ديمتري ميكولسكي عضو أكاديمية العلوم الروسية، باحث مختص في التاريخ العربي والإسلامي، ترجم "مروج الذهب" للمسعودي وبعض أعمال عبد الحميد بن هدوقة إلى اللغة الروسية.

ترجمة رواية" نجمة"
لكاتب ياسين

السعيد بوطاجين

العامية أيضا:

يضعك نص من نوع « نجمة » أمام عدّة خيارات لسانية ومعجمية وأسلوبية، والحال أن كل هذه الخيارات ستكون مجرّد مقاربات فرضية لا تفي بالغرض من حيث أن أحسن ترجمة هي الإبقاء على الرواية كما هي.

ظللت مترددا لمدّة في كيفية التعامل مع لغة الحوار بالدرجة الأولى، لأن المتربصين في زوايا الإيديولوجية وأزقتها المشبوهة سيحققون معك لمعرفة أسباب التخلي عن العامية واستعمال لغة عربية معيارية بعد تليينها احتراما لبعض المستويات التعبيرية.

كانت تلك مشكلة حقيقية سيؤدلجها الآخرون، بداية من أنصار الحل الثالث وصولا إلى الذين لم يقرأوا، نجمة ولم يعرفوها إلا على ألسنة الآخرين، تأسيسا على ثقافة الأذن ونواميس المقاهي والحانات، وما أكثر هؤلاء.

لقد وردت الحوارات بلغة فرنسية معيارية جدا وسليمة جدا وشاعرية في أغلب الصفحات، ولا أدري كيف سوّغ بعضهم هذا المستوى الرّاقي لشخصيات ذات مستوى ثقافي غاية في التواضع، لكنهم ينقلبون على أعقابهم عندما يترجم هذا الحوار إلى العربية بالاشتغال على المستويات التعبيرية والمعجمية، دون استعمال الدارجة.

ثمة خلط بين طروحات كاتب ياسين وفعل الكتابة, أما جديد الترجمة الذي انتظره هذا الآخر فلم يتحقق لاعتبارات كثيرة، وأهمّها الحفاظ على هوية الرواية التي لم تكتب بالعامية رغم تموقع صاحبها وآرائه اللسانية التي استغلت في إطار غير أدبي، ما ألحق بعض الضرر بنجمة بإخراجها من إطارها الحقيقي.

كانت فكرة توطين الرواية، بالنسبة إليّ، هي جوهر الترجمة، لقد سعيت إلى جعلها رواية جزائرية الروح، وتفاديت حصرها جغرافيا بالاتكاء على بدائل لغوية لم تكن مجسدة نصيا حتى من قبل الكاتب نفسه. وكنت أرى أيّ عدول عن لغة الكاتب هو خيانة له ولأثره، ومن ثم استقراري على لغة فصيحة بالدرجة الأولى.

بحثت عن ألفاظ متواترة في الشرق الجزائري حيث تجري الأحداث وأصّلتها بالعودة إلى المعاجم العربية. لهذا بدت لبعضهم عامية مع أنها قاموسية. توقعت هذه التعليقات من الفئة الأخرى. ما يعني أني كنت أمام معادلة عبثية: ضرورة استعمال الدارجة وضرورة عدم استعمالها في آن واحد لإرضاء هذا وذاك: الوقوف في مفترق الطرق هو أتعس حالة. ذاك شعوري قبل الترجمة وبعدها. لا يمكن الرقص على كل الإيقاعات، كما أن تسييس الرواية هو تخريب لها وتقزيم لقيمتها وديمومتها.

البناء وأنظمة الجملة:

واجهت لاحقا مشكلة الكتابة ذاتها. تتميز نجمة بالجملة الطويلة القائمة على سلسلة من أشباه الجمل التي تنتهي بجملة فعلية بعد مقطع يستغرق صفحة في بعض الحالات.

ثمة أمران إثنان: خصوصية بنية اللغة الفرنسية وقضية السرد السريع كتقنية- هدف ظهرت في الرواية الجديدة، خاصة مع واليام فوكز في الصخب والعنف، قبل أن تنتشر هنا وهناك بفعل المقابسات الناتجة عن أسفار الآداب بطرق متباينة.

النحو العربي لا يقبل هذه الأبنية بالنظر إلى خصوصية قواعده المختلفة عن خصوصيات اللغة الفرنسية، ومن ثم اللجوء إلى قلب المقطع رأسا على عقب حتى يستقيم البناء، مع الحفاظ على علامات الوقف تفاديا لانمحاء السرد السريع من حيث أنه أحد خيارات الكاتب، على نحو ما سنجده لاحقا في الرواية الجزائرية الجديدة التي ستستورد هذه الطريقة لغايات مختلفة، عن وعي أحيانا وباستخفاف أحيانا آخر.

استغرقت هذه العملية وقتا معتبرا لأنها مكلفة ومرهقة وتفرض عليك جهدا إضافيا يحتم عليك القيام بفعل مركب: الهدم والبناء، مع مراعاة مقصد هذا الفعل المركب.

يبدو لي أن هذه المرحلة هي أعقد المراحل قاطبة، هناك روايات كثيرة لا تضعك أمام هذه المعضلة لأنها تحتكم إلى الجمل القصيرة الواضحة الحدود والمعالم، أمّا نجمة فإنها منحوتة بشكل غاية في التعقيد، ما ينتج، في سياقات كثيرة، حالات من الغموض والإبهام وجب التحكم فيها تفاديا لترجمة ملتبسة تضاف إلى لبس قاعدي مردّه الشكل السردي في حدّ ذاته.

لن تكفي قراءة واحدة للمقطع المتشابك، يلزم المترجم تفكيك بكثير من التأني لإدراك العلاقات الجملية و آلياتها، وماعدا ذلك فستضيع المعاني والدلالات، وسنكون آنذاك أمام رواية ممسوخة إلى العربية، وليست رواية منقولة إليها بتشغيل الأدوات اللسانية والبلاغية في سياقات عينية تفرضها الجملة والبنية والصيغة والمقاصد، أي

هذه الشبكة المتراصة من أدوات إنتاج المعنى دون التضحية بالجانب الفني كموضوع أساس من موضوعات الرواية.

بمقدورنا الوصول إلى ترجمة المعاني في وقت قياسي، سنصل إلى ذلك بالقفز على تقنيات سردية كثيرة، وهو أمر ممكن إلى حدّ ما، لكنه يقلّل من شأن الرواية فنيا لأن الكاتب أرادها كذلك، كما هي، متشظية وقلقة، مفككة ومبتورة، لذلك سيكون تنظيمها وفق منطق آخر مساسا بجوهرها وبقناعات كاتب ياسين في هذا المؤلف الاستثنائي، خاصة من حيث الخيار البنائي وهدفه.

مسألة العلاقات السببية

تتميّز نجمة بانقطاعات وانكسارات معتبرة، سواء ما تعلق بطريقة السرد أم بتنظيم الأحداث وفق إستراتيجية منطقية. لا نقصد هاهنا ما اصطلح عليه في الدراسات السردية الجديدة بالزمان الأحادي والزمان المركب، أي ما يتعلق بالتسلسلات والتنافرات، إنما هذا الشكل من البتر الذي يسهم في إنتاج إضمارات تكسر الحكاية في نقاط كثيرة، ثم الانتقال إلى موضوعة دون أيّ تقديم يسوّغ فعل الانتقال المفاجئ، أم التوقف المفاجئ في فترات حساسة من تقدم النص، أم في العلاقة بين الشخصيات أم على مستوى بنية الشخصية الواحدة.

تواجه الترجمة في بناء فاقد للعلاقات السببية مشكلة معنى بالدرجة الأولى هناك غموض سببه هذا التخلي الغريب عن الحكاية، ثمة حكايات لا تكتمل، شخصيات لا تكتمل، موضوعات لا تكتمل، أحداث لا تكتمل، لا شيء يكتمل في نجمة، ولو أن النقد لم ينتبه إلى هذه الظاهرة، يتوقف المعنى في الوسط، والموضوعات تجزء في وسطها، والبناء المقطوعاتي يقدّم مجزء ومهلهلا، وهكذا. أمّا المعنى فيكمن في هذا الغموض الذي يتقوّى من صفحة إلى أخرى.

لم أبحث عن أية طريقة للربط قصد إجلاء المعاني، ولم أهمش ولم أقدّم شروحات لأن ذلك لا يخصني كمترجم. لقد لاحظت قضايا كثيرة يمكن التعليق عليها، لكنّ السياق الثقافي غير مناسب، لذلك أكتفيت بالنقل في حدود إمكاناتي، تاركا للنقاد مهمة شرح هذا التمزق الذي يسم الرواية في مقاطع لا حصر لها.

لا أدري إن كنت تعاملت جيدا مع المعجم. لقد راعيت محور الاختيار وتمت استبدالات كثيرة لألفاظ رايتها قاصرة عن أداء الغرض أو ثقيلة صوتيا في بعض الجمل، أي أني أخذت في الحسبان الجوانب الصوتية والموسيقية تفاديا لظهور "ممهلات" تمسّ بالإيقاع العام للرواية، وذاك جهد آخر يتطلب ذائقة موسيقية وتؤدة.

مع ذلك فأنا أفكّر حاليا في العودة إلى هذه الترجمة، سأقرأها بعين أخرى لعلّني أقدّم مقاربة أكثر جودة، لكنّ المقاربات تظل مقاربات وكفى، ولو استطعنا تقديم نص أفضل من النص الأصلي. لا توجد علوم دقيقة في فعل الترجمة، هناك لغة وأساليب وبلاغة. من منا يستطيع أن يزن فعلا أو جملة أو عبارة؟ من هذا الذي يقيس سمك الدلالة؟ ومن هذا المترجم الذي لا يخون كثيرا أو قليلا؟ الترجمة خيانة جميلة.

" سلطة المؤوِل"

الحكايات النظرية لستانلي فيش

.

بقلم مارك إسكولا **ترجمة: نسيمة بن عباس**

تمهيد المترجمة:

هذا العمل هو ترجمة لمقال كتبه مارك إسكولا بمناسبة صدور الترجمة الفرنسية لأحد أشهر كتب المنظّر الأمريكي ستانلي فيش (stanley fish) المنصب حول عملية القراءة و تأويل النصوص الأدبية والذي طالما أثارت مناقشاته جدلا واسعا في الأوساط الأدبية. و كما هو معروف فإن فيش هو أحد أشد المدافعين والمتحمسين لمفهوم "قصد القارئ" و تجربته في عملية فهم و تأويل النص.

أما مارك إسكولا(marc escola) فهو أستاذ جامعي فرنسي يدرس" الأدب الفرنسي الكلاسيكي" و"نظرية الأدب" بجامعة فانسين " vincenne (باريس 8) وعضو فرقة بحث فابولا (fabula) بالمدرسة العليا للأساتذة بباريس ومدير نشر مجلة الإصدارات الأدبية acta fabula و هو أيضا احد منسقي ورشة النظرية الأدبية ومدير المجموعة المسماة بـــ gf – corpus / lettres بدار النشر الفرنسية المعروفة فلاماريون و من كتبه نذكر :

- Dix variations sur l’autorité de l’auteur
- dramaturgie et idéologie.
- Sur la théorie des textes possibles.

تأخر ظهور كتاب ستانلي فيش عشرين عاما في فرنسا و المعنون بــ " حين نقرأ نفعل . سلطة الجماعات المؤولة" (quand dire c'est faire. L'autorité des communautés interprétatives) إلى أن ظهرت دار نشر فتية افتتحت بكتاب فيش مجموعة جديدة تهتم بالأحداث السياسية "المعولمة"1 لكي يستطيع القارئ الفرنسي اكتشاف أحد أشهر الكتب و ربما أكثرها قوة في النظرية الأدبية الأمريكية.

كان بإمكان الجمهور، الفرانكوفوني حتى الآن التعرف على ستانلي فيش بواسطة كتاب وحيد ظهر منذ أكثر من عشرة أعوام تحت عنوان "احترام المعنى المشترك. بلاغة- تأويل- و نقد في الأدب والقانون"2 و الذي لم يثر انتباه أحد باستثناء قُراء دريدا j. derrida. إذ تناوله هذا الأخير مطولا في مقال أساسي عنوانه : "من القانون إلى العدالة، قوة الحق" (منشورات غاليلي 1994).

أما القراء الأكثر إطلاعا فلم يصلوا إلى أطروحات فيش عن تأويل النصوص الأدبية إلا في العروض القاتلة لأشرس معارضيه: أ.إيكو umberto eco في "حدود التأويل" وأ.كومبانيون Antoine compagnon في"شيطان النظرية "3.

وعلى نحو أكيد، لا يمكن إطلاقا مقابلة المنظّر من هذا الجانب من الأطلسي إلا وراء ملامح قرينه الخيالي، فستاليني فيش ما هو إلا المثال الحي للطموح وغريب الأطوار موريس زاب Zapp بطل رواية "روايات الحرم الجامعي" (Campus Novels) والتي ترجمت إلى الفرنسية ب (عالم صغير جدا، منشورات ريفاج 1992) لصاحبها دافيد لودج D.Lodge. وفيش هو في الواقع كما في الرواية التي أستلهم بطلها من شخصيته: "أستاذ الأدب الأحسن أجرا في العالم "، "الأدبي " الأول إن لم يكن الوحيد الذي يتحصل على أجر سنوي بستة أرقام وبالدولار. وهو رجل كل السجالات فيما يخص قضايا السياسة الجامعية وأيضا المواضيع الأكثر حساسية فيما يتعلق بالشأن العام الشمال أمريكي. "4

لا أحد يشك بأن ظهور كتاب "حين نقرأ نفعل" سيكون له مفعول " القنبلة الموقوتة " بحسب قول (وأمنية) ايف سيتون Y.Citton الذي كتب مقدمة المجلد، إلا أن خيار العنوان الفرنسي يدفع إلى الدهشة. صحيح أن العنوان على مستوى القيمة يسهل تذكّره، إذ يذكّر جمهور القراء الفرانكفونيين بأحد أشهر عناوين ج.ل.أوستن J.L.Austin "حين نقول نفعل" (Quand dire, c'est faire) (منشورات سوي 1970). والذي هو ترجمة للعنوان الانجليزي (how to do things with words) (1962).

لكن اختيار ذلك العنوان بالنسبة للطبعة الفرنسية أظهر وبشكل – ربما- إيجابي جدا انتماء فيش إلى ذلك التيار الفلسفي البراغماتي الذي يمثله و.جيمس وج.ديوي. ور.روتي.W.James, J.Dewey, R.Royty. والذي كانت كتابات فيش الأولى لا تحيل إليه على الإطلاق. فهذه الطبعة الفرنسية تجمع الدراسات الثلاثة المختصرة التي شكلت الطبعة الأمريكية لـــ "هل يوجد نص في هذا الصف؟ سلطة الجماعات المؤولة" منشورات جامعة هارفارد 1980.

(Is there a text in this class ? the Authority of interpretative communities) والتي تمثل سلسلة من المحاضرات ألقيت في أفريل 1979 في كنيون كولدج (Kenyon College) كرد على الهجمات التي تعرضت لها مواقف. ج.دريدا وهـــ.بلوم bloom و س.فيش ذاته، وقد أحسن الناشرون الفرنسيون إضافة فصل عنوانه "هندسة أكثر" والمنشور في أحدث وأشهر كتاب لفيش في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان "الدقة المهنية: دراسات أدبية ومبادلة سياسية، منشورات جامعة أكسفورد 1995" ، (professional correctness : literary studies and political change) مع كلمة ختامية للمؤلف بمناسبة صدور الطبعة الفرنسية.

وحدة النصوص و تقاسم الدلالات:

يعتبر العنوان الفرعي للكتاب : " سلطة الجماعة المؤولة" الأكثر وفاء للأصل الانجليزي " The Autority of interprative communities إن قارناه بالعنوان الأصلي الذي اختاره المترجم للطبعة الفرنسية ويسم بشكل أفضل مجمل ما أراده الكتاب.

ويوضّح تفرده الأساسي فيما يتعلق بالنظرية الأدبية، فالمسألة الأساسية التي واجهها فيش في نهاية السبعينات هي مسألة مكانة التأويل وسلطة النص بالنظر إلى سلطة المؤوّل إضافة إلى ما يمكن تسميته بـــ : " تقاسم الدلالات ". ويمكن طرح هذه المسألة بمصطلحات بسيطة أو "محيطة" لخيار عنيف: هل علينا أن نعتقد أن معنى النص يتناقض مع دلالة وضعها كاتب ما فيه, وبالتالي يجب على المؤول المكتفي بذاته أن يخرجها إلى وضح النهار أو يعثر عليها؟ (ولكن في هذه الحالة كيف نفسر تنوع التأويلات التي يمكن أن يكون ذلك النص موضوعا تاريخيا لها ؟).

أوهل يمكن للنص أن يستقبل كل المعاني التي يحلو لنا أن نمنحها إياه ؟(وهنا هل يمكن قبول أن يكون تأويل ما أكثر صحة من آخر؟)، وبعبارة أخرى: ما هي سلطات المؤلف و المؤوّل تباعا ؟ .

إذا منحنا الكلمة أولا للموقف الدغمائي، أو الوضعي الجديد، فإنه يعتبر دلالة النص غير منفصلة عن معنى "أصلي" لن تسمح باستخراجه إلا تأويلية تاريخية متبحّرة (عليمة)، ولن يخلو الأمر من التناقض. إذ يعجز هذا الاهتمام بالتاريخ على الإحساس بمستقبل النص في مختلف التأويلات المرتبطة به، وينفي عنه جزءا هاما من تاريخيته. فإن كان النص لا يقول إلا ما أراد المؤلف قوله فلماذا إذن يبقى هذا المعنى "خفيا " ويتطلب تدخل المؤوّل الذي ينبري في التعبير عنه بشكل مختلف ؟.

والكلمة الثانية هي للموقف الوضعي الراديكالي والذي طالما أُريد إقحام فكر فيش فيه، وكذا موقف كبار "التفكيك" ؛ ليس للنص معنى أخر إلا ذاك الذي منحه إياه قارئ ما بالتماشي مع أهوائه الخاصة أو احتياجاته، فنحصل إذن على عدد من الدلالات بعدد القراء.

"تحت البلائط النظامية للتاريخ الأدبي، يوجد شاطئ كل الحريات التأويلية "* بحسب المقولة النشطة لإيف سيتون (أنظر مقدمة الكتاب ص17)، فنخاطر هنا بهدم كل مطالبة بالصرامة التأويلية، و نكران أي إمكانية لمعرفة للنصوص معرفة "موضوعية" وبالتالي أي معرفة أيضا للماضي.

تسمح لنا الترجمة التي بين أيدينا بفهم أطروحة فيش حتى وإن كانت تعطي للمناوئين لها أسباب الطعن فيها بسبب مقولاتها العنيفة، التي تغري بإخراجها – دوما– عن سياقها و إلى اتهامها بالنسبية المطلقة، ففي الواقع لا يمكن مقارنة تلك الأطروحة مع أي من ذينك الموقفين لأنها تهدف أساسا إلى إيجاد مخرج للخيار.

وكانت مقدمة هذه الطبعة الفرنسية مناسبة لـــ س.فيش كي يقطع الطريق أمام سوء الفهم الذي–وللمفارقة– نال بسببه جزءا واسعا من شهرته، إذ كتب في الصفحة 127 عن "رغبتيه الدائمتين المتمثلتين أولا: في رفض ادعاء النص امتلاكه للدلالة، وثانيا: في وضع الدلالة خارج النص بإخضاعها لنوع من النظام"، وبتأكيده على أن "الروح التي دفعته إلى كتابة تلك المقالات هي الفلسفة التحليلية:" إن السؤال المهيمن هو ما السبيل لتحديد دلالة النص ؟ والهدف هو التعرف على الصعوبات التي تمنع فعل التأويل من أن يكون فعلا اعتباطيا وإجباريا، فعل صدفة، أو فعل قوة " (ص126)، إن الطموح هو مواجهة " المشكل (الديكارتي بالأساس) للصلة بين نص مستقل وقارئ مستقل"،من أجل محاولة "حل المفارقة ذات/ موضوع والتي لغّمت النظرية، التأويلية طوال قرون" (ص129) هذه هي فضيلة مفهوم "الجماعات التأويلية" التي تحاول المقالات المجموعة في هذا الكتاب تكوينها.

وبعيدا عن تأكيد السلطة الإبداعية لقارئ وحيد أمام النص وتخطيه كل الصعوبات النصية، يسلم فيش بوجود "الجماعة المؤوّلة " كمرجع وساطة بين الموضوع" النصي و "الفاعل" قارئا:

"هي ليست جماعة يختار أفرادها الانضمام إليها، على العكس، الجماعة هي التي تختارهم. في حدود أن افتراضاتها، اهتماماتها، تمييزاتها، مهامها، عراقيلها، مكافآتها، تسلسلها، بروتوكولاتها، تصبح على المدى الطويل جزءا من فكرهم" (ص128) إذن فالقارئ لا يتصرف كفاعل حر بل يجد نفسه "مرغما" في أنشطته التأويلية للانصياع "للبروتوكولات المبطّنة للجماعة" والتي في ظلّها أعطي له النص، أي "يُصنع" النص تحت إمرة البروتوكولات ذاتها.

"إن الإدعاء بأن القراء يصنعون النصوص، لا يعني إعلان انتصار الذاتية، بل يعني إعلان موت الذاتية وأيضا موت الموضوعية حين ينهار النص أمام تفوق (حتى لا نقول سلطة) الجماعة المؤوّلة حتى أن القارئ الحر ينهار هو الأخر" (ص130).

إن خصوبة مفهوم الجماعة المؤوّلة تتمثل أيضا في كونه يسمح بفهم حالات الاتفاق وعدم الاتفاق حول معنى النص نفسه "القراء الناشطون داخل افتراضات خاصة بجماعة ينحون نحو رؤية النص نفسه " ويرى أعضاء جماعات تأويلية مختلفة وبمعنى واهن جدا، ينتجون نصوصا مختلفة" (الصفحة نفسها) ويفتح هذا المفهوم للدراسات الأدبية حقلا جديدا وهو "دراسة تاريخ الجماعات المؤوّلة من أجل تأسيس سجل لارتقاء وسقوط التأويلات" (الصفحة نفسها) إننا نتخيل من دون عناء ما سيكون عليه "تاريخ" من هذا القبيل.

ولنأخذ على سبيل المثال" ألأفكار " لــ باسكال(les pensées) و الذي كان تباعا وبالنسبة لمختلف الجماعات التي حررت النص، عملا لجانسيني (un janséniste)، أو رجل دين أوغستيني أو مذكرات "مبغض للبشر رائع" أو" كتاب فيلسوف تراجيدي" 5...إلخ.

علينا أن نفهم مع ف.كوسيه F.Cusset أن " الجماعات التأويلية تحوي في الوقت نفسه، الأعمال، قراءها، والمؤسسات التاريخية الرابطة بين ذينك القطبين. إذ تنتج هذه الجماعات النص و قراءته في حركة واحدة من دون تفرقة بين الكتابة والتأويل، وتعنى الجماعات التأويلية "الانتماء إلى نفس النظام من الوضوح" ، وتعني الفهرس (le répertoire) الذي يسمح بتنظيم العالم وأحداثه" وهو مفهوم قريب من مفهوم "أفق الانتظار" لمنظر التلقي هــ.ر.ياوس.

يعاود فيش هناوبعيدا عن ابستيومولوجيا كهذه للقراءة، تعريف المؤسسة بمعنى أوسع لامادي، ذا قاعدة أيديولوجية مشفرة تحديدا لكل نشاط تأويلي، هذه المؤسسة هي مسرح لإنتاج المعنى، إذ أنها تعين ما يطلق عليه

في الإنجليزية mis -prereading والذي يمكن ترجمته بـــ (سوء ما قبل القراءة) (أي القراءة السيئة التي تسبق فعل القراءة) كما تعين مكان وصول النص ذاته والذي لن يكون حينئذ إلا "ما يحدث حين نقرأ"6.

فالسلطة إذن ليست أكثر من تلك التي يمتلكها النص المستقل، عن تلك التي تملكها ذات مُحررة من كل إرغام نصي: كلا المرجعين يمتلكانها في النهاية، أو بالأدق يتفاوضانها داخل الفضاء الذي يتوافق فيه القارئ مع ذاته في الوقت نفسه الذي يُعطى له فيه النص.

حكايات نظرية: كيف يتم التعرف على الفعل النظري في يومياته؟

لا ترتبط قوة هذا الكتاب الصغير لـــ س.فيش بمحاولة إعداد نظري لمفهوم "الجماعة التأويلية" فقط بل تدين أكثر لطريقة الكاتب وأسلوبه في تفعيل الفكر انطلاقا من مواقف قصيرة .أو قد تعود قوة هذا الكتاب –حسب سيتون– إلى "مرح قد يبدو متكلفا بل ووقحا، ولكن يعود أكثر إلى فرح (مبالغ فيه ومعدي) في لعب لعبة النظرية[...] وراء الجدل السطحي نحس اللذة شبه الشهوانية التي أخذت المؤلف وهو يبني ويحكي حكايات نظرية ويعتبر الفكر كمكان تجريبي شبه مبهج"(مقدمة الكتاب ص15–16). والمقالات الأربع المجموعة في "حين نقرأ نفعل" تشهد على هذا بطرق مختلفة.

عنوانا المقالين الأولين– وهما أيضا الأكثر شهرة – يدخلانا توا في لذّة حبكة نظرية ،"هل يوجد نص في هذا الصف؟ " و"كيف نتعرف على قصيدة حينما نرى واحدة ". فهذين العنوانين إنما استقاهما المنظّر – على الأرجح– من مواقف طريفة حدثت له في الحرم الجامعي أين يمارس مهام التدريس.

"هل يوجد نص في الصف ؟ " هو سؤال طرحته طالبة على أحد زملاء فيش في سياق بداية السداسي الأول وبدون أي معلومات عما يرمي إليه السؤال، لم تكن إجابة هذا الزميل سوى " نعم هو "مختارات نورتون للأدب" The Norton Anthology of literature فأجابت الطالبة فورا: "لا، لا ، ما أقصده هو هل نؤمن في هذا المقياس بالقصائد وما شابه، أم أنه لا يوجد إلا نحن" ؟.

ما يوضحه هذا الموقف الطريف هو أن الملفوظ الواحد يستطيع أن يكون له معنيان حرفيان أيضا:" داخل الظروف المفترضة من قبل زميلي (لا أقول انه التزم بافتراض تلك الظروف ولكن بأنه أُلزم مسبقا داخلها) يتناول الملفوظ بالطبع كتابا معينا، مقررا، في برنامج ذلك المقياس، و لكن داخل تلك الظروف التي أشار إليها تصحيح تلك الطالبة فإن الملفوظ يعني أيضا موقف الأستاذ (داخل مجموع المواقف الممكنة في حقل النظرية الأدبية

المعاصرة) (ص30). أستاذ هذا المقياس هل هو من طراز أولئك الأساتذة – وفيش منهم- الذين يقولون بعدم استقرار النص و عدم صحة الدلالات المحددة له؟ هذا ما أرادت الطالبة قوله.

سوء الفهم هذا لا يشكل فقط "حادثة" تواصل بل يكشف أيضا وجود خط مشترك إن لم نقل خط قطيعة بين "جماعتين تأويليتين"؛ نفهم دوما ملفوظا داخل نظام من التحديدات والغايات والتضمينات وفي إطار"من الفهم المسبق" والذي خارجه لا يصبح للملفوظ أي وجود.

"يحدث التواصل داخل وضعية، وكوننا في وضعية معناه أننا أصلا في حيازة (أو تحت سلطة) بنية من الفرضيات المسبقة، والممارسات المفهومة على أنها سديدة بالنظر إلى غايات وأهداف موضوعة سلفا. إنما يفهم كل ملفوظ على الفور ضمن الفرض المسبق لغاياته و أهدافه" (ص47).

ليست هناك إستراتيجية للتأويل تعود كملك خاص للمؤول، وفعله التأويلي ليس أكثر خضوعا لمواصفات الملفوظ، إنما تنتج من فهمه المسبق " لاهتمامات وأهداف هي ليست ملكا لأحد، ولكن تجْمع كل أولئك الذين تعودوا على فرضياتهم حتى صاروا لا يفكرون فيها (ص51)، أي إذا استقرأنا من الملفوظ البسيط إلى قضية معنى النص فإن "الدلالات لا يمتلكها النص ولا قراؤه الأحرار والمستقلون ولكنها ملك لجماعات تأويلية مسؤولة في الوقت نفسه عن شكل نشاطات القارئ ، وعن نصوص ينتجها ذاك النشاط" (ص55).

الحكاية النظرية الثانية هي أكثر صفاء، في صبيحة نفس اليوم من صيف 1971 وجد البروفيسور فيش نفسه مضطرا لتقديم درسين متتابعين في نفس القاعة لفوجين مختلفين من الطلبة، (للتذكير هو يدرّس اختصاصين معا- نظرية الأدب وأدب العصر الكلاسيكي). الدرس الأول عن العلاقات الموجودة بين اللسانيات والنقد الأدبي، والثاني عن الشعر الديني الإنجليزي في القرن السابع عشر.

ترك فيش على السبورة وعلى طريقة " موضوع واجب " قائمة بسيطة تحوي عموديا أسماء خمسة لسانيين مصحوبة ببعض الإشارات التي توضع لتوضيح الاختلافات (مثلا خط وصل لمترادف، علامة استفهام أسفل اسم مكتوب بشكل قريب من الصحيح، رقم صفحة، شكل مؤطر ...إلخ) عندما وصل طلبة الفوج الثاني نبّههم الأستاذ إلى أن ما كتب على السبورة قصيدة دينية عليهم بتأويلها كما سبق لهم أن فعلوا مع قصائد أخرى في حصص سابقة، "قام الطلبة مباشرة بحل الواجب " على ما تدل هذه الواقعة الطريفة؟ "، بعيدا عن كونهم حفزوا بمواصفات شكلية، فإن أفعال التعريف [هذه قصيدة] هي مصدرهم، ليس حضور صفات شعرية هو الذي يفرض نوعا معينا من الانتباه ولكن إعطاء نوع معين من الانتباه هو الذي يقود إلى ظهور صفات شعرية" (ص60).

بعبارة أخرى، القراء أنفسهم هم الذين يصنعون القصيدة و كفاءة القراءة لا تتداخل مع المقدرة على تمييز المواصفات النصية، "هي مقدرة على معرفة كيف نصنع ما يمكن أن نقول بعد ذلك أنه موجود " (ص62) صحيح أن قصائد ومواضيع الواجبات هي أشياء مختلفة لكن هذه " الاختلافات هي نتيجة عمليات تأويلية مختلفة لا نتيجة شيء ملازم لطبيعة القصيدة أو موضوع الواجب " (ص67).

والوسائل التي عن طريقها "تصنع" هذه الأشياء هي اجتماعية وعرفية، هنا أيضا لا يوجد قارئ مستقل في علاقة – مناسبة أو غير مناسبة – مع نص مستقل أيضا، ولكن فقط " قراء شُكل وعيهم عن طريق مجموعة من المفاهيم العرفية التي ما إن يتم تشغيلها حتى تصبح هي بدورها شيئا عرفيا وينظر إليه عرفيا " (ص69).

تحت عنوان "البرهنة أم الإقناع " يحاول المقال الثالث تمييز نسق النشاط النقدي الذي تفعله الحكايات النظرية السالفة الذكر. إذا كففنا عن التفكير بالتأويل كشيء خارج عن مركز من المفترض أنه يهدده، من أجل التفكير به هو في حد ذاته كمركز " مما يعطيه قيمة فعل، نص، برهان، حجة مقنعة والذي يحدد تبعا لذلك نهايته الخاصة وحدوده "

إذا بعيدا عن النظر إلى التأويل كممارسة تحتاج إلى قيود، أردنا حقا الاعتراف بأنه هو ذاته بنية من القيود حينما لا يجب على الممارسة النقدية أن تذهب باحثة عن أدلة تسمح بالتأويل و لكن عليها متابعة غاية إقناعية فحسب. لذلك لا يمكن وجود تأويل لا مسؤول أو شاذ " الشذوذ ليس ملكا لتأويلات قد يحكم عليها بعدم الدقة اتجاه نص مستقل، ولكن ملك لنظام تأويلي في حدوده يقام النص وتعاد إقامته على الدوام " معرّفا السلوك المسؤول تماما كما يعرفه السلوك المسؤول " (ص80).

إن النظام التأويلي هو على وجه الدقة: " آلية التفاوض اللانهائي على ما هو مسموح وغير مسموح به.". وداخل هذا النظام " كل حركة انحراف عن النص هي في الوقت نفسه، حركة باتجاهه و بشكل أدق اتجاه معاودة ظهوره كامتداد لتأويل ما –مهما يكن– والذي يتجلى" بإعادة تشكيل نظام آخر (ص82).

من مصلحة الدراسات الأدبية أن تدير ظهرها لنسق " البرهنة " الذي يطغى على الإجراءات العلمية والذي في ظلّه تُؤكد التأويلات أو تُنفى عن طريق وقائع مُحددة بطريقة مستقلة، لتبنّي نسق " الإقناع " الذي لا تكون الوقائع التي نستدعيها في ظله متاحة إلا بسبب أن تأويلا (على الأقل في خطوطه الكبرى) قد تم فرضه مسبقا " (ص93).

سنترك القارئ يكتشف تحت عنوان " أوراق فلوجر " (floger papers) الحجة الشيّقة المقامة ضد الصحيح مهنيا le professionnellement correct في التدريس الأدبي والذي يشكل المقال الرابع في هذه الطبعة الفرنسية. وقد تمت كتابته بعد خمسة عشر عاما من كتابة المقالات الثلاث الأولى –كما سبق وأن أشرنا إليه– والذي من دون تجنب التناقض، يرافع فيش فيه لصالح قصد المؤلف طالما يتعلق الأمر بالتأويل، " لكن يمكن فعل شيء آخر مع نصوص بدل تأويلها " ... ضد التاريخية (" لا ضد التاريخ إذ سيكون الأمر بلا معنى " ضد البيتخصصية (لا ضد العمل بين التخصصات إذ سيكون الأمر بلا معنى) أو أيضا ضد نقد يريد لنفسه على نحو ساذج أن يكون سياسيا (" لا ضد السياسة إذ لن يكون له أي معنى ").

وعلى الرغم من الارتياب الذي يبديه فيش حيال قدرة النظرية على التأثير على العالم " خارج الجامعة" فإن قضية السلطة والآليات التي من خلالها يمنح خطابا لنفسه سلطة في ذات الوقت الذي يدعى فيه أنه يُحرر معنى نص، (في العمق إن المقصود بمؤوّل مسموح له [بالتأويل] إنما هو سؤال سياسي). و في أثناء كل هذا يذّكر ايف سيتون أنها "مهمة سياسية مباشرة من أجل إقناعنا بأن أي نص " وليكن ذلك المتعلق بالإحصاءات (الصادقة ؟) للبطالة أو التصريح (الدقيق ؟) للعجز المالي العام: " لا يفرض بنفسه أي شيء، ولكن المؤوّلين هم دوما الذين يُقولُون النص شيئا ما ينفعهم " (ص25). من دون شك سيكون من الصعب التنبؤ بالتأثيرات التي ستحدث نتيجة التفاوت الزمني الذي سيصل معه هذا النص إلى القارئ الفرنسي: النقطة الحاسمة هنا – ربما – هي أن " العمل السياسي " قد يصور لنا كـــ "ضد" للعمل "التأويلي".

هناك فرق كبير بين محاولة معرفة ما تعنيه قصيدة ومحاولة فهم أي تأويل لهذه القصيدة ، وهذا الأمر سيسهم في قلْب الأبوية أو تدمير الرأسمالية [...] يمكنكم اختيار القيام بعمل تأويلي لمحاولة الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بنصوص، أحداث أو ثقافة (حتى إن كنتم لا تستطيعون اختيار تأويلاتكم) أو يمكنكم اختيار حقل العمل السياسي، ولكنكم لا تستطيعون القيام بعمل تأويلي (على الأقل ليس في حقل الآداب) مع القيام بعمل سياسي، إذ لحظة قررتم القيام بعمل سياسي فإن المعايير التي عليكم الاستجابة لها لا تحترم (ولا تعترف حتى) بمعايير الجامعة (ص110).

من الممكن أن السؤال الذي عند حده توقف فيش نهاية السبعينات وهو " هل يمكن لنا القيام بأمر آخر مع النصوص غير التأويل "؟ يؤكد [أي السؤال] على مهمة هي من راهن اليوم: إذ ما إن يتم التسليم بأن القراء أنفسهم هم الذين يصنعون النصوص، وتنظير الإطار الذي من خلاله يمارس الفعل التأويلي، فما الذي يمكن فعله بـــ أو مع النصوص ذاتها إن اخترنا عدم تأويلها ؟.

مارك اسكولا " سلطة المؤول، الحكايات النظرية لستانلي فيش أكتا فابولا، جانفي 2008 المجلد 9ع1
URL : www.fabula.org./revue/document 3780 . php

مــــــلاحـــظـــات:

1) تحت إشراف فرنسوا كوسيه و ريمي تولوز، سلسلة كتب (تفكير/ تقاطع) منشورات لي بريري أوردينار [البراري العادية] (les prairies ordinaires) أعلنت عن عشر عناوين بالنسبة للأشهر المقبلة من ضمنها "الكل كمؤامرة "(la totalité comme complot) لفريديرك جامسن و الذي قدم عنه تيري لابيكا thierry labica عرضا في الإصدار الأول للمجلة العالمية للكتب و الأفكار أو أيضا "ملعب دبي للرأسمالية " (le stade Dubaï du capitalisme) لمايك دايفيس mike davis

2) باريس دار النشر المكتبة القانونية (la librairie juridique) 1995، الترجمة الفرنسية لـــ: فعل ما يأتي على نحو طبيعي: تفسير، بلاغة و الممارسة للنظرية في الأدب و الدراسات القانونية "منشورات جامعة أوكسفورد 1989.

3) في عدد مخصص للنقد الأمريكي ظهر مؤخرا في مجلة littérature (أدب) في 14 ديسمبر 2006: بعنوان "[ماذا؟] عن النقد الأمريكي؟" تم ذكر أسماء ج. دوجون J.Dejean، إ.أبتر E.Apter م.روتبرغ M.Rothberg ج.كولر J.Culler و س.دورينغ S.During أما اسم س.فيش فلم يذكر على الإطلاق.

4) خاصة بمواقفه المتخذة في النيويورك تايمز، أو في جرائد أخرى حول التمييز الإيجابي (قضية سوكال (l'affaire sokal). و "استحالة" حرية التعبير، و أيضا انحرافات الدراسات الأدبية نحو فعالية سياسية ساذجة. ويمكن قراءة وصف لستانلي فيش كـــ"نجم للحرم الجامعي" في: "النظرية الفرنسية" لـــ: ف. كوسيه من منشورات لايدكوفارت (la découverte) ، 2003 ص 216-219).

5) قدم س.فيش تطبيقا لمفهوم "الجماعة المؤولة" عند تلقي قصائد "الفردوس المفقود " لميلتون في المقال المعنون ب تحويل الكتلة (transmuting the lump) و الذي أعاد نشره في كتاب "كيف يعمل ميلتون" (how milton works) منشورات جامعة هارفارد 2001.

6) النظرية الفرنسية الطبعة المذكورة آنفا ص 217-218 (الأقوال تم استسقاؤها من "قارئ ستانلي فيش" لـــه. أرام فيسر H.Aram vesser أوكسفورد بلاكويل (oxford blackwell) 1999.

* في العبارة تلميح إلى الشعار المشهور الذي رفعه طلبة ماي 1968 في فرنسا "تحت البلاط يوجد البحر" " sous les pavés, la plage"(ملاحظة المترجمة).

عن الديالكتيك في العمل الإخراجي

منفريد فكفرت ترجمة الشريف الأدرع

هذا هو الحديث الثالث من كتاب (الإخراج في مسرح الهواة) لمنفريد فكفرت Manfred wekwerth المولود في 1929، التحق بفرقة "البيرلينرأنسامبل"في 1952 كمساعد لبريخت. تولى منذ وفاة هذا الأخير (1956) إلى 1969 أهم المسؤوليات الفنية في الفرقة. ترجم كتابه هذا إلى اللغة الفرنسية . وقد اعتبر حينها "إنجيل" الإخراج المسرحي.

الحديث الذي نترجمه هنا عبارة عن حوار بين شخصين: ألف وباء، وجاء بنفس العنوان أعلاه. كل أملنا أن يجد القارئ فائدته فيما كتبه أحد عمالة الفكر المعاصرين بخصوص الديالكتيك والمسرح.

بـــاء: ماذا تقول في الجملة التالية : (العالي هو ما ليس الواطيء، تعريف العالي قوامه الوحيد أنه ليس الواطيء، إنه ليس موجودا إلا بما أن الآخر موجود، وبالعكس) .

ألف: نكتة سخيفة، أنا أيضا قادر على التمييز بين العالي والواطيء.

بـــاء: جملة الفيلسوف الكبير هيجل تعطي مفتاح الفلسفة كلها، طالما كانت الفلسفة تحرص على أخذ الواقع بعين الإعتبار، لقد لزم الفلاسفة أربعة آلاف سنة حتى يصوغوها، ماذا تقول ؟

ألف: أحمق .

بـــاء: حسنا، ستكون لنا عودة للكلام عن هذه الحماقة في خاتمة حديثنا، سؤال آخر: (أتعرف ما هو الديالكتيك) ؟.

ألف: آمل كثيرا، أولا يجب رؤية جميع الأشياء في علاقاتها. ثانيا كل شيء يتغير. ثالثا الكم يتحول إلى كيف. رابعا كل شيء يتطور إلى متناقضات، أليس هو هذا؟

بـــاء:أسوأ، هو نصف ذلك. إنه قياس الذرة بمتر مطوي، وهو شيء معتاد عندنا. كل من يمتلكون هذه النقاط الأساسية الأربع"يفكرون" ديالكتيكيا. يتعجبون فقط من كون هذه النقاط الأربع لا تظهر أبدا على هذا المقدار من"الصفاء" في عملهم التطبيقي مثلما تظهر في الملفوظ. في المسرح صير إلى التفكيرـــــ فكرة بناءة ــــــ وأن كل الديالكتيك تكمن في صراع الطبائع. أريد مواجهة أصحاب النقاط الأربع باقتباس من لينين، استخرجته من (دفاتره الفلسفية) الشهيرة التي لا يقرؤونها: (الديالكتيك بوصفها معرفة حية، متعددة الوجوه (الوجوه تتكاثرعلى الدوام) مع ما لا حد له من الفوارق الدقيقة في تناول الواقع، الإقتراب منه (مع منظومة فلسفية تخرج من كل فرق دقيق لتكون كلا)، ذلك محتوى ذو ثروة لا تقاس).

من جهة أخرى يعطي لينين في الصفحة 118 من نفس الكتاب قائمة العناصر الستة عشر للديالكتيك، مع التأكيد بأنها إلى الآن ليست إلا مقاربة مستعجلة من تعريفها .

ولا يمكن أن تكون القضية قضية ديالكتيك الا لما تفحص بطريقة تعددية، حية، وبتطور مطرد، عنصرا ملموسا (حكاية مسرحية مثلا) في تعددها، وحيويتها ، ونموها .

ألف: تعتقد إذن أن الطريقة المتبعة في حديثنا السابق – الطرح الدائم للمزيد من الأسئلة، الاندهاش مما يحدث من ذاته، العثور على الجانب اللافت للنظر في الأشياء الأكثر رتابة – هذه هي الديالكتيك .

باء: من هنا يبدأ كل تفكير دياليكتيكي .

ألف: على كل حال يعمل كثيرا على إظهار ثراء العناصر الملموسة للحكاية .

باء:أكثر أيضا، عماذا تنصب أغلبية الأسئلة ؟ على أحداث غير متوقفة، لأن الأحداث التي تظهر في البداية وأنها أحداث يومية، والتي يظهر أنها تحدث من ذاتها يجعلها السؤال ملحوظة، كذلك فإن سؤالا ما يعمل على إثارة سؤال آخر. إذن في مرحلة أولى تظهر أحداث غير متوقعة الواحدة جنب الأخرى دون أن نستطيع تفسيرها، مثلا : العامل بيدرو ينتظر بإلحاح في الجبهة لأن الوضع خطير، وفي الوقت الذي تدوي فيه المدافع يتسلى العامل بيدرو بلعب الورق .

ألف: إن صغت الشيء بطريقة قطعية إلى هذا القدر؛ فإن ذلك يكون عبثا خالصا.

بـــاء: كيف تجعله يشارك في حصة لعب الورق ؟

ألف: حتى يبقى بشكل واضح الثوري في كل فعل من أعماله، أعمل إخراجيا على إراءة أنه لا يكف لحظة في داخله عن التواجد في الجبهة. من المحتمل أن أجعله يلعب الورق على مضض.

بـــاء: أحم ، كم سيكون هذا مملا. أولا بالنسبة للعامل، الجبهة حالياً هي مطبخ الأم كرار:تلزمه الأسلحة، يحاول الحصول عليها بتمثيله دور لاعب الورق الشجاع لأنه يعرف أنهم سيمنعونها عن الثوري. وفي هذه اللحظة تظهر بعض سمات الرجل الشجاع الحقيقي خلف سمات العامل الثوري. ذاك ما هو على وجه الخصوص جميل: الإيمان بالثورة غير متعارض مع طيبة القلب المألوفة. على الممثل أن يترك العامل هادئا، يأخذ كل متعته في لعبة الورق دون أن تغيب عن باله البنادق.

ألف: غير معقول، لأن هذا متناقض؛ فمن غير الممكن إظهار الشيئين في الوقت ذاته.إما ...إما .

بـــاء:خلط الفلاسفة لآلاف السنين بين التناقض والعبث مما جعلهم ينتهون إلى الله. في المسرح سعوا ويسعون دائما لتمهيد (خشونات) الحكاية بمساعدة التفسيرات البسيكولجية من النوع :الحياة الداخلية لبيدرو هي في الجبهة، في حين أنه يلعب الورق. ذاك ما يناسبه مثل مناسبة القفاز للبرجوازي الصغير: لقد جربه في طاولة حانته. حان الوقت للمخرج أن يبدل المحدود جدا ((إما ....وإما)) بالديالكتيك (مثلما) يعني فهم أطروحة التناقض، موضوع التناقض ((هيجل)): كل شيء متناقض في ذاته. بخصوص هذه القضية أريد أن أجعلك تستمع إلى ثلاثة رجال مشهورين:

1

هيجل: فيما يخص التأكيد الذي يرى أنه لا يوجد تناقض، وأن التناقض أمر غير كائن، فليس لنا أن نهتم به، يجب أن يكون التحديد المطلق للجوهر متواجدا في كل تجربة، في كل ما هو واقع، في كل مفهوم (...) ولكن الحاصل في التجربة السائرة أن تكون هناك مجموعة أشياء متناقضة، مؤسسات متناقضة الخ... التي لا يرد أصل تناقضها فقط إلى التفكير الخارجي بل يكمن في الأشياء والمؤسسات ذاتها، ولا يجوز أبدا اعتباره مجرد خروج عن القياس لوحظ هنا أو هناك،ولكنه هو السلب طبقا لتحديده الجوهري، وهو مبدأ كل حركة عفوية وهو ليس شيئا آخر غير تجلي التناقض (...) لا ينبغي أن تفهم هذه الحركة فقط كما لو أن الشيء يوجد في لحظة معطاة هنا

وفي لحظة تالية في موضع آخر، ولكن كما لو أنه موجود هنا وليس موجودا هنا في نفس الوقت، كما لو كان كائنا وغير كائن معا في نفس الـــ"هنا" (...) الحركة هي التناقض نفسه، هي التناقض الموجود.

2

إنجلز : ما دمنا نعتبر الأشياء كأنها في راحة، وبلا حياة ، كل واحد لذاته ، الواحد جنب الآخر ، والواحد تلو الآخر من المؤكد أننا لن نواجه بأي تناقض فيها (...) ولكنها يغدو الأمر خلاف ذلك عندما ننظر إلى الأشياء في حركيتها ، في تغيرها ، في حياتها ، وتبادل الفعل بين الواحد والآخر ، هنا نقع حالا في تناقضات (...) إذن الحياة هي أيضا تناقض بصفته حاضر في الأشياء ، وسيرورتها بالذات، يطرح ويحل باستمرار. وعندما ينتهي التناقض تنتهي الحياة أيضا ، يحل الموت.

3

ماوتسي تونغ : العلة الأساسية لنمو الأشياء والظواهر ليست خارجية بل داخلية ، توجد في التناقضات الداخلية للأشياء و الظواهر بالذات. كل شيء، كل ظاهرة تستدعي تناقضاتها. من هنا تأتي حركتها وتطورها.

ألف: قف عن الإستشهاد ، ما تقوله بنفسك لا يكفي إذن ؟ لنعد إلى بيدرو ... التناقضات التي يتكلم عنها ماوتسي تونغ هل هي التناقضات البسيكولوجية، الروحية لبيدرو ؟

بـــاء : سؤال عقيم، اسمح لي أن أقوم باستشهاد آخر: (على عكس الفلسفة الألمانية التي تنزل من السماء إلى الأرض، هنا نطلع من الأرض إلى السماء، بمعنى آخر لا ننطلق مما يقول الناس، ويتخيلون ، ويمثلونه. ولا ننطلق أبدا مما يكونونه في الكلمات، الفكر، التخيل، وتمثيل الآخر، لنصل بعدها إلى البشر بلحمهم وعظمهم، بل ينطلق من الناس وهم ينشطون في الواقع. فانطلاقا من سيرورة حياتهم الواقعية يجري كذلك تمثيل تطور الإنعكاسات والأصداء الإيديولوجية لهذه العمليات الحيوية.)

للاقتراب ديالكتيكيا من مسرحية ما ، ومن شخصياتها نبدأ مما يظهر، يعني من السلوك الملحوظ الذي تتخذه الشخصيات بعضها إزاء بعض، والمعطى في الحكاية، فالسلوك الملموس للبشر في علاقاتهم ببعضهم

البعض، الملاحظ في وضعيات ملموسة هو مبتدأ ومنتهى اللعب المسرحي ما دام هذا اللعب يطمح إلى خدمة المجتمع والعمل على تغييره .

ألف: ما الواجب فهمه من تناقض داخلي إن لم يكن غير تناقض في داخل المعين؟

بـــاء : (الذات هي مجموع أفعالها) كما قال هيجل. صحيح أن التناقضات الملازمة لسلوك فرد هي تناقضات (داخلية)، محايثة: للحصول على البنادق الضرورية للثورة يتحول الثوري بيدرو إلى لاعب ورق شجاع .

ألف : طبع الشخصية ألا يقدم أحسن تفسير لهذا السلوك ؟ لنقل أن بيدرو رجل داهية، هاديء، حكيم يحتقر العنف بالطبيعة، وهو ما يفسر عدم أخذه للبنادق بالقوة.

باء : على أي أساس كنت في منتهى الظرف تضع على حساب الطبع كل السمات (الغريبة) للحكاية. معبأ بدوافع بهذا القدر من الجبرية ليس للمثل غير الركون إلى المثالية الأكثر تفاهة. حينها كيف نمثل هذا: في البداية يرفض العامل اللجوء إلى العنف لأخذ البنادق، وفي النهاية يلتحق بالجبهة محملا بنفس هذه البنادق للقضاء على الجنرالات بواسطة العنف. لو جعلت هذا التناقض على حساب الطبع لأخفيت إحدى السمتين، ستجتزيء من أجل الطبع الخاص للعامل الرقة التي يظهرها إزاء أخته، ستخفي حبا في الطبع كونه يمضي لمواجهة الجنرالات وهو يحمل من العنف مقدار الصبر الذي أظهره تجاه أخته، كيف سيعرف المتفرج أن لصبره أسبابا ملموسة ؟ وأنها لم تكن مرادة لا من الله ولا من الطبع بل من الوصغية : جيش التحرير يستمد قوته من ثقة مواقعه الخلفية، باستعمال العنف في المواقع الخلفية تكون خسارة المعركة .

ألف: أتنكر أن لكل كائن بشري طبع خاص ؟

بـــاء : أنكر إمكانية الانطلاق من هذا في المسرح دون التضحية بـــ (العدد اللانهائي للفروق الدقيقة)، التناقضات، لأنه من سلسلة أفعال متناقضة ينتج في نهاية المحصلة إنسان ملموس متدرج في اطار وضعيات ملموسة، وإلا فاته كما لو كنت تمر بمرداس فوق الحواشي .

ألف: أنت تجعل المهمة سهلة جدا عندما لا تأخذ من أسئلتي الا ما يتفق وأجوبتك، أريد فقط القول بأن كل إنسان، لنأخذ بيدرو، هو إنسان خاص، لا يمكن أن يخلط بينه وبين آخر. أنت تفكك سلوكه إلى أفعال متناقضة، تبحث عن متناقضات سلوكه، وأحاول من جهتي بلوغ وحدة ما، لأن كل إنسان في النهاية يمثل وحدة.

بـــاء : وحدة متناقضات. وهكذا نرجع إلى(حماقة) بداية حديثنا .

ألف: ؟

بـــاء : ((والعالي هو ما ليس الواطيء...))

ألف : ؟

بـــاء: العالي والواطيء هما متناقضان ينازع أحدهما الآخر، أتفهم ؟

ألف: وإذن ؟

بـــاء: وبوصفهما متناقضان ينازع أحدهما الآخر، يكونان وحدة دون افتراق. أكثر من ذلك أنه ليس إلا حين يشكلان وحدة يكونان موجودين بوصفهما متناقضين ينازع أحدهما الآخر.

ألف: وحدة متناقضات، مع ذلك هذا متناقض.

بـــاء : بالضبط، هذا تناقض حقيقي، من خلال هذا بالذات يأخذ حسبان الواقع. عندما نقول مثلا : البرد في الأسفل : الملاحظة لا معنى لها إن كنا نجهل أين يوجد العلو، لأنه حينها فقط نعرف: الواطيء هو ما ليس العالي .

ألف : هذا تحصيل حاصل.

باء : أشك، تريد إخفاء المتناقضات التي لاحظتها في سلوك بيدرو لتبلغ شخصية ((موحدة)). تريد: إما وحدة وإما متناقضات. العكس بالنسبة لي: عندي شك كبير في الشخصيات الموحدة التي لا تحتوي في ذاتها على أضداد .

ألف : في كل وحدة- مثلا في سلوك بيدرو – مؤمنا بأن كل وحدة ما هي في النهاية إلا محصلة تناقضات، أنت تبحث عن تسجيل الأضداد أولا؟

باء : (لأن السمات المتناقضة لا يمكنها ان توجد منعزلة الواحدة عن الاخرى ، لو كانت إحدى السمتين المتعارضتين ، و المتناقضين منعدمة فإن شروط وجود السمة الاخرى تنعدم أيضا (...) لا موت بلا حياة، ولا حياة بلا موت ، ولا انخفاض بلا علو، ولا علو بلا انخفاض، لا سعادة بلا شقاء ،لا شقاء بلا سعادة ، لا صعوبة

بلا سهولة، لا سهولة بلا صعوبة (...)لا بروليتارية بلا بورجوازية، ولا بورجوازية بلا بروليتارية (...)هكذا يحدث بالنسبة لجميع المتناقضات).

ألف : إنها جيدة الصياغة.

بـــاء: استشهاد لماو تسي تونغ .

ألف: أيمكنك أن توضح بمثال جديد كيف يطبق هذا في المسرح؟

باء : لنأخذ شخصية الشريف السيد (سي) في (ذرة للجيش الثامن). يدخل المسرح كما يدخل إمبراطور الصين ويعطي الانصار الخيط لفتله. هو أبعد من أن تنقصه كرامة، إنه أنيق، ولا يترك نفسه يؤخذ على غرة. في حالة تدعو إلى الشفقة يلجأ في نهاية المسرحية هو المسالم والأحمق إلى خزانة. إنهما جانبان لشخصية واحدة هي ذات الشخصية.هي إلى حد ما وحدة أضداد، لكن كيف تمثل في غالب الأحيان؟ إما أن تقدم منذ المشهد الأول كسيد النهاية المثير للشفقة أو يقدم بنفس الدرجة من الخطورة من البداية إلى النهاية. وأحيانا تكون السمتان (موضوعتين في نفس الشكارة)بدعوى أن الشخصية لا يمكن ان يكون لها غير طبع واحد، وفي الحقيقة فإن طبعه ليس شيئا آخر غير سلوك يقوم عل التناقض ، إنه وحدة اضداد.

إمـــا : الأم كرارضد كل كفاح وضد كل مكافح، لكنها تضمد جراح الجريح، وتضحي من أجله بقميصها الأخير، هذا التناقض الذي هو محرك المسرحية يجزئوه المخرجون في غالب الآحيان إلى اثنين: إما و إما. الأم كرار تضمد فعلا جراح الجريح في أعمالهم الإخراجية؛ إذ لا يمكن القفز فوق الحادثة، لكن حبا في (وحدة الطبع) تخفيها، تقوم بعملها خفية.

إمـــا: قبل دخول السيدة بيريز إلى الخشبة بقليل تكون للعامل بيدرو هذه الجملة ليقولها: (ينبغي شنقك أحسن تيريزا)، لقد فشل مخططه وعليه العودة الى الجبهة من غير بنادق.بفضل عون السيدة بيريز غير المنتظر، وبفضل الرد القاسي للفاشيين – كون المسألة تتعلق بالمحافظة على من ليسوا مسلحين – يحصل بيدرو في الأخير على البنادق. كم هم قلة المخرجون الذين يستفيدون من ديالكتيك هذه الحادثة... في نظرهم لا يمكن للعامل بيدر وأن يعرف أزمة لأنه ثوري، وهو ما يعني في أذهانهم (امتلاك طبع سام). ينطق الممثل إذن هذه الجملة كالعابر، أو كما لو كان آنذاك (مشوشا داخلياً). حسب الحكاية بالعكس يتخلى بيدرو عن مشروعه، يلف الجسد بالغطاء ويتوجه صوب الباب اين يقول بنبرة هادئة هي نبرة التثبت :(ينبغي شنقك أحسن تيريزا) (معطيا من جهة أخرى بهذا الشهادة على سمو جديد هو سمو جندي الشعب: إنه لا يستعمل العنف في المناطق الخلفية).

ألف : إن كنت أفهم جيدا فكرك الذي من جهة أخرى لا تصوغه دائما بوضوح، أنت تنتظر من الممثلين أن يلعبوا هذه (الإنقطاعات) بصورة بينة، ودون تضمينها أساسا بسيكولوجيا، وبالتالي دون اهتمام بوحدة متصورة سلفا .

بـــاء: من اللحظة التي تكون فيها وحدة الطبع غير وحدة الأضداد تصير تماثلا ، لأنه من خلال التقديم الظاهر لهذه (الإنقطاعات)، البؤر، أو تحول المتناقضات إلى أضدادها نحفظ للأحداث تعدديتها الملموسة والواقعية. لا يجد المتفرج إذن نفسه مدعوا لتقبل رأي مسبق، وتقبل فكرة مقبولة سلفاً، ولكن يجد نفسه مدعوا للحكم على الشيء بالذات، الحكم على الشيء في حركيته الخاصة. فبمجرد تقديم المتناقضات تصير الأحداث ملموسة وفي الوقت نفسه منتجة فلسفيا: تظهر دلالة شيء ما في حركة هذا الشيء، ولا وجود لدلالة إلا إذا كانت الدلالة ظاهرة.

ألف: تواضع. اسمح لي، لكن أخذتك على غرة تغادر درب الديالكتيك. أنت تفيض في عرض وحدة المتناقضات بلذة، ولديك في هذا الشأن أمثلة بالجملة. حتى هنا يمكن أن تبدو الديالكتيك نوعا من لعب مجتمع يتمثل في بحث وتسجيل المتناقضات – تدقيقا – بوصفها وحدة متسرنمة في دعة الواحدة جنب الأخرى، وهو ما يكون أيضا بالتقريب أكثر تفاهة من الميتافيزيقا. تريد أن تعلمني طريقة تفكير ديالكتيكية فتقطع الحقيقة إلى اثنين لتتمكن من شرحها (أحسن). قرأت بفضل نصيحتك (في التناقض) لماوتسي تونغ. أقتبس عنه حرفيا:

(لكن أيكفي القول بأن إحدى سمتي التناقض هي شرط وجود الأخرى وبأن هناك تماثل بينهما، وأنهما ـــــ بالنتيجة – تتعايشان في وحدة ؟ كلا، هذا لا يكفي؛ فالمسألة لا تقتصر على كون سمتي التناقض تتبادلان الاشتراط، ما هو أيضا أكثر أهمية هو تحول الواحدة إلى أخرى ، بكلمة أخرى تنزع كل من سمتي تناقض ظاهرة ما نحو التحول في شروط معينة إلى ضدها ، وأخذ الموقع الذي يحتله مناقضها ، ذلك هو المعنى الثاني لـــ : (تماثل الأضداد).

بـــاء : أقبل مبارزة الإستشهادات. هيجل :

(لأن قوة الحياة، وأكثر من ذلك، قوة الروح تتمثل تحديدا في هذا: وضع التناقض في ذاته، قبوله أو رفعه. إن الحركة التي بواسطتها يوضع أو يحل تناقض الوحدة المثالية و الخارجية النظير الواقعي للأعضاء يمثل العملية الدائمة للحياة، والحياة بكونها فقط عملية).

ألف : باختصار ، كل هدوء نسبي ، الحركة هي المطلقة : كل شيء ينمو (بتطور). لنعد إذن إلى اللعب المسرحي (كلمة (اللعب) الصغيرة هذه، في حين أن الأمر يتعلق بقصف فلسفي، تعمل في عمل نكتة قيلت أثناء الجنازة). ينبغي الرجوع إلى البداهة : منذ أن وجد المسرح هنالك طبائع تنمو على الخشبة: إظهار أشياء تنمو هو على كل ليس من خلق الماركسية .

بـــاء : لا ، الميتافيزيقا البورجوازية الصغيرة كما نقابلها في المسرح لا تجهل أبدا مفهوم النمو. لنأخذ هذا العرض أو ذاك من عروض(البنادق). الرواية إلى حد ما هي التالية : داخليا – حسب طبعها – الأم كرار دائما ثورية ، في الإبتداء وعند الانتهاء. إنها الأحداث الخارجية على الخصوص موت زوجها الذي وقع أثناء إنتفاضة أو فيديو هو ما يخفي طبعها الثوري. قليلا قليلا تحت تأثير الأحداث الخارجية أيضا (بيدرو ، مدام بيريز ، موت إبنها) ترجع إلى ذاتها .

في هذا الموضوع أريد إعطاء الكلمة للينين : ((تصوران أساسيان (أو إثنان محتملان ؟) أو تصوران ملاحظان في تاريخ التطور (النمو): التطور كنقصان ، و كزيادة ، كتكرار ، والتطور كوحدة أضداد (إنشطار الواحد إلى أضداد متنابذة والعلاقات المتبادلة بين هذه الأضداد). مع التصور الأولى للحركة تبقى الديناميكية الذاتية في الظل، قوتها الفاعلة ، ومنشأها، دافعها (إلا إذا نقل هذا المصدر إلى الخارج – رب ، ذات إلخ ...). مع التصور الثاني الاهتمام الأساسي متوجه تحديدا نحو معرفة منشأ الديناميكية الذاتية. التصور الأول ميت ، فقير ، قاحل، أما الثاني فحي. وحده الثاني يعطي مفتاح (الديناميكية الذاتية) لكل ماهو موجود ، هو وحده يعطي مفتاح (الطفرات) و(الإنقطاع في التتابع) للـــ : (التحول إلى الضد) و(انحلال القديم وولادة الجديد).

ألف: كيف تقرأ حسب هذا تطور الأم كرار؟

بـــاء: لما تخرج الأم كرار الخبز الناضج من الفرن تكون امرأة مغايرة للمرأة التي وضعت العجين في الفرن. كان لها في البداية نفس سلوك الكثير من ناس زماننا : بمجرد أن يضربهم القمع والقامعون يفقدون شجاعة الاستمرار في مواجهة القامعين. ويحاولون في الأوقات الأكثر قمعية ضمان سلمهم الخاص الصغير داخل جدرانهم الأربعة. يجمدون عند همومهم الشخصية و يصيرون سلبيين. كانت الأم كرار ذات مرة ولأنها أم و لدين مع الكفاح من أجل الحرية و هي اليوم ضده بوصفها أما كذلك.ولا تزيد حجج الثوريين حقدها على المعركة إلا صلابة. وتتيه أكثر فأكثر داخل تناقضاتها. ألم يحدث لها الإدعاء بأن الجنرالات هم أيضا بشر ولعن ابنها الذي ظنته قد ترك الصيد والتحق بالجبهة؟ لأي سبب تحضر نساء مصليات الابن مثلما كن قبل الآن قد أحضرن الأب : مقتولا من طرف الفاشيين. لم تعمل حجج ومحاولات إقناع أي كان إلا على جعلها أكثر مرارة وسلبية، وهذا

إلى أن يجيء الانقلاب مع خسارة جديدة : تذهب إلى الجبهة بالبنادق ،(الكم يتحول الى كيف) ، تلك هي الصياغة التي تأخذ بالاعتبار هذه العملية، أو كما يقول لينين: (انفراط التواصل) أو أيضا: تحول المتناقضات إلى أضدادها..الخ...

ألف: أو (نفي النفي) أو هكذا يرى المتفرج: ضياع الابن لا يجعل الأم كرار تنكر نهائيا كل كفاح ولكن يجعلها تنكر النفي الذي هو أكثر من التأكيد المجرد. سالفا كانت تقر الكفاح الذي خاضه زوجها ضد الفاشيين، والآن تنكر معارضتها وتمضي بنفسها الى الجبهة.

بـــاء: جيد جدا. قبل كل شيء يتطلب التفكير الديالكتيكي أن تظهر الصياغة في حد ذاتها عملية التطور (النمو) والتناقض الفعال كما يقال وهو ما يلزم أيضا المشهد (أو خشبة المسرح). حين أقول: أظهر العامل بيدرو صبرا كثيرا إزاء أخته أكون قد اقتنعت أن الصبر هو في هذا الوقت الطريقة الواحدة و الوحيدة للفعل، وأن هذه الإمكانية الوحيدة أي الصبر هي صفة ملازمة لطبع بيدرو. أحسن من ذلك الصياغة التالية: العامل بيدرو لا يأخذ البنادق بالعنف بل بالعكس يظهر صبرا تجاه أخته. التناقض المطروح هنا ، والذي يظهر العملية : من جميع صور الفعل الممكنة هذا هو ما اختاره بيدرو . وعلى ممثل بيدرو قطعا أخذ هذا الاختيار في الحسبان.

ألف :كيف؟

بـــاء: بأن يظهر أثناء النقاش الذي يجربه مع أخته بأنه يستخدم العنف ضد عنفه هو:(لن أذهب من غير بنادق). إنه يحتويه بمشقة كبيرة، فهو ليس لطيفا بالطبيعة بل بالتفكير .

ألف: يخطر ببالي مثال جديد لــ (الإنقلاب) أو البؤرة كما كنت تقول منذ ساعة: بأمر من الياباني يبقى الخائن (سي) في البلدية ملاحظا (مشهد6). تصبح العملية التي يرمي إليها الأنصار معرضة للخطر. ينجحون في إدخاله في خصام مع قائد الحامية (مشهد8)، و لكن الياباني على الاقل لا يأتي ثانية ليأمره بالبقاء في البلدية(مشهد10). الليل جد قريب، والخطر المهدد للعملية يزداد ، وها قد حل الليل والانصار لم ينجحوا في التخلص من الخائن (سي) ، ولكن الآن لن يمضي الخطر في ازدياد بل سيتحول نحو التقلص : يتحول إلى ضده، يتحول إلى أمان. يحضر السيد (سي) كل شيء ويمكنه في الغد أن يشهد أمام الياباني عن (سرقة) الذرة.

شيء آخر أيضا : السيد(سي)..

بـــاء :أفضل أن نبقى اليوم هنا بالنسبة لليوم، حتى و إن كان هذا قد بدأ بالخصوص يهمني ،لكن حذار: كل ما قلناه يبقى عاما. نحن لم نتفحص مطلقا أكثر من اثنين من المتناقضات في شيء ما. في الواقع هناك تناقضات

عديدة تفعل في نفس الوقت داخل شيء ما ،من المناسب إذن تعيين التناقض الأساسي . وكذلك فإن أحد قطبي التناقض هو دائما القطب الأساسي الحاسم. لكن يمكنك في هذا الصدد الرجوع إلى ماوتسي تونغ.

لندع أحصنتنا الكبيرة، لننس النظرية، و لنعالج تحليل الحكاية.

ألف: لقد أقسمت على أن تجعلني أعمل (إنقلابا)، أتحرص على أن يقذف بي هذا التراكم الديالكتيكي في الميتافيزيقا؟ بالنسبة لليوم هذا يكفني.

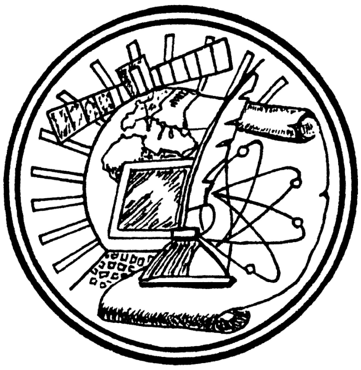

دراسات ثقافية بينية مقارنة

إيرل ماينير Earl Miner* .   ترجمة: عبد القادر بوزيده

جدّة الدراسات الثقافية البينيّة حقّا

إلى فترة غير بعيدة، كانت الدراسات المقارنة تتم داخل الثقافة الواحدة intraculturelle، سواء على المستوى التطبيقي أم النظري؛ والثقافة المقصودة ضمنيا ليست بالفعل سوى تلك الثقافة التي تشترك فيها أوروبا وأمريكا الشمالية. قد تتناول الدراسات الموضوعاتية موضوعة الحرب، فتقارن بين تولستوي وستاندال، ولكنها لا تذكر البتّة "قصة هايك" ولا "رواية الممالك الثلاث". ويمكن للدراسات حول الحركات الأدبية أن تطال ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، ولكنها لن تخرج من هذه الحدود المرسومة. وكالعادة، يتم اللجوء إلى النظرية لتبرير الممارسة. وهكذا تُرفض الدراسات المقارنة بين ثقافات لم تقم بينها علاقات تبادل فكري أو لا توجد بينها تقاليد مشتركة، بحجة الانطباعية أو بحجة افتقادها لثقل ثقافي. وفي فترة غير بعيدة كانت الدراسات الثقافية البينية interculturelles الكبيرة المسموح بها تشترط وجود اتصال مباشر؛ وحتى الاهتمام الذي أبداه كل من "جوته" و"مونتسكيو" بما يوجد في الشرق لم يدرس إلاّ لماما. وقد صادف أن وُجدت دراسات أو، على الأقل، شيء من الاهتمام بانجذاب كلّ من "تورو" Thoreau و"إمرسن" Emerson للهند، وانجذاب العديد من الشعراء والمسرحيين الأوروبيين لليابان و الصين. و لكن هذه الدراسات لم تلق إلاّ الإهمال، إذ نُظر إليها على أنها نوع من النزعة "الإكسوتية" Exotisme ** التي يمكن أن تُعجب بعض الأشخاص، لكنها لا تنتمي إلى "الأرتودوكسية" التي تهتم بالأمور الجادة: أي أوروبا وأمريكا الشمالية.

هذا الموقف هو بقيّة من بقايا الإمبريالية الأوروبية، بقية عصر كانت فيه أغلب البلدان من غير أوروبا وأمريكا واقعة تحت الهيمنة الأوروبية. وقد بلغت هذه الإمبريالية حدّا جعل حتى أكبر إمبراطورية تقليدية، وهي

إنجلترا، لم تول إلى الآن إلاّ قليلا من الاهتمام حتى بدراسة الأدب المقارن الأوروبي. لكن أحداثا قريبة العهد قلبت هذه الوضعية؛ فقد خسرت أوروبا القسم الأكبر من إمبراطوريتها و تناقص تأثيرها. وقد استطاعت اليابان الصغيرة الحجم أن تخوض حربا مدمّرة ثم تنهض، مثل طائر الفينيق، وتُبعث مُجدّدا من أكوام الرماد التي تركتها المقنبلات الأمريكية وتصبح القوة التجارية الأكثر توسعا في نهاية القرن العشرين. [...] ولكن تصاعد قوّة اليابان وشهرتها التجارية أدّى إلى اكتشاف تقليد أدبي هام عندها، أكثر امتدادا في الزمن من نظائرها الأوروبية ويختلف عنها إلى درجة كبيرة. وجاءت الثورة الصينية فوضعت حدا لأي سيطرة أجنبية على الأرض الصينية، وفي حدود ما توفر من معلومات حول سير الأحداث، نشأت رغبة في معرفة وفهم هذا الجزء الهام من سكان العالم. واكتشفنا أن الأدب الصيني هو أقدم أدب في العالم استمر دون انقطاع؛ وفي مجرى السنوات الأخيرة، أصبح من البديهي أنّه لا بد من إضافة النثر السردي والدرامي إلى المدونة الشعرية الغنائية أساسا التي سبق الاعتراف بها. لكن الهند لم تعرف المصير "السعيد" نفسه، إذ لم يكن لها، مثل اليابان، "حظّ" الدخول في حرب مع أمريكا وأغلب دول أوروبا، ولا عرفت، مثل الصين، ثورة قلبت أوضاعها. علاوة على ذلك، فإن الهند ليست مهد عديد اللغات فحسب، بل هي أيضا مكان تصادمها. وهو ما جعل معرفتنا بالأدب الهندي يكاد يكون مقصورا على بعض القصائد الطويلة فقط، وعلى كونها أقدم نصوص أدبية عرفها العالم. أمّا البلاد الإسلامية وإفريقيا وأمريكا الجنوبية ، فقد بدت على العموم متنوعة جدا وبعيدة جدا فكريا لكي يحسب لها حساب.

إن وصف هذه المسائل على هذا النحو يعني جعل الأدب موضوعا تحكمه القوى الاجتماعية والاقتصادية، في حين أنّ الأدب، مثل أيّ شكل من أشكال الفكر، يمتلك طاقة خاصة. فعندما كتب "هنري ديفيد تورو" المقطع التالي، لم تكن الإمبراطورية ولا التجارة هي التي تهمّه في المقام الأول:

« في الفجر، أغطس عقلي في فلسفة " بهاغات- غيتا" الرائعة المتعلقة بنشأة الكون التي مرّ دهر على سنوات تكوينها الإلهي، وإن نحن قارنّا بينها و بين عالمنا الحديث وأدبه، فسيبدوان بالقياس إليها ضئيلين ولا قيمة لهما ... أضع كتابي وأقصد بئري بحثا عن الماء، وها هو خادم "برامان"، كاهن "براهما" و "فيشنو" و"اندرا"، يجلس دوما في المعبد على ضفاف "الغانج" يقرأ "الفيدا" أو يحيا تحت شجرة، بجانبه قطعة خبز وإبريق ماء. ألتقي بخادمه وقد جاء ليجلب الماء لمعلّمه فيصطدم إناءانا في البئر نفسها. و يختلط ماء "ولدن" الصافي بماء "الغانج" المقدّس. »

هذا المقطع مشهور دون شك، و لكن ما هو الأثر الذي أحدثه في دراسات الأدب المقارن؟

مثل "تورو" كان "وليام بوتلير ييتس" William Butler Yeats واقعا تحت تأثير شغف أدبي يستوعب اهتماماته الاجتماعية و الفلسفية و ليس العكس:

« لقد أصبحت أوروبا عجوزا، فقد عرفت الكثير من الفنون وعرفت ثمرة كل زهرة وعرفت ما تنبته هذه الثمرة، ولقد حان الوقت الآن لنقلّد الشرق و نحيا بحكمة.

إن الأشخاص الذين ابتكروا هذا التقليد (في بداية ظهور مسرح "النو" ذكر مسافر الأماكن التي زارها وهو في طريقه إلى المكان الذي يقع فيه الحدث) كانوا أقرب إلينا من الرومان أو الإغريق وهو على شاكلتنا أكثر حتى من شكسبير وكورناي. كانت انفعالاتهم دائما متحفظة وموحية، ومرتبطة دوما بصورة أو قصيدة.»

ومثل "باوند" Pound الذي عرّفه بمسرح "النو"، اكتشف فيه "بيتس" « رؤية موحدة» تقدّم، دفعة واحدة، حلاّ للمشاكل التقنية التي يعرفها الأدب والتمزّق المتزايد الذي تعاني منه الحساسية الأوروبية. يمكن أن نقبل بكون "تورو" أو "بيتس" كانا متحمّسين أكثر ممّا كانا مطّلعين، ويمكن أن نتصور أنّ اشتهار "الهايكو" في فرنسا في نهاية الحرب العالمية الأولى كان شيئا جديدا، بالنسبة لتلك الفترة، وإلاّ ما كان يمكن لفرنسا أن تكون فرنسا [...]. وتوجد ظواهر شبيهة في مرحلة لاحقة أو في بلدان غير غربية. لكن ما لا نملكه هو دراسات في الأدب الغربي تتصف بالحصافة و الأناقة نفسها التي تتصف بها أفضل الدراسات، مثلا في الأدب الصيني [...] وفي غياب هذه الدراسات، المقارنية أساسا، تطرح بلا شك المسألة المهمّة، مسألة التأثير التي لا تتناول حقا إلاّ القرن المنصرم في مجال الدراسات الثقافية البينية.

ما هو ضروري للثقافات البينية:

توفّر نظرية أفضل للعلاقات الثقافية الداخلية شرط لا تقوم الدراسات الثقافيةالبينية من دونه .

لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة التالية: وهي أن تحديد الأدب المقارن نفسه يبدو، بصورة أو أخرى، أنه تحديد أوروبي بالنسبة لأغلبنا. ألم نسمع كلاما عن الأدب المقارَن Littérature comparée والعلم المقارِن للأدب Die Vergleichende Literaturwissenschaft والأدب المقَارِن Comparative literature ؟ لكن هل سمعنا من يتحدّث عن "الهيكاكو بونـــڤاكو" hikaku bungaku أو عن "البيجياو وينكسو" bijiao wenxue ؟ إن السحر الذي تفعله فينا كلماتنا هو من القوة بحيث أن التعابير الغربية المألوفة تبدو كأنها تُعيّن الآداب الغربية، والآداب الغربية وحدها. في الوقت الحاضر لم يندثر هذا الموقف، ولكنه سيندثر عن قريب.

إن أهمية الدراسات الثقافية البينية ستظل قوية في آسيا كما في أوروبا. وهناك الشيء الكثير الذي يجب فعله بخصوص مسألة تأثير ثقافة واحدة في عصر سابق على عصرنا. إن ما يدين به "هوراس" Horace في قصائده الغنائية للشعراء الغنائيين الإغريق هي مسألة معروفة عند دارسي الأدب الكلاسيكي، لكن الدراسات المقارنة لهذه العلاقة لا زالت محدودة: ما هو مبدأ المقارنة؟ عندما نقارن الاهتمام الذي أولاه العصر الرومانتيكي الأوروبي للأدب الإغريقي سندرك أنه من الصعب، عمليا، معرفة ما إذا كانت مقارناتنا لمثل هذه الوقائع هي من قبيل الدراسات الثقافية الداخلية أو الدراسات الثقافية البينية. وباختصار، فإنه لا توجد حدود نهائية بين الاثنين، بل يتعلق الأمر، كما هو الحال في أغلب الأحيان، بخصوص المسائل الثقافية، بتدرّجات ذات لوينات رقيقة ،التمييزات بينها تمييزات اعتباطية و إيديولوجية.

لكن توجد، رغم ذلك، بعض الاختلافات بين الأدب المقارن الثقافي البيني و سلفه الأكثر مألوفية لنا. في المقام الأول ، فإن اللغات الضرورية ليست من أسرة واحدة. ثم إن مسألة التأثير ليست موضع نقاش إلاّ بخصوص العصر الحديث. وينجم عن هذا أن الاستعداد للدراسة المقارنة الثقافية البينية يختلف عن ذلك الذي يناسب مقابلتها، أي الدراسة المقارِنة الثقافية الداخلية؛ وتكون بعض الموضوعات (مثل التأثير) ممنوعة لإحداها ومقبولة للأخرى. ومن جهة أخرى فإن الدراسات الثقافية البينية تثير بعض القضايا اللصيقة بأي دراسة مقارنة بطريقة جديدة كلّ الجدّة أو بصورة حادة على أقل تقدير، بحيث أنها تجدّدها إذ هي تقلب الاختصاص رأسا على عقب. [...]

ما إن نُخرج مفهوم التأثير من السياق الأوروبي – الأمريكي إلاّ ويفقد تلك البساطة التي كان يبدو عليها في نظر الأغلبية. "الأغلبية"، لكن الأمر لم يكن يُنظر إليه على هذا النحو من قبل "ديونيز ديوريشين" Dionyz Ďurišin * الذي بيّن أنّ ما يسمى عموما "التأثير" يوحي بأن "أ" يرسل شيئا إلى "ب" ، بينما يكون من الأصح أن نتكلم عن الاستقبال، أي "ب" يختار شيئا مصدره "أ" (ديوريشين 1974). وإن الاستقبال الذي خُصّ بــه أدب آسيا من قبل كتاب الغرب الحديث (عوض الحديث عن تأثرهم يه) إنما يتعلق كما يظهر ببعض أنماط القصائد والأعمال الدرامية، لا بالأنماط السردية (لكن العكس هو الصحيح في الجانب المقابل) . ويمكن أن نتصور بسهولة أنّ الدقة التي تميّز النثر المتوازي الصيني "البيين ون" (Pien_Wen) أو النثر المقفى: "فو" (Fu) يتطلب معرفة بالصينية لا يتوفر عليها الكتّاب الغربيون. لكن لماذا إعــطاء هــذه الأهمية كلّها لما يّسمّيه الفرنسيون "الهايكاي" (HaiKai) و ما سمّاه التصويريّون "الهوكو" (Hokku) وما أُطلِــق عليه، فيما بعد، تسمية "الهايكو" (Haiku) عوض القصائد الأطول التي عُرفت في البلاط الياباني؟ أو، بما أن الغربيين لم يولوا عناية كبيرة للأعمال الآسيوية من نوع النثر السردي، لماذا استقبل كتّاب شرق آسيا بحماس كبير النثر السردي دون غيره من بين الأعمال الغربية ؟ توجد في الحقيقة أسباب حتى إن عجزت تفسيراتنا عن كشفها.

الهيمنة تؤثر في العلاقات الثقافية البينية لكنها لا تفسرها

إذا أخذنا بعين الاعتبار كرونولوجيا الاستقبال و الظروف التي تمّ فيها، فإننا نلاحظ أنه ليس من الضروري استبعاد مفهوم التأثير الذي يمكن أن يفيد، إذا أُعيد تحديده. عندما تمتلك أمّة أو ثقافة سلطةً وبعض الشهرة الثقافية، فإنّ كتاب أمم وثقافات أخرى يكونون مستعدين للاستقبال. وإن ما يجر أو يفرض الاستقبال يمكن أن نطلق عليه تسمية "التأثير". لقد أخذ الكتاب الكوريون واليابانيون من الصين التي أثرت فيهم، حتى إن لم تكن الصين تأخذ شيئا من كوريا و لا من اليابان ، إلا عندما يكون الإنتاج موضوعا باللغة الصينية. ولكن الصين قد أخذت من الهند، إضافة إلى البوذية، بعض العناصر التخييلية مثل تلك التي تمثلها بعض الأعمال "السوترا" (Sutra) . ولم "تأخذ" الهند من الصين ولكنها أثّرت فيها. وقد انتشرت الواقعية الاشتراكية إلى هذا الحد أو ذاك في أوروبا الشرقية والصين، وانتشرت الثقافة الشعبية الأمريكية في العالم. بخصوص هاتين الظاهرتين المعاصرتين،

تتضمن الهيمنة شيئا من التأثير، المباشر أو غير المباشر. ولا شك أن الصين هي البلد الذي مارس طويلا هيمنة وقع تقبلها بكثير من الرضا. و يروي كاتب صيني أنه، رغم كونه قد طاف أرجاء العالم (...) إلاّ أن هناك ثلاثة أو أربعة أمكنة لم تطأها رجله، و هذه الأمكنة توجد، كما بالمصادفة، على أطراف كبريات محاور الطرق الصينية [...]. وقد لاحظ الكثيرون ذلك الاحتقار الذي أبداه الإغريق تجاه أولئك الذين كانوا برابرة لا لشيء إلاّ لأنّ كل ما يمكنهم قوله يشبه صوت "البربار" barbar (الأجنبي). ويوجد عند الصينيين أربع كلمات لتسمية البرابرة، وكانوا يطابقون بينهم وبين النقاط الأساسية الأربع، الشرق والغرب والجنوب والشمال، وهذا تبعا للترتيب الذي يعطى لها في شرق آسيا. وهناك أخيرا فرنسا العذبة ... ورغم أنها لم تكن قوّة امبريالية عديمة الأهمية وقتها، إلاّ أنها حدّدت لنفسها مهمّة – تعكسها لغتها – تتمثل في أن تكون المؤتمنة على الحضارة لبقية العالم. وقد كان هذا التأثير لافتا خاصة وأنه، لمدة طويلة، لم يستند إلى سلطة السياسة Matchpolitik . وقد كان النبلاء الروس يفتخرون بإتقانهم الفرنسية لا لغتهم الروسية، كما أنّ الدعوة التي وجّهها فريدريك الأكبر للألمان ليكتبوا بلغتهم كانت مكتوبة بالفرنسية. وبالنسبة للفرنسيين لم يكن فنّ الأكل ولا الخمر ولا الحب ولا المال ولا فرنسا ولا الحضارة يمكن أن تكون موضع تندّر. هذا الادّعاء أثّر وأدّى إلى أن تقبل به أغلب القارات.

يمكن أن يكون استقبال من دون تأثير، وتأثير من دون استقبال. كان ريشار شروان Richard E.Sherwin إسرائيليا ويكتب بالانجليزية. وعند قراءته لبعض القصائد المترجمة من اليابانية، استعار (استقبل) من هذا الشعر عناصر هامة ليوظفها في فنّه؛ ولكن من الصعب جدا أن نتكلم عن تأثير ياباني في أعماله، إلاّ إذا اعتبرنا ذلك الرواج الحالي لما يأتي من اليابان. وإن أبسط تفسير وأكثره إقناعا هو الاستقبال. من جهة أخرى، يمكن أن توجد قوى كبرى ترغب في أن تكون إيديولوجيتها موضع تقدير وأن يُعترف بقيمتها. لكنّ الواقعية الاشتراكية، رغم ما فعله الاتحاد السوفييتي، أصبح يُتخلى عنها في أوّل فرصة سانحة وأينما كان ذلك ممكنا. ومهما فعلت الولايات المتحدة، فإن ثقافتها الجادة تُتجاهل لصالح ثقافتها الترفيهية. وطيلة ذلك الوقت، ظلت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للرابطة الدولية للأدب المقارن، رغم أن الانجليزية، كما يظهر، قد أصبحت الأكثر أهمية والأكثر مألوفية لدى الأجانب.

تسمح لنا الدراسات الثقافية البينية المقارنة أيضا بتوفير سياق أفضل لبعض الأفكار الرائجة، مثل "هاجس التأثير". إن شبكة التحليل النفسي هي واحدة من تلك المنتوجات الثقافية التي يصعب تصديرها، مثل الفكرة الصينية التي ترى أن الصور يجب أن ترفق بأشعار. وفي آسيا الشرقية، كما في بلاد الإسلام، وإن لأسباب أخرى، يوجد ما يمكن أن نسميه بالهاجس المتمثّل في الخوف من عدم التأثر، سواء بالأسلاف أو بالقرآن. وكان الصينيون يعتبرون أن الشعر الحقيقي، والفن الحقيقي، يتطلب وجود لغة مسبقة، أي ليس معجما وقائمة أسماء فحسب، بل معيارا متفقا عليه يجب تجسيده في عمل جديد يسمح باختباره من جديد وإلى الأبد. وقد اعتبرت المختارات المَلكيّة من الأشعار اليابانية هي لغة الشعر الحقيقي من قِبل أجيال من الكتّاب اللاحقين. [...]

يشكل "هاجس التأثير" هذا، الذي يبدو أنه ظاهرة عالمية، موضع تنافس بين متعاصرين. لقد تمّ الإحساس بـــ "وقع الماضي" منذ الرومنتيكيين الغربيين، ولكن ناقدا من عصرهم و هو "هازلت" Hazlitt، لاحظ أنّه زار أكثر من مرّة الشعراء المعاصرين ليعرف ما يمكن قوله بخصوص من سبقوهم، لكن دون جدوى: «لا أستطيع أن أقول بأني قد تعلّمت الشيء الكثير من هؤلاء المرشدين في مجال الحرفة عن "شكسبير" أو "ملتون"، "سبنسر" أو "تشوسر" لأنهم لم يكونوا يحدّثوني كثيرا عنهم؛ كان حديثهم يدور خاصة حول أنفسهم وحول أشباههم (هازلت 1914) » . إن النموذج الفرويدي لا ينطبق على هذه الحالة، بل الذي ينطبق عليها هو نموذج الصراع بين الأبناء و البنات.

والرغبة في الجديد هي أيضا ظاهرة عالمية بالدرجة نفسها؛ الرغبة في الجديد أو ما يبدو هكذا. ذلك أنه يتكشّف أغلب الأحيان باعتباره تقليدا من تقاليد أخرى. وإن إحدى الوسائل الأساسية للتجديد، في آسيا الشرقية، يتمثل في ادّعاء العودة إلى الأسس، كما كان يفعل ذلك المصلحون البروتستان. وهكذا، فقد أدخل "يان يو" Yan Yu وآخرون تغييرات أسلوبية بممارسة ما كانوا يسمّونه الكتابة القديمة gurwen . وبالمقابل، فإن التجديدات التي استقبلت استقبالا حارا في الفترة الأخيرة في الغرب هي من قبيل المألوف الذي قدّم في ثوب جديد. هذه هي العوامل التي تحدد طبيعة التأثير والاستقبال: العمليات الأساسية التي تجري في دماغنا، وبعض الاختلافات الثقافية وواقع السلطة والشهرة. إن الشهادات الثقافية البينية لا تلقي الضوء على هذه الوقائع بصورة أفضل فحسب، بل إنها تمنعنا من الظن بأن الاتجاهات الحاصلة عن طريق الصدفة في ثقافتنا هي اتجاهات كونية.

الأجناس: حجر الزاوية للخصوصيات الثقافية

إن الدراسات الثقافية البينية تلقي الضوء أيضا [...] على الصعوبات التي تنطوي عليها مصطلحاتنا بخصوص مسائل متنوعة مثل القوانين (Canons) والتحقيب والأجناس الأدبية. ونظرا لكونها مواضيع معقّدة، فإننا سنكتفي بالحديث هنا عن الأخير (الأجناس الأدبية) باعتباره نموذجا تمثيليا يعطي فكرة عن المشاكل الكثيرة الأخرى، ويهيئ للنقاش الذي سيَلي. إن قضايا الأجناس الأدبية تسترعي اهتمامنا في الدراسات الثقافية البينية لأن الكلمات يجب أن تُستخدم بحيث تستبعد الافتراضات المزعجة. فكثيرا ما تطلق الكلمة نفسها على ممارسات أدبية مختلفة، حتى داخل الثقافة نفسها.. وهكذا تطلق الكلمة Roman في الألمانية والفرنسية على ما يسمّى في الإنجليزية Novel ، وهي الكلمة المشتقة من الإيطالية [...]. ولا أحد يفكر في وجود علاقات بين الرواية (Roman) الفرنسية الحديثة والقصائد القروسطيّة التي توضع كلمة roman في عنوانها، كما أن روايات (Novels) "هنري جيمس" لا تشبه الـــ novelle التي كتبها "بوكاشيو" Boccace .

و تطلق على النثر السردي الياباني أسماء كثيرة، من بين أهمّها الـــ "مونوڤاتاري" monogatari، وهو ما يعني "من يروي أشياء" أو "رواية". وفي فترة قريبة، أُطلق على بعض الأقاصيص اسم "شوستسو" shōsetsu ،

وهو اقتباس ياباني لكلمة "هسياو-شاوو" hsiao-shao في النطق الصيني-الياباني. و يجسّد الـــ "كسياو-شيو" Xiao-shuo العديد من الروائع مثل: "الرحلة إلى الغرب" و"حلم الغرفة الحمراء (أو حكاية الحجر)" و"رواية الممالك الثلاث" الخ. تحتوي هذه الأعمال، في أحسن الأحوال، على عشرين فصلا. ويتمثل السبب في تسمية أعمال بهذا الحجم "أحاديث صغيرة" hsiao-shuo في الاعتراف البطيء للنقد بأهميتها. لقد حظيت الــ "مونوڤـــاتاري" اليابانية، وهذا على الأقل منذ ظهور "حكاية ڤـــنجي" (الــڤـــنجي مونوڤـــاتاري)، بقبول النقد و لم تعد تسمّى "ثرثرة" shōsetsu . وعلى العكس، فقد بدا أنّ هذا الاسم أنسب لوصف ذلك النوع من السرد النثري الذي ظهر في اليابان، في فترة لاحقة، ردّا على رواية القرن الــ XIX الغربية. وقد حذا الصينيون حذو اليابانيين. وبسبب العادات والتداعيات، فإن النقاشات الدّائرة باللغة الإنجليزية تتحدث أغلب الأحيان عن "الرواية اليابانية الحديثة" أو "الرواية الكلاسيكية الصينية". في الحالة الأولى، لا توجد رواية كلاسيكية يابانية لأن الأسماء الأقدم مثل " مونوڤـــاتاري" قد صمدت. أما بخصوص الصين، فإن الكلمة يستعاد استعمالها من قِبل جامعيين غربيين يرتكزون إلى مفهوم حديث عن الرواية بصدد أعمال كتبت في استقلال تام عن الرواية الغربية. وباختصار، سواء تعلّق الأمر بــ "رحلة إلى الغرب" (القرن XVII أم عمل "ناتسوم سوزيكي" Natsum Sōseki الموسوم بـــ: "أنا قط" (القرن X)، فإن هناك نزعة لإقحام بعض الأفكار المستخلصة من الرواية الغربية. و لكنّ الأمر لا يتطلب قدرا كبيرا من التجربة لكي نكتشف بأن الأمثلة المذكورة لا تتطابق أبدا مع الممارسات الخاصة بالرواية الغربية، كما أن هذه الأخيرة أيضا لا تُحاكي تلك. لهذا السبب، يميل العديد من المختصين في أدب آسيا الشرقية إلى استعمال كلمات اللغات المعنية. لذا نسمع من يتحدث عن الــ "ڤـــونكي- مونوڤـــاتاري" gunki monogatari (مونوڤـــاتاري حول موضوعات عسكرية) أو عن الــ "شوساتسو الياباني العصري" في نسخة مزدوجة.قد يبدو هذا كله خصومةحول الكلمات، لكن الرهانات تُعدّ هامة أغلب الأحيان. إن رائعة الأدب الياباني "حكاية ڤـــنجي" هي " مونوڤـــاتاري"، كما رأينا. هل يعني هذا أنه يجب أن تكون لآداب أخرى " مونوڤـــاتاريات" هي قممها الأدبية؟ هل يعني هذا أنه يوجد في الواقع مقابلات أصيلة للــ " مونوڤـــاتاري" في أي أدب يمرّ بمرحلة ازدهار، أم أن ذلك لا يجب أن يكون؟ إن هذه الطريقة في طرح المسألة ليست طريقة كلاسيكية. وإن الأسماء الرائجة ترتدّ إلى "نزعة المركزية الأوروبية": لماذا لا توجد تراجيديات و ملاحم في الصين أو اليابان (مثلا)؟ هذا السؤال ينطوي طبعا على مسلّمات متخفية: وهي أنّ التراجيديا و الملحمة هما كيانان محدّدان بوضوح وأنهما ملكية غربية، أو أنّ الــ" مونوڤـــاتاري" هو ماهيّة يابانية.

تنحدر كلمة "التراجيديا" ، لأسباب لا يفهمها أحد، من اليونانية "تيس" (bouc) و"غناء" (chant). وقليلا ما يشار إلى أن أرسطو كان يعترف بوجود تراجيديات تنتهي نهايات سعيدة، أو أن الثلاثية الوحيدة الموجودة، "الأورست" (l'Orestie) تنتهي نهاية حافلة. في القرون الوسطى، التي لم تعرف الدراما إلاّ في مرحلتها الأخيرة، كانت التراجيديا دائما عبارة عن قصة ضربةٍ من القدر [...] وكانت التراجيديا الإنجليزية تتقبل الكوميديا ومشاهد العنف على المسرح؛ أما التراجيديا الفرنسية فلم تكن تقبل ذلك. وكانت تراجيديا "سينيك" Sénèque ، قبل ذلك بفترة طويلة، تحتوي بكلّ تأكيد على مشاهد عنف، ولكنّها كانت مكتوبة بطريقة وكأن الهزل لا وجود له. فأين في

كل هذا حدود "التراجيديا"؟ ما هي السّلطة التي تُستحضَر؟ أهم الإغريق الذين يمكن أن تنتهي تراجيدياتهم نهايات سعيدة؟ يحكي راهب "تشوسر" تراجيديات كثيرة من تراجيديات "كازيبوس" Casibus ، ابتداء من الإنجيل. وفي نهاية "ترولوس وكرسّيدا" Troilus et Cressida ، يرمق "ترويلوس" الأرض من أعالي السماء و يسخر من غرور العالم. ويعلق راوي "تشوسر" التعليق التالي: "امض أيها الكتيّب الصغير، امض، صغيرة ،يا تراجيديّتي".

إذا كانت هذه تراجيديات و ليست ماهية التراجيديا، فإنه يصبح من الصعب جدا استبعاد العديد من الأمثلة غير الغربية، سواء تعلّق الأمر بأعمال درامية أم لا. وإنه لمن الصعب إجراء البرهنة نفسها بالقوة نفسها بخصوص أجناس غير غربية، موجهة لقراء لا يعرفونها. و لكن لا شيء يمنعنا من المحاولة. لنفرض أن مجموعة تقرّر بأنه لا يمكن أن توجد " مونوڤــاتاريات" غربية. ولكن ما هي "المونوڤــاتاريات" (وليس "المونوڤــاتاري") ؟ إن بعضها يحمل اسم "مونوڤــاتاري البلاط" (Ōchō monogatari) ومن بينها هناك الـــ " مونوڤــاتاريات القديمة (mukashi monogatari) ، وهي أعمال ظهرت سابقة على "حكاية ڤــنجي". هناك أيضا الـــ" مونوڤــاتاريات المحاكية" (giko monogatari) التي جاءت تالية لـــ "حكاية ڤــنجي" واتخذتها نموذجا إلى حد ما. هناك تمييزات أخرى تأخذ بعين الاعتبار الطول: طويل، متوسط و قصير؛ بينما تأخذ أخرى بعين الاعتبار التميّز، مثل التنويعات العسكرية التي أشرنا إليها سابقا؛ ويمكن أن نضيف إليها الآن تلك التي تتمركز حول قصائد (utamonogatari) والحكايات التقليدية الأقصر، والحكايات المَثلية البوذية (Setsuwa التي ترافق عنوانها كلمة " مونوڤــاتاري") و تنويعات أخرى قصيرة من نوع المحاكاة الساخرة. وفي نهاية المطاف، فإن هناك الكثير من الأعمال اليابانية التي تحمل مرّة عنوان " مونوڤــاتاري" أو مذكرة (mikki) أو مجموعة شعرية (shū).

يمكن أن نستخلص من كل هذا مجموعة من الاستنتاجات، وإن بعضا من النتائج تتطلب معاينتها في إطار أبواب أخرى. من الواضح إذن أن " مونوڤــاتاري" هي كلمة تُعيّن النثر السردي الذي يحتوي، في الكثير من التنويعات اليابانية، على أشعار غنائية: تحتوي " مونوڤــاتاري ڤــنجي" على ما يقارب أربعة آلاف بيت بقصائد كاملة، هذا دون ذكر العديد من القصائد القديمة باليابانية أو الصينية المذكورة أو التي تتمّ الإشارة. ويبدو أن حضور الشعر في النثر السردي هو سمة من سمات أدب آسيا الشرقية . غير أن النثر السردي يوجد في أغلب الآداب، بعد مراحل تطورها الأولى. إن النتيجة الأعم التي يمكن أن نستخلصها هي أن التسميات غائمة أغلب الأحيان. وأنها لا تتخطى بسهولة الحدود الثقافية حيث يقف لها بالمرصاد حراس الهجرة الأدبية.

يبدو من البديهي أن الدراسات الثقافية-البينية المقارنة لا يمكن أن تتسامح مع التأويلات المعيارية بخصوص كلمات مثل "تراجيديا" أو "مونوڤــاتاري" . ولا يتعلق الأمر بالمقارنة الثقافية- البينية فحسب. يجب علينا، كما برهن على ذلك "أ.لوفجوي" A.O.Lovejoy منذ مدّة طويلة، أن نفكر في الرومنتيكيات بصيغة الجمع، حتى لو تعلّق الأمر بسياق أوروبي محض، يستبعد أمريكا و كذلك أيضا مدارس أوروبا الشرقية والشرق الأدنى التي ألصقت بها تلك التسمية. إن مزية الدراسات الثقافية- البينية لا تكمن في أنها تحلّ هذه المسائل، بل لأنها

تبرزها. وإن قسما هاما ممّا يبدو سهلا، مألوفا ودون تعقيد في الدراسات الثقافية-البينية المقارنة إنما يتعلق بتنافرات غير معترف بها ولا يمكن الجمع بينها. وسنتعرض، فيما يلي، إلى صعوبات أخرى أكبر، ونقوم بمعاينتها بهدف الإشارة إلى أنها ليست مما يميّز الدراسات الثقافية-البينية فحسب، بل كذلك الدراسات الثقافية الداخلية، وأن الدراسات الثقافية-البينية هي وحدها التي يمكن أن تمنح الأمل بمعالجتها.

النّظم والمنهجة

في المرحلتين القادمتين من عملية المسح التي نقوم بها سنتناول إذن "الأدب المقارن" وستكون الأسئلة التي سنطرحها هي على التوالي: ما هو الأدب؟ وما هي المقارنة؟ في الحقل الأوروبي وحده لا يمكن تقديم تحديد دقيق، أو بالأحرى محصور في حدود معينة، ذلك أن الحدود تتّسع أو تضيق بحسب تغيّر التوصيفات وتحوّل المؤسسات وتدخّل اعتبارات معيارية. ان تكوّن أفكارنا الحالية حول تاريخ الأدب يعود إلى القرن الـــ XVIII (ويليك ، 1941) . فقد ظلت الـــ novill تعني، في انجلترا حتى نهاية القرن الـــ XVII ، قصة عاطفية أو قصيدة بطولية (واطسن في مؤلف درايدن، 1962) . يمكن أن نقبل بكون دراسة الأدب قد تتطور؛ أما تطور العبقري فهو أمر لا يمكن التنبؤ به. لكن، رغم ذلك، فإن أميرة الأدب النائمة ستجد عند سريرها العديد من المتنافسين الذين يزعم كل واحد أنه هو أميرها المخلّص. وبعبارة أخرى، فإن الموضوع تستحيل معالجته في إطار ثقافي داخلي، وإن أفضل ما يمكن قوله بهذا الصدد إنما يرتد إلى مؤسساتنا، مثل أقسام جامعة أو فروع معهد، مثل الجوائز المقدّمة وفضاءات العروض الخ. إن هذه المسائل تستحق معالجة أفضل من تلك التي خصصناها لها، ولكن أحدا لم يكن يفكّر بجدية في ابتكار "الكاردينال دي ريشليو" والأكاديمية الفرنسية وتركة "ألفريد نوبل" والجوائز باعتبارها وسائل لوضع القانون العالمي للأدب.

إن الدراسات الثقافية-البينية توفّر الإمكانية لفهم طبيعة النظم الأدبية (ماينير 1979). وإن أحد أول الاكتشافات التي نقوم بها تتمثل في كون التشابهات والاختلافات هي بمستوى الظواهر. إن مختلف آداب آسيا الشرقية، وآداب الإسلام أو آداب اللغة الإنجليزية يبدو أنها تنطوي على اختلافات كبيرة داخل المجموعة الضيقة نفسها التي تنتسب إليها كل واحدة ... وإذا قارنّا هذه المجموعات على أسس ثقافية-بينية، فسيظهر انسجام أكبر نسبيا وتبرز قضايا ما كان يمكن ملاحظتها في إطار المجموعة الضيقة. [...]

من الواضح أن الأدب يمكن أن يوجد قبل أن تتكون الأفكار المنهجية حول الأدب: لقد ظهر "هوميروس" قبل "أفلاطون" و"أرسطو". وإنّ شهادات الشعوب البدائية تبن أنّ ما نسميه أدبا كان يوجد في أذهانهم، ولكن بطريقة لا تميّزه من الدين والشعائر والتاريخ والعادات وأشكال الحياة الأخرى. إنّ أشعار "هوميروس" و"هيزيود" تتطابق والتحديد الذي يمكن أن يضعه أيّ واحد للأدب، ولكن عصرهما لم يكن يعرف أيّ شكل من أشكال التفكير النقدي الذي يسمح بوضع مفهوم منهجي عن الظاهرة الأدبية. وكانت أقرب التصورات هي تلك التي يحملها الإغريق عن ربّات الفنّ (هاريو Harriot، 1969). فهي تمثّل الأدب والفنون الجميلة. ولكن يوجد من بينها أيضا

"كليو" Clio الذي يمثل التاريخ و"يورانيا" Urania التي تمثل علم الفلك ؛ وكلاهما لا يدرجان ضمن الأجناس الأدبية في الغرب الحديث . ويمكن ،إذا ما اخترنا أن نولي للأدب أهمية أقل من تلك التي نوليها للفترة والطريقة التي حددت بها النظم الأدبية تاريخيا ، أن نأمل في الحصول على نتائج أفضل. وتتمثل أطروحتي في أن نظاما أدبيا يظهر عندما يقوم ناقد أو نقّاد ذوو اقتدار بتحديد الأدب تحديدا معياريا، أي باعتباره شكلا مثــمنا تــثمينا خاصا.

في الغرب، حصل هذا في الأكاديمية الأثينية عندما قام أرسطو بتحويل بل بقلب تعاليم أفلاطون، وحدّد الأدب انطلاقا من الدراما. (لقد ضاعت دراسته حول الكوميديا). يتميّز نظام أرسطو بأنّه يقوم على المحاكاة ويتضمن الفرضية الواقعية التي ترى أنّ العالم واقعي ويمكن معرفته في الوقت نفسه. من دون هذه الفرضية، ما كان يمكن لأي فكرة حول محاكاة العالم أن تصمد، كما يظهر ذلك في أدب اللامحاكاة الحديث الذي تمثل فكرة العبث أو اللاّمعنى المنطلق الذي ينطلق منه. كانت الأسس الثلاثة التي يُقرّها أرسطو هي العالم، والشاعر–المبدع والإنتاج الفنّي المُبدَع، والمحاكاة. لكنّه، رغم ذلك، يتحدّث عن الخوف والشفقة ويذكر مرّة التطهير (كاتارسيس). لكنه لم يتمكن من طرح الجمهور باعتباره الأساس (المبدئي) الرابع. وهذا يعني أنّه كان يوجد في اليونان تنافس بين الفلاسفة والبلاغيّين والشعراء حول من يستطيع التأثير في الجمهور، وعليه فهو يعدّ جمهورا واحدا غير متميّز بالنسبة لهذه الحالات الثلاث. وقد تلافى "هوراس" هذا الإهمال، فكان مؤلَّفه "الفن الشعري" يميّز بين المتعة والفائدة. ولم يكن وضع "هوراس" لشعرية شعورية أمرا مفاجئا، ذلك أنه كان يتحدث عن ممارسة شخصية لأجناس غنيّة بالمشاعر : أي غنائية [...]. هذه الإضافة أكملت النظام الغربي، وكان الجميع مع حلول النهضة يعرف أنّ غاية الأدب هما المتعة والفائدة (أو التعليم) و وسيلته المحاكاة.

يبدو هكذا أنّ المسألة سهلة، وقد وقع تبسيطها هنا من خلال تقديمها. وإن قدرا هاما من بساطتها إنما يعود إلى بداهتها، وهو ما يعني، بعبارة أخرى، كم هو طبيعي إن جرت الأمور على هذا النحو. لكن المسألة ليست طبيعية البتّة من وجهة نظر ثقافية–بينية، إلاّ إذا كان الأمر يتعلّق بالآلية الشكلية لمصدر نظام أدبي. وفي كل الثقافات الأخرى، التي يمكن بصددها جمع قدر من البراهين، فإن النّظام الأدبي قد ابتُــكِر انطلاقا من الغنائي عوض الدرامي؛ وفي شرق آسيا تنسب أيضا إلى النظام الأدبي بعض أنواع الكتابات التاريخية. في المقدّمة الكبيرة التي وُضعت لــ "كلاسيكيات الشّعر" (Shijing) ، وفي مقدّمتين (واحدة باليابانية والأخرى بالصينية) للمختارات الأولى (الكوكنشو Koskinshū)، نجد تحديدا للأدب بواسطة النموذج الغنائي. في الكلمات اليابانية نفسها هناك الــ "كوكورو" (القلب، الفكر، الروح) و الــ "كوتوبا" (الكلمات)؛ يمسّ "كوكورو" الشاعر شيء في الطبيعة أو الحياة الإنسانية فيعبّر الشاعر عن ذلك بواسطة الــ "كوتوبا". تؤثر هذه الــ "كوتوبا" في "كوكورو" القارئ وقد يدفعه هذا إلى أن يُعبّر هو بدوره. هذا النظام الانفعالي – التعبيري يتقاسم هو و المحاكاة الفرضية الواقعية الأولى، ذلك أن العالم لو لم يكن موجودا وجودا واقعيا، لما كان هناك من سبب يدعو إلى التأثر. لكن الشعرية الغنائية تختلف عن شعرية أرسطو في جوانب أخرى. لهذا، فإنها لم تكن في حاجة إلى الظهور المتأخر أو الأعوج

لهوراسٍ آخر ليضيف العنصر الناقص. فالعالم والشاعر والقارئ والتعبير المتقاسم (و ليس المحاكاة) هي عناصر حاضرة تماما.

والغريب أن كل النظم الأدبية في العالم، ما عدا واحدا، قد وُضعت على أساس غنائي أو، بالأحرى، إنه من الأغرب أنه لا يوجد إلاّ نظام واحد – المعيار الأوروبي المفترض- قائم على أساس الدراما ولا يوجد أيّ نظام قائم على أساس السرد. إن أقدم أدب موجود في العالم، الأدب السنسكريتي، هو أدب سردي، تماما مثل الأدب اليوناني الأقدم. لكن أقرب مثل منّا لنظام قائم على السرد هو الياباني. وهنا نكتشف ظاهرة فريدة من نوعها. بعد مرور أقلّ من قرن على مقدّمات "كوكنشو" (حوالي 905-920) ظهرت أعظم تحفة أدبية هي "حكاية قــنجي" (حوالي 1000-1012). لقد أثرى ظهورها الشعرية الانفعالية- التعبيرية الأساسية وجعلها أكثر تعقيدا. إننا نسجل كل تلك المقطوعات الغنائية في العمل، باعتبارها علامة. لكن بالمقابل، يوجد في فصل "ذباب النار" الدليل (على ذلك التعقيد) حيث وضع "موراساكي شيكيبو" Murasaki Shikibu في الحكاية شخصية واقعية لها علاقات قوية بالتاريخ – وهذا داخل نظام انفعالي-تعبيري.

يمكن أن نستنتج من هذه الملاحظات نتيجة أخرى: إن تصور وجود ثلاثة أنماط أدبية أساسية أو أجناس genres أو Gattungen ، وهي "أشكال الشعر الطبيعية" بتعبير جوته، هو أمر مبرّر. لكن الفضل يعود، في حقيقة الأمر، إلى "منترنو" Minturno في تمييز الأجناس الثلاثة. هذا التمييز لن ينتقل إلاّ رويدا نحو الشمال حيث كان "ميلتون" Milton هو أوّل من تكلم عن هذا التمييز في إنجلترا. وإنه لأمر طبيعي أنّ أيّ عمل ينطوي على قدر من التعقيد سيحمل آثارا أو ملامح من النمطين الآخرين غير الجنس الغالب في العمل؛ لكننا لن نستطيع التعرّف على امتزاج هذه المميّزات إذا لم نعترف بوجودها.

ويمكن لبحوث أخرى ذات طبيعة ثقافية- بينية أن تُوسع فهمنا بقدر كبير. ورغم أنّ أيّ شكل من أشكال المعرفة في الأدب المقارن هو مفيد لنا في حدّ ذاته، إلاّ أنّ المعلومات التي نجمعها بواسطة الأدوات الثقافية- البينية هي معلومات ثمينة جدّا، ذلك أنّها تمنحنا الفرصة لفهم الشروط التي تحكم معرفتنا؛ إنها تسمح لنا بتبيّن التمايزات الكبرى التي تحجبها عنّا التناقضات المحليّة.

انطلاقا من هذه اللمحة البسيطة التي يتمخض عنها هذا النقاش حول مصدر النظم الأدبية، يمكن أن نلاحظ بأن الدراسات الثقافية- البينية تمنحنا بصيصا من الأمل لفهم القضايا المعقّدة مثل وضع حقيقة الأدب والقيم الأدبية. وإنّنا لندرك، على أقل تقدير، بأن التعميمات المؤسسة على براهين ثقافية داخليّة فحسب هي تعميمات مشكوك شكّا في صحّتها. ولا يمكننا إلاّ أن نقدّر الحصافة التي تميّز بها "أريخ أورباخ" Erich Auerbach عندما جعل عنوان مؤلفه: "المحاكاة: تصوير الواقع في الأدب الغربي." *.

البحث عن معايير للمقارنيّة

هناك أمران غريبان جدّا في الكيفية التي يمارَس الأدب المقارن بها حاليا . الأمر الأول هو غياب المقارنة، كما تبيّن ذلك معاينة المقالات المنشورة خلال سنة في أيّ مجلّة من مجلاّت الأدب المقارن . الأمر الثاني هو غياب معايير يقوم عليها مبدأ المقارنية Comparabilité : على أيّ أساس نبني مقارنة ما بحيث نضمن صحّتها، وما هي القواعد التي تحكم العناصر المقدّمة لتبرير حصول مقارنة فعلا؟ من السهل تقديم أمثلة موضوعات مقارنية بامتياز: النزعة البيرونية في إيطاليا، "زولا" والفن، استقبال "ليسينغ" Lessing في إنجلترا، السياسة في أوساط الطليعيين، تطبيق السيميولوجيا السوسيرية على الأعمال الغنائية، هيدجر ومسألة الهرمنيوطيقا الخ. ولا تتمثل المسألة في كون هذه الموضوعات غير مجدية، بل فيما إذا كانت تدرس دراسة "مقارنة" بأي معنى من المعاني.

منذ سنوات، حصل أن قدّمت درسا موسوما بـــ : "مقدمة للأدب المقارن" . لم يكن يظهر أن هناك مشكلا ما لفهم ما هي المقدمة؛ وكانت لديّ فكرة عن بعض الطرق لاقتراح ما يمكن أن يكون مسعى لتحديد الأدب. لكن كلمة "المقارَن" استعصت عليّ. سألت عندها ما هي معايير المقارنة الصحيحة، ما هي قوانين مبدأ المقارنية؟ لم يكن أحد من زملائي المباشرين يعرف ذلك. قال لي الفلاسفة بأنهم لم يدرسوا المسألة، ولكن لا بدّ أنّ واحدا قد وظّف أطروحات "توماس كون" Thomas Kuhn حول مقارنة الدراسات العلمية في حقب مختلفة . هل أنّ نموذج التغيير يمثل القاعدة التي تقوم عليها المقارنة؟ لم يكونوا يعرفون شيئا عن ذلك . ردّ المختصون في العلوم الاجتماعية بابتسامة يصحبها نوع من الاستخفاف، قائلين إنّ المقارنة شائعة في اختصاصهم. من الذي يثير إذن النقاش حول قوانين مبدأ المقارنية؟ بعد فترة من الصمت، أُشيرَ إلى فصل لـــ "دوركايم" ثم فصل آخر لـــ "فيبر" Weber . عدت إلى هذين الفصلين وفصول أخرى، ولكنّي عدت بخفيّ حنين. بعد سنة أو سنتين، وقعت على الغربي فحسب (تعليق ع.ب).

دراسة لعالم الاجتماع "موريس زلديتش" Moris Zelditch تحمل عنوان: "مقارنات معقولة" (زلديتش 1971)؛ يقوم "زلديتش"، بعد تقديم عدد من الأمثلة النقدية بصدد ما يجري في علم الاجتماع المقارن [...]، بتكييف عناصر من منطق "جون ستيوارت مل"، بطريقة لا تجعلها قابلة للفهم فحسب، بل تمنحها لأول مرّة معنى نظريا. لكن "جون ستيوارت مل" لا يتمكن، مع الأسف، من الذهاب إلى أبعد من متغيّرين (deux variables) . ورغم أنّي أعتبر نظريته مفيدة جدّا، إلاّ أنّ فائدتها تتوقّف عند النقطة التي يمكن أن تصبح قابلة للتوظيف من قِبل الباحث الأدبي.

هناك بالفعل أنماط من الدراسات المقارنة التي تنطوي على المقارنة إلى هذا الحدّ أو ذاك. هناك مثلا دراسات حول زنا المحارم في أعمال أكثر من كاتب، ودراسات حول البطولة أو البطل المضاد في أعمال مسرحية و روائية وحول الرومنتيكية و"المودرنيزم" والسيريالية وما بعد الحداثة في أعمال الكتّاب من بلدان

عديدة. أي أنّ مثل هذه الدراسات ترتكز على فكرة رائجة ضمنا مفادها أنّه يمكن مقارنة الواقعية أو السريالية في أعمال كُتّاب، لنقل فرنسيين وألمان وإنجليز. ولكن مرّة أخرى: ما هي قوانين ومعايير مبدأ المقارنية؟ أن يكون الكتاب متعاصرين؟ أن تضمن الحركة نوعا من الانسجام القابل للإدراك؟ أن يكون الكتاب الألمان و الإنجليز قد قرأوا ما كتب الفرنسي؟ يمكن دون حاجة إلى التفكير العميق أن ندرك بأنّ أيّا من هذه الشروط لا يؤسس مبدأ المقارنية، سواء أخذنا كل شرط على حدة أم الشروط كلّها معا. يمكن لنتائج الدراسة أن تكون مهمّة أو ثمينة، بل مصبوغة بصبغة المقارنة بالمعنى الصحيح. لكن منطق مبدأ المقارنية سيتم السكوت عنه، ولن تتم المقارنة الحقيقية إلاّ مصادفة. [...]

يمكن للمقارنات المنجزة أن تكون مبدئيا منقوصة من طريقة، ولكن يبدو لي أنّ وجهة النظر الجارية صحيحة. إن المقارنات تكون أكثر إثارة عندما تكون هناك اختلافات حقيقية: كتابات في لغتين أو ثلاث لغات؛ تفاوت كرونولوجي (قرن أو أكثر) أو اختلاف نوعي، مثل ذلك الذي يوجد بين الحيوية المفرطة و الفوضى التي تُميز الدراما الإليزابيتية من ناحية وكلاسيكية كورناي وراسين من ناحية أخرى. إن هذا المبدأ الذي يرتكز إلى قاعدة واسعة يمكن مدّه ليشمل مجالات أوسع: إن فائدة المقارنة الثقافية–البينية أكثر إثارة. وإن صحة التعميمات تكون أكبر إذا استنبطت الأدلة من الكوني عوض المحلّي. إنه لأمر مخيب للآمال أن القليل من الدراسات التي يقوم بها المقارنون هي دراسات "مقارِنة" حقا. كما أنه من الفاضح أننا لم ندرس قواعد المقارنة منذ بدايات ظهور الاختصاص. وإنه لأمر جوهري، من الآن فصاعدا، أن يمتلك الذين يقومون بدراسات ثقافية– بينية مقارنة مبادئ المقارنية. إن المسائل المهمة حقا في الدراسة الثقافية– البينية – وهي أهم المسائل في الأدب المقارن– لا تقوم على أي من التبريرات الوهمية التي تقوم عليها المقارنة التي تُميّز العديد من الدراسات المقارنة الجارية. إننا نستطيع بالتأكيد مقارنة كاتب إنجليزي بكاتب صيني عاشا في القرن الـــ XVIII يكتبان النثر، وكانت حياة و مصير معاصريهما تشغلهما. لكن أيّا من الشروط المذكورة، سواء أخذناها واحدة أم مجتمعة، لا تُمثّل قاعدة كافية للمقارنة. إنّ أيّ دراسة تتطلب معطيات، وأدلة (مستندات أدلةِ) وأطروحة وطريقة تسمح بالتأكد من الأطروحة بواسطة أدلّة. ليس من حاجة لمعالجة هذه المسائل معالجة آلية، ولكن هناك شروطا يجب احترامها. إن الرتابة والتخمة يسبّبها نوعان من المقارنات الثقافية – البينية، مثل موضوع: "توفو" Tu Fu و"وردسوورث" Wordsworth باعتبارهما من شعراء الطبيعة. هذا الموضوع، إذا تناولته يد ماهرة، يشدّ انتباهنا وسنسوّد عديد الأوراق. ولكن لا بدّ من بصيرة نافذة نادرة الوجود للإمساك بالهامِّ ، أي ما يُقارن بطريقة صحيحة.

القيمة الخاصة التي تنطوي عليها الدراسات الثقافية البينية :

غرابة الآخرتفضي الى اكتشاف روابط عميقة

يبدو لي أنّ هناك ثلاث طرق لاستعمال المقارنة الثقافية- البينية؛ هذه الطرق الثلاث تستتبع، على نحو خاص ،مقارنات صالحة. تتمثل ميزة الطريقة الأولى،التي أقترح تسميتها "برهان الأجنبي "، في استعمال بعض البراهين المستمدّة من ثقافة، وذلك من أجل إبراز ظواهر أقلّ مألوفيّة في ثقافة أخرى، حيث تكون الثقافة الأولى هي العنصر المختبِر والثقافة الثانية هي العنصر محلّ الاختبار والإضاءة . وبحصر المعنى، فإنّ البرهان بالأجنبي يستعمل مع العلم بأنّ العناصر المختبِرة والمختبَرة هي عناصر شبيهة، لكنها ليست قابلة للمقارنة بإطلاق- إنّ الاستعمال المراقَب للاختلاف الأساسي مع أصغر التشابهات هو الذي يلقي الضوء على ما وُضِع موضِع الاختبار ويسوّغ المقارنة. ونقدّم مثلين لتجسيد المسألة. يمكن لمنظوماتِ (suites) سونيتات النهضة أن تكون موضوع دراسة مقارنة، وذلك بربط "بترارك" Petrarque بعلاقة مع واحد أو أكثر من الذين جاؤوا بعده من غير الايطاليّين. وسيتمّ إبراز الخصائص المشتركة والاختلافات المميّزة وذلك باختبار منظومة السّونيتة بواسطة الشعر الياباني الموصول (lié) ("رنغا" renga ، "هايكاي" haikai) . إنّ منظومات السونيتات والأشعار الموصولة هي عبارة عن متواليات مقاطع شبيهة بوحدات مستقلة وجزء لا يتجزأ من المنظومة الكلّيّة في الوقت نفسه. غير أن الشعر الموصول يتكوّن عادة من دورة يتعاقب فيها ثلاثة أو أربعة شعراء وفق مخطّط، في إطار مقطع ذي طول محدّد بصورة مسبقة. ويقوم الشعر الموصول على مبدأ أساسي لا توجد بموجبه علاقة دلاليّة بين المقاطع إلاّ كونها تأتي بعد مقطع سابق (وهناك بالطبع مقطع لاحق لها)، بحيث لا يكون المقطع الأول مرتبطا إلاّ بالمقطع اللاّحق و لا يكون المقطع الأخير مرتبطا إلاّ بالمقطع السّابق.

فالمقطع الثاني على سبيل المثال يقتبس معنى المقطع الأول، والثالث يقتبس معنى الثاني وهكذا دواليك، بشكل منتظم، لكنّ المقطع الثاني ليس مرتبطا بالمقطع الرابع ولا بأيّ مقطع ما عدا علاقاته بالمقطع السابق واللاحق . ويبيّن الاختبار بواسطة الأجنبي أنّ العقدة هي عنصر مميّز للتعاقب الممثّل في السونيتة، في حين أن غياب العقدة هو ما يُميّز المقطع في الشعر الموصول، وأنّ تكامل مجمل المنظومة هو أكثر أهمية في الشعر الموصول منه في الممارسة البترازكية حيث تحظى السونيتات الفردية بأهمية نسبيّة. ولا يبقى لنا، في آخر المطاف، إلاّ مسألة العلاقة بين الغنائي والسردي. هل أنّ الشعر الموصول، الذي لا يحتوي إلاّ على عقدة دنيا (في مقطع ما)، هو سردي بالنظر إلى نظام التتابع فيه؟ هل إنّ العقدة ضرورية للحكاية؟ [...] و لماذا نتحدّث عن منظومات السونيتات وليس عن السونيتات السرديّة؟ [...]

يمكن لأجناس مختلفة أن تكون لها وظائف متماثلة

يمكن اقتراح طريقة أخرى للمقارنة الثقافية- البينية تتعلق بالوظائف. لنفرض أننا نتصدّى لدراسة الملاحم الصينيّة ونكتشف أنه لا توجد أي ملحمة تتطابق ومعاييرنا المعتادة. يمكن عندئذ أن نتساءل ما هي وظائف الملحمة. إذا اعتبرنا أنها تتضمن تمجيد ماض عظيم، وتحتفي بالذروة التي بلغتها أمّة أو مجموعة داخل الأمة، وشخصيات أضخم من الشخصيات العاديّة، وشعور بالسموّ، فإننا عندها يمكن أن نعتبر الكتابات التاريخية الصينية معادلة للملاحم الغربية. ويجب أن نتذكر بأن الأجناس التاريخية في الصين توضع إلى جانب الأجناس الغنائية ضمن المجموعة الأساسية للفنون الأدبية (ونْ Wen). وهكذا ندرك دون عناء المخاطر التي ينطوي عليها مثل هذا النهج، لكن يمكن أيضا أن نتصوّر أنّ باحثا حصيفا يتمتع بمعرفة صلبة سيستطيع إلقاء الضوء على العديد من المسائل باعتماد هذا النهج المقارني. [...] ويمكن أن نقول الشيء نفسه بخصوص الغياب الظاهري للهجاء والمديح في الأدب الياباني (رغم أنّ الأدبين الكوري والصيني ثريّان بالمديح)، أي أنّ وظائف المديح يمكن أن تلحق بالطريقة التي يُقدم بها الأدب في المجتمع الراقي عوض موضوعات المديح.

القرابات الشكلية: نتائج بلا سبب أو علامات على وجود كليّات؟

الطريقة الثالثة هي التي وجدتها الأنجع. وأريد أن أعترف بأنها من حيث المبدأ في غاية السهولة. وتتمثل في اختيار موضوع يتمثل في ظاهرة أدبية أو ممارسة متماثلة في أكثر من ثقافة. والمثل الذي استخدمه هو مثل المختارات. توجد في العالم كلّه مختارات توضع بدافع الحفاظ على مادة وتثمينها وذلك بتقديمها في شكل نسخة قابلة للإدراك توضع بالاعتماد على مبادئ تنسيق وتمثيل لبقية المادّة الأدبية. هذه المعايير تفترض تطابقا شكليّا. لكنّنا في الواقع لا نجد تطابقا بل تماثلا وتناسبا، وأحيانا اختلافات لافتة تكشف عنها فرضية التطابق العامة ("ماينر" 1985).

استُخدم المبدأ نفسه في النقاش حول مسألة انبثاق و تطوّر المفاهيم الأدبية. كان التطابق الشكلي الذي اعتُمِد هو مصدر نظام شعري عندما التقى نقّاد موهوبون بالأجناس التي كانت تحظى بأكبر تقدير وقتها في عديد الثقافات. إن اعتبار هذا التطابق الشكلي يجب، بالطبع، ألاّ ينسينا تنوّع الثقافات وعلى الأقل التنوّع الموجود بين الثقافة الغربية والثقافات الأخرى. لكن التنوّع هو، في حقيقة الأمر، الاختلاف المتحقّق داخل مجموعة من العناصر القابلة حقا للمقارنة. ونحن لا نستطيع أن نقارن ما هو متطابق تمام التطابق.

يبيّن المثلان المذكوران أنّ الاتصال الأدبي في عملية التأثير- الاستقبال ليس ضروريا في الدراسات المقارِنة. ذاك هو بالتأكيد الأمر بالنسبة للدراسات الثقافية- البينية السابقة على الفترة الحديثة. وهو ليس ضروريا بحصر المعنى بالنسبة للدراسات الثقافية- البينية، لكن هناك فائدة تُجنى من الدراسة الثقافية- البينية. ففي حالة ما إذا كانت كلّ من فرنسا وألمانيا فقط هما المعنيّتان؛ وفي حالة ما إذا كان الاتصال الأدبي حاصل افتراضا، فإن التساؤل حول ما يبرّر المقارنة يصبح ضئيل القيمة، من جهة أخرى، فإن القضايا التي تعالجها المقارنة الحقيقية

هي الأكثر فائدة. إن كلّ نظرية أدبيّة تستند إلى الفكرة الضمنية التي ترى أن التعميمات تكون صالحة "كونيا". هذه الفرضية لا تصح إلاّ إذا تمّت البرهنة عليها بواسطة المقارنة الثقافية-البينية. وفي آخر المطاف، فإن نوع المقارنة التي تتم معالجتها هنا تتعلّق في الوقت نفسه بالدراسة "التيبولوجية" والدراسة التاريخية. وإن الإمكانيتين الأخريين ممثلتين في الشعرية الانفعالية-التعبيرية و المحاكاة هنا تيبولوجيتان من حيث هما نظامان، وتاريخيتان بالنظر إلى مصدرهما وتطوّرهما. إن طريقة تعجز على التركيب بين النسقي والتاريخي، باعتبارهما متكاملين و يفحصان بعضهما بعضا، هي طريقة لا تنطوي على فائدة كبيرة ؛ وإن طريقة تركّب بينهما هي، على أقل تقدير، "خليقة" بأن تصبح نظرية قويّة .

هل يفضّل الغرب المحاكاة و الشرق التعبيرية؟

تثير الدراسات الثقافية- البينية مسألة أخيرة ليس من السهل حلّها. إنّ غَربيّا ، كَــيَّــفَتْهُ المعتقدات الغربية بصورة جليّة وخفيّة في الوقت نفسه إلى درجة أنها لا تلفت الأنظار، لن يتصدّى للأعمال المكتوبة انطلاقا من شعرية انفعالية- تعبيرية إلاّ وفق روح تختلف عن تلك الروح التي تحرّك الآداب اللاّغربيّة. والعكس صحيح أيضا. إنّ مَن أَلِــفَ الشعريّة الانفعالية- التعبيرية لا يمكن إلاّ أن يستغرب الميل الغربي إلى تفضيل "المنتوج" القائم على أساس المحاكاة؛ وبالمقابل، فإن "المحاكاة" و"العمل" و"الأثر الأدبي" و"القطعة الفنيّة" ومؤخرا "النص" تفتن الغربيين. وفي فترة وجيزة، تمّ التأكيد على أنّ الأثر الأدبي يحمل غايته في ذاته، وأن الاهتمام بالمؤلف من ناحية، والقارئ من ناحية أخرى يؤدي إلى أخطاء نقدية، ممثّلة في النقد التكويني والنقد الشعوري. وقد أثيرت مؤخرا مسألة اعتبار (أو لااعتبار) مقصد المؤلّف أو الاستقبال الشعوري.[...] إن المتعوّد على الأطروحات المحاكاتية لا يمكن إلاّ أن يستغرب اهتمامات أنصار الانفعالية-التعبيرية سواء فيما يتعلق بالمؤلف أم القارئ. يوجد في النّظم الانفعالية-التعبيرية اتجاه منطقي إلى المطابقة بين الشاعر ومن ينشئ الغنائي، إلاّ إذا كانت هناك براهين مباشرة تدلّ على العكس، وإنّ ما يمكن أن نسميه نحن "الإبداع السردي" يطلق عليه باليابانيّة اسم "ساكوشا نو كوتوبا" Sakusha no Kotoba (أقوال المؤلف). ولسبب أو لآخر تربط الانجليزية المتداولةُ التخيــيلَ بالحكي وخاصة بالرواية. والواقع أن الجنس الوحيد الذي يكون تخييليا بالضرورة هو الدراما. [...] إنّ الكاتب المسرحي لا يكتب عن الآخرين فحسب، بل يجب أيضا أن يكتم هويّته الشخصية في المسرحية. و من جهة أخرى، فإن الهواية، في أفضل معانيها، هي ما ثمّنه الصينيّون أكثر من غيره، بحيث أن الجمهور والمؤلّف يمكن أن يتبادلا الأدوار فيأخذ الجمهور مكان الشاعر والعكس بالعكس [...]. لا أحد يعلم كم من مثال نــتوفر عليه حيث يردّ شاعر صيني ثان على شاعر صيني أوّل باعتماد الأبيات التي أرسلها إليه الشاعر الأول. [...] و يثمّن اليابانيون التلقائية أكثر من أيّ شعب آخر، على ما يبدو. وإنّ أحد أسباب الإيجاز في النقد الصيني يعود إلى الفكرة التي ترى أنه من سوء الأدب، عند مخاطبة الأصدقاء، أن نطيل الحديث. لذا فإن إيجازا باهرا يُعدّ أفضل من صياغة دقيقة متأنية.

جهل الآخر يضرّ بعملية التنظير الثقافي-البيني

يمكن أن نطوّر ما قلنا، و لكن انحياز مقولاتنا العامّة واضح. بل يمكن أن ندفع إلى الظنّ بأنّ الأمثلة التي قدّمت أمثلة لها جاذبية البراءة ... ولا شك أنّ هناك انحيازات أخرى أقلّ براءة. وإنّ أغلب الدراسات المقارنة الغربية لا تولي اهتماما بغير الأدب الغربي في ممارساتها المؤسّساتية؛ فهذا الأدب لا يوجد، وإن وُجد فلا قيمة له. وهو ليس أدبا حقّا. هذا الموقف هو إرث إمبريالي فاسد؛ ولقد هوجم هجوما عنيفا تحت مسمّى "الاستشراق" (إدوار سعيد، 1978). ورغم أنّ الاتهامات ليست مؤسسة كلّها وأنّ بعضها مبالغ فيه، إلاّ أنه من الواضح أنّ أوروبا قد اقترفت في الوقت نفسه خطأ الإهمال والاهتمام السيئ النيّة بثقافات الشرق الأوسط. فقد استبعدت أوروبا هذه الثقافات بحجّة أنها لا تستحق الاهتمام أو كوّنت صورة عن "الشرقي" فرضتها الإمبريالية حتى على الثقافة الأجنبية.[...] ونجد شيئا شبيها في القارة الأمريكية حيث يمكن، إلى حدّ ما، اعتبار أمريكا الوسطى الجنوبية هي شرق أوسط أمريكا الشمالية.

واليابانيون والصينيون ليسوا أبرياء هم أيضا. لقد ردّت اليابان منذ مدّة طويلة على الصين القاريّة، المعادية للأجانب والمتعجرفة، بتأكيد وحدة ثقافتها وقيمتها، وهو ما نسمعه كثيرا اليوم. وخلال النصف الأوّل من القرن العشرين، سعت اليابان إلى فرض "الطابع الياباني" باسم "مجال الرفاه المشترك في الشرق الأقصى" للتصدّي للإمبريالية الغربية. هذه المرحلة المؤلمة لا زالت مركوزة في الذاكرة على امتداد شرق وجنوب- شرق آسيا. وليس هناك أيضا ما يدعو للغبطة بخصوص الطريقة التي يُعامِل بها ورثةُ المسيحية إسلامَ اليوم – بما في ذلك من إهمال متطيّر.

هناك علامات تدلّ على حدوث تغيّر. لقد أوصى زملاء أكبر منّا سنّا، مثل "هورست فرنز" Horst Frenz و"روني إتيامبل" René Etiemble ، وتقاسما رؤى أوسع. وما كان يمكن، قبل عشرين سنة، لعمل مثل هذا أن يحتوي على قسم مخصّص للدراسات الثقافية- البينية المقارنة. وقد شرعت بعض أقسام الأدب المقارن في توظيف اختصاصيين في آداب غير أوروبية. لكن الآداب غير الغربيّة المدرّسة هي، مع الأسف ، الصينية واليابانية فحسب. علاوة على ذلك، وإلى فترة غير بعيدة ، كان يوجد اتجاه يميل إلى حصر الدراسات المقارنة غير الغربية في "غيتو" (Ghetto) يسمّى العلاقات الأدبية شرق-غرب. [...]

إن مساواة فكريّة حقيقية لا يمكن أن تتحقّق إلاّ عندما يكون من الطبيعي بالنسبة لاختصاصي في الآداب الهندية أن يقدّم درسا نظريّا في جامعاتنا، أو عندما تستند الحصص المخصّصة للسرديات إلى الفرضية التي ترى أنّ أي قرار في هذا الشأن سيكون غير مبرّر إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار "حكاية ڤـنجي" و"رحلة إلى الغرب" ...

هذا اليوم لن يجيء عن قريب. و قبل أن يجيء فإن هناك صعوبة معادلة يجب توقُّعها. إذا قبلنا بأن الأكثر استعدادا من بَيْننا هُمِ منحازون بفعل تنشئتهم وعوامل المثاقفة الأخرى، فكيف يمكن تجاوز الأفكار المسبقة دون التخلّي عن عدد من المعايير الضرورية؟ إن النسبية المطلقة، مثل الارتيابية المطلقة، تبدو تناقضا في الحدود. وإنّ

طرح المسألة ليس أسهل من حلّه. يريد البعض أن يجعلنا ننحاز لفكرة "أدب" لا قوميّة له. إنها فكرة طوباوية؛ ذلك أنّ ما يمكن أن يكون الأدب هو مسألة ثقافية- بينية هامة تسعى الدراسات الثقافية الداخليّة إلى طمسها. إننا سنصل إلى أدب واحد معمّم ، إن استطعنا أن نصل إليه يوما ما، فقط بالعمل على آداب مختلفة والاعتماد على الأطروحة التي تعتبر أنّ الآداب بصيغة الجمع هي موضوع الدراسات المقارِنة.

يجب ألاّ نجعل المتنوّع واحدا

إننا نحمل معنا دائما في عملية القراءة أفكارنا المسبقة التي تحدّث عنها "هانس جورج غادامير" Hans–Georg Gadamer (1982). كان أمله في "دمج الأفاق" وجمع الذات الغربية بالموضوع الشرقي (أو العكس)، إلاّ أنّ ذلك يبدو أمرا غير واقعي. ولكن يمكننا أن نشتغل جدليّا بين آداب خضعت لتحليلات متنوعة في ثقافات مختلفة، وهو ما يسمح بوضع أفكارنا المسبقة موضع الاختبار عندما نلتقي بالوقائع الثقافية- البينية. وهكذا، فرغم أنّ الأعمال النثرية كانت موضع دراسة أغلب الأحيان، إلاّ أنّ النثر باعتباره إيقاعا مختلفا عن الشعر لم يُدرَس دراسة كافية. إن الحكايات التاريخية الإسلندية ("الساغا" Saga) والروايات القروسطية الإنجليزية يتجاور فيها أحيانا النثر مع الشعر. عندما نضع الحكايات التاريخية والروايات جنبا إلى جنب مع مجموع الأعمال الصينية التي تتراوح بين النثر الخالص والشعر أو المنظور إليها في ضوء الأعمال اليابانية المزدوجة (نثر شعر)، فإنها تبدو قادرة على إلقاء الضوء على المسألة. يجب أن نتذكر أيضا أنّ آداب آسيا الشرقية كانت تمزج القصة النثرية بالأعمال الغنائية ، وهذا منذ ظهور النُّظُم الشعرية.

الفراغات الموجودة في النظام العالمي تعوّضها الامتلاءات الموجودة في نظم أخرى

إن حضور ظواهر في الآداب أو غيابها غير المتوقع يمثل نقطة انطلاق جيدة للمقارنة الثقافية- البينية. ما هي، مثلا، أهمية الدراما في القرون الوسطى الغربية حتى مرحلة قريبة من نهايتها؟ توجد استثناءات بارزة أخرى. وهذه بعض الأمثلة: الطبيعية الهامشية للنثر في السنسكريتية وآثار الشرق الأوسط؛ غياب التأويل المجازي « allegoresis » (رغم حضور المجاز) في الأدب الياباني، على عكس الصين والغرب؛ هيمنة التآليف المكتوبة المخصّصة للقراءة (إضافة إلى الدراما) في اليابان، الامتزاج التام بين المقدّس والدنيوي في الأدب الهندي، [...] يمكن أن نعدّد الأمثلة إلى ما لانهاية؛ هذه الأمثلة تُشكّل نقاط قوّة المقارنية الثقافية- البينية (وحتى الثقافية الداخلية).

على صعيد الممارسة، يتمثل العائق الأساسي في طريق الدراسة الثقافية- البينية في الفكرة المسبقة المتمثلة في النزعة الإقليمية. وإذا كان أحد مشاكل المقارنيّة (comparatisme) الراهنة يتمثل في عدم المقارنة، فإن الدراسات الثقافية- البينية تجعل هذه الحاجة أكثر إلحاحا. وعن قريب سيتساءل اللاحقون لماذا لم نسع إلى حلّ هذه المشاكل و كيف تجرّأنا على الادّعاء بأننا مقارنون حقيقيّون مع أنّنا لم نتناول بالدرس مادّة ثقافية- بينية. وفي

ذلك الوقت، إذا صادف أن قرأ أحد هذه الدراسة، فإن الطابع البدائي، المتخلف والبالي للاختصاص سينتزع منه ابتسامة ساخرة. وإنه علينا فعل الكثير من أجل تسريع حلول هذه المرحلة لأسباب فكرية وكذا لِضمان الاستقامة الأخلاقية للأدب المقارن باعتباره علما إنسانيّا.

---

*ايرل ماينر (فيفري 1927 –أفريل 2004). أستاذ مبرز بجامعة "برينستون" Princeton. أستاذ الأدب المقارن والأدب الانجليزي والأدب الياباني. درّس الأدب الغربي والأدب الشرقي والأسس التي تقوم عليها المقارنة الثقافية البينية. كان رئيس الرابطة الدوليّة للأدب المقارن . حصل على العديد من الجوائز اعترافا بما قدمه في مجال دراسة الأدب الياباني.

**لم أجد مقابلا دقيقا لها في اللغة العربية فلجأت إلى التعريب.

* مقارِن من تشيكوسلوفاكيا لعب دورا هاما في بناء مفهوم للأدب المقارن يختلف عن ذلك الذي كان سائدا في الدراسات الأوروبية. مفهوم يلتقي مع ذلك الذي وضعه العالم الروسي "جيرمونسكي".

* تتمثل هذه الحصافة في كون "أريخ أورباخ" لم يدّع أنه يتحدّث عن تصوير الواقع في الأدب عموما بل في الأدب

نظرية التناصّ
الأصول، التّاريخ والنّظريّات

ناتالي بيغاي غروص   ترجمة/ عبد الحميد بورايو

إنّ رسم مسار التّطوّر التّاريخيّ للتّناصّ، يعني الكشف عن مفاهيم النّصّ وأشكال القراءات النّقديّة التي قام ضدّها. لأنّه إذا ما كان التّناصّ يشمل ممارسات على قدر ما هي قديمة تمثّل مكوّنا من مكوّنات الأدب، يدّعي أنّه يقيم قطيعة مع الفكر الأدبي "الموروث" وعن تقاليده. إنّ ميلاد مفهوم التّناصّ المقترح من طرف جوليا كريستيفا Julia Kristeva في نهاية السّتّينيّات كان بمعنى من المعاني مهيّأ له عن طريق النّظريّات الشّعريّة للشّكلانيّين الرّوس الذين أسهموا في إعادة التّركيز على النّصّ الأدبي في ذاته.

I . الشّكلانيّون الرّوس واستقلاليّة النّصّ الأدبيّ

في بداية القرن طالب فريق من المنظّرين الرّوس المنضوين في (جمعية لدراسة اللغة الشعريّة) أوبوياز Opaiaz بمراعاة خصوصيّة النّصّ الأدبيّ، فرفض شرحه عن طريق تقديم أسباب تاريخية، اجتماعيّة، نفسيّة... غريبة عنه. تتمثّل المسلّمة المنطلق منها في مثل هذه النظرية في الأدب (المسمّاة من طرف خصومهم "شكلانيّة") في أنّ (موضوع علم الأدب يجب أن يكون دراسة المميّزات الخاصّة للموضوعات الأدبيّة التي تميّزها عن كلّ مادّة أخرى، وهذا لا يتعارض مع كون أنّ هذه المادّة بملامحها الثّانويّة يمكنها أن تكون ذريعة وتمنح حقّا لتناولها في العلوم الأخرى باعتبارها موضوعا مساعدا) (ب.إيخنباوم B.Eikhenbaum، (نظريّة المنهج "الشّكليّ")، *نظريّة الأدب*، مجموع نصوص الشّكلانيين الروس، قدّمها وترجمها تزفيتان طودوروف Tzvetan Todorov، لوسوي Le Seuil، 1965). إنّها *الأدبيّة* التي هي موضوع هذه النّظريّة. بناء على ذلك،لا يمكن لتاريخ الأدب أن يفسّر عن

طريق الأسباب الخارج- أدبيّة ما يستدعي تجديد الأعمال الأدبيّة، التّخلّي عن بعض الأنواع أو ميلاد أشكال جديدة. إنّه بالعكس تكون حركيّة العلاقات التي تقوم بين الأعمال هي المحرّك لتطوّر النّصوص.

إذا كان العمل الفنّي يجب ألاّ يردّ إلى عناصر خارجة عن فاعليته الخاصة، حضوره في مجموع أو نسق أعمال على جانب كبير من الأهمّية. إنّ الفعاليّة الدّاخليّة للأشكال تسمح في الحقيقة بمراعاة تطوّر الأدب:

العمل الفنّي منظور إليه في علاقته بالأعمال الفنّيّة الأخرى وبمساعدة تداخلاته معها [...] ليس فقط المعارضة،لكنّ كلّ عمل فنّيّ أبدع بموازاة نموذج ما أو معارضة له. لا يظهر الشّكل الجديد ليعبّر عن مضمون جديد، لكن ليأخذ مكان الشّكل القديم الذي فقد طابعه الجماليّ.

شكلوفسكي Chklovski، ذكره إخمباوم Eikhenbaum.

هكذا، تلعب الرّوابط بين النّصوص – المحاكاة، الموقف من نموذج – دورا أساسيّا وتحلّ محلّ التّفسيرات النّفسيّة للتّأثّر مثلما هو الحال في ممارسة الإعارة، التي تعزى دائما للكاتب.

فإذا كان الوقت لم يحن بعد لطرح مسألة التّناصّ، فإنّ المكانة التي أعطيت للمعارضة السّاخرة في كتابات الشّكلانيّين الرّوس لا تستبعد تصوّره المسبق. صحيح أنّه بالمعنى الشديد الاتّساع، المعارضة السّاخرة تظهر وكأنّها البديل الغائب للمحاكاة ولتحوّل الأعمال. تعرّي المعارضة الساخرة في الحقيقة الطرق الميكانيكيّة لنوع أصبح مقعّدا: هذه الطّرق تنتهي بأن تفقد دلالتها الحيّة وتعوّض بأخرى. إنّ لأمر دالّ أن يقارن هذا التجديد للأشكال باستشهاد:

من أجل مقاومة أن تصبح الطّريقة ميكانيكيّة، يتمّ تجديدها بفضل وظيفة جديدة أو معنى جديد. يماثل تجديد الطّريقة استعمال الاستشهاد بكاتب قديم في سياق جديد وبدلالة جديدة.

ب.طوماشوفسكي B.Tomachevski، "موضوعاتيّة"، نظرية الأدب.

انبثاق الأنواع الأدبيّة ثمّ اختفاؤها ينتج إذن فقط عن استعادة لأشكال قديمة، معدّلة، يتمّ تفعيلها من جديد عن طريق استنباتها في سياق جديد: يتمّ التّموقع في صيرورة تكون أساسا داخل الأدب. فالعمل الذي يمثّل أحسن تمثيل، حسب الشّكلانيّين الرّوس، هذه الصّيرورة هو تريسترام صاندي Tristram Shandy لشتيرن Sterne. هذه الرواية، في الحقيقة، تجعل من المعارضة السّاخرة للطّرق الرّوائيّة نظاما، مقدّمة المنطق السّردي الخطّي المؤسّس على التسلسل العقلانيّ للأسباب والنتائج بصفة معكوسة، مضاعفة من الاستطرادات ومغالية في الرّسم الساخر لخيالات المخطوطة التي تمّ العثور عليها باعتبار ذلك حلاّ للعقدة الرّوائيّة التّقليديّة. توصل المعارضة السّاخرة إذن إلى الكشف عن الطّرق الشّكلية؛ تظهر هكذا بصفة واضحة في وعي القارئ الذي بإمكانه أن يدرك عتاقتها والحاجة الملحّة لتجديدها.

هذا المنظور لــ ((الشّكلانيّين الرّوس)) والذي سوف نضطر للاكتفاء به في إطار هذا الكتاب، يعلن إذن عن بعض العناصر الأساسيّة لنظريّة التّناصّ: انغلاق النّصّ واستبعاد الأسباب الخارجيّة لصالح الروابط التي تقوم بين الأعمال نفسها و لمفهوم الطّريقة أيضا. يفترض مفهوم التّناصّ بالإضافة إلى ذلك النّظر بعين الاعتبار

لاشتغال النّصّ وللفعاليّة التي تنتجه بدون الرجوع إلى الكاتب. و، دائما إذا ما تمسّكنا بالصّرامة البيانيّة للتّحديدات الأولى، نجدها تستبعد بالذّات أن تتمّ الإحالة إلى مقاصد الكاتب وكذلك التّأثيرات التي خضع لها.

II- باختين والحواريّة

يرتبط مفهوم الحواريّة، الذي يلعب دورا مركزيّا في تكوّن التّناصّ، ارتباطا وثيقا بكتابات الفيلسوف ومنظّر الرّواية، ميخائيل باختين Mikhail Bakhtine (1895–1975). ففي كتابيه الوصفيّين (عمل فرنسوا رابولي Francois Rabelais والثقافة الشعبية في العصور الوسطى وفي أثناء النهضة ومشاكل شعريّة دستويفسكي Dostoivski، اللّذان ظهرت ترجمتهما من نشر غاليمار Gallimard سنة 1970)، تشكّلت نظريّته في الملفوظ وفي الحواريّة: إنّ عمل رابولي Rabelais ، في الحقيقة، هو شعاريّ، يحمل أدبا "احتفاليّا" ويعدّ دستويفسكي خالق رواية متعدّدة الأصوات. فجّرت تعدّديّة الأصوات والكتابة المعارضة السّاخرة والاحتفاليّة واحديّة اللّغة ووضعت في مركزها الحوار. في هاتين الدراستين، يعتبر باختين بأنّ الرّواية أساسا هي ظاهرة لغويّة. غير أنّ صلاته بالشّكلانيّين الرّوس كانت معقّدة: فإذا كان مدينا إلى حدّ كبير لهذه الحركة التي يقاسمها عددا معيّنا من الطّروحات، كان يسعى إلى تحصيل تركيب بين دراسة الأشكال والرجوع إلى المحتوى الذي بدا له أنّه أساسيّ (1)؛ يعيد بالذّات موقعه في الرّواية التي لا يختزلها في مجرّد قصّة recit.

إنّ نظريّته في الملفوظ، التي هي مركزيّة بالنّسبة لتكوّن مفهوم التّناصّ، توضّح جيّدا هذه الإرادة في التّخلّص من شكلانيّة صارمة. بالنّسبة لباختين Bakhtine، كلّ ملفوظ (سواء كان ينتمي للأدب أم لا) هو متجذّر في سياق اجتماعيّ يسمه بعمق كما أنّه موجّه لأفق اجتماعيّ. أيضا، كلّ ملفوظ، كلّ تعبير هو حامل لكلام غير متجانس يشكّله؛ فـ"التّباين heterologie" (اصطلاح جديد يفسّره طودوروف على أنّه اختلاف الأنماط السّرديّة) المشكّل للكلام يشبه اختلاف الألسن. إنّها واحديّة الملفوظ وتجانسه(2) الذي أصبح محلّ شكّ، فبعد بابل، حلّ التّشظّي اللساني محلّ وحدة اللغة. فكلّ عبارة حاملة لكلام مغاير، يسمها إلى حدّ لم تبق هناك عبارة متلقّاة بريئة من تلفّظ سابق:

موضوع خطاب متحدّث، مهما كان، ليس موضوع خطاب لأوّل مرّة في ملفوظ معطى، والمتحدّث لايمكن أن يكون هو أوّل من يتكلّم به. فالموضوع، إذا صحّ التّعبير، تمّ التّكلّم به، تمّت معارضته، تمّ توضيحه والحكم عليه بصفة مفارقة، إنّه الموضع الذي تتقاطع فيه، تلتقي فيه وتفترق وجهات نظر مختلفة، رؤى للعالم، توجّهات. فالمتحدث ليس هو آدم الكتاب المقدّس في مواجهة موضوعات عذراء، لم تعيّن بعد، فيكون هو أوّل من يسمّيها.

فملفوظ ما يتناول إذن دائما من خلال شبكة من ملفوظات أخرى تشكّله. إذا كان عدم تجانس الملفوظ مشبّها باختلاف الألسن، فإنّ تشظّي كلّ ملفوظ يرجع إلى الحوار: في كلّ كلمة توجد بصمات صوت وكلام الآخر، بحيث يمّحي المونولوج أمام الحوار dialogue، كما تمّحي الكلمة الموحّدة أمام كلام متشظّي، غير متجانس، مخترق بكلام الآخرين.

بوصفها مكوّنا لكلّ خطاب مهما كانت صفته، الحواريّة على جانب كبير من الأهمّية. لكن داخل الأدب، يحدث باختين قسمة أخرى: يؤكّد بأنّ الرواية هي أساسا حواريّة بينما الشّعر يكون مونولوجيّا monologique. هذه المقابلة لا تمرّ دون أن تثير مشكلة ما دامت الحواريّة تمّ تقديمها ابتداء على أنّها خاصيّة تتعلّق بكل نمط من أنماط الخطاب. لماذا، حينئذ، يمتنع الشعر عن أن يكون كذلك؟ حاول طودوروف أن يشرح هذا التناقض الظّاهر محوّلا المسألة من زاوية نظر الملفوظ إلى زاوية نظر التّلفّظ: (إنّ الشّعر فعل تلفّظ، بينما الرواية تمثّله واحدا)، كتب في ميخائيل باختين، مبدأ الحواريّة، مذكور سابقا) ؛ يتكفّل الشّاعر يصحّ هذا على الأقلّ على الشّعر الغنائيّ ويضطلع مباشرة بتلفّظه الخاصّ بينما يضع الروائي على مسرح الأحداث اللغة ويضاعف من مآخذ الكلام مثل أنماط الملفوظات.

في الحقيقة، الرواية – وكلّ عمل دستويفسكي بصفة خاصة، بالنسبة لباختين، يشكّل الأمثولة- لها كموضوع خاصّ (الإنسان المتكلّم وخطابه). لا تجعل الرواية من اللغة وسيلة موجّهة لنقل رسالة لكنّها تقدّم الكلام في ذاته، الموسوم دائما بالملفوظات والتّلفّظات السّابقة.

أضف إلى ذلك أنّ الرواية لها خاصيّة تشظية كلّ خطاب واحديّ؛ لا يمتنع فقط الكاتب عن الكلام (باسمه الخاصّ) ، لكنّه يجعل مختلف الخطابات تتعامل مع بعضها. إنّ التّلفّظ الرّوائيّ إذن في غاية التّعدّد. تدرج الشّخصيّات، بصفة خاصّة، في نصّ الرّواية أصواتا متعدّدة؛ هذا التّنضيد للأصوات يخدم بصفة جازمة تعدّد اللّغات. فتعدّديّة الأصوات، باعتبارها خاصيّة مميّزة لكلّ خطاب روائيّ، هي بصفة خاصّة ملازمة للرواية الهزليّة (يحيل باختين Bakhtine على شتيرن Sterne وجان- بول Jean-Paul): في هذه النّصوص، في الحقيقة، اللغات الأكثر تنوّعا تمّ إدراجها في لعبة مواجهة وهدم لاتتوقّف. حقيقة هذا النمط من الخطابات لا تكمن في تأكيد كلام ذي سلطة، بل، على العكس، في الحوار الذي يقوم بين الأصوات المختلفة.

فالرّواية تجعل هذه الأنماط المختلفة للخطاب تتعايش وتتحاور دون أن تعزلها عن دعاوي الكاتب، دون أن تحدّد بدقّة، أبدا، الحدود التي تفصل بعضها عن بعض. بالإضافة إلى ذلك، فالرّواية يمكنها بالتّأكيد أن تضمّ أنواعا مختلفة غير متجانسة معها، سواء كانت أدبيّة (أشعار، قصص قصيرة...) أم غير أدبيّة (دراسات للأخلاق، نصوص بلاغية، علمية، دينية...). فالرّواية إذن بصفة أساسيّة هجينة وحواريّة.

يولي باختين Bakhtine أهمّية أكبر إلى نقل اللّغة الاجتماعيّة التي ليست فقط تمثّل خصوصيّة التّعدّديّة الصّوتيّة للرّواية لكنّها أيضا تشهد على تاريخيّتها الخاصّة، على بعدها الاجتماعي والإيديولوجي:

طوال وجودها التّاريخيّ، خلال صيرورتها اللّغويّة المتعدّدة، امتلأت بهذه اللهجات المحتملة: تتقاطع فيما بينها بطرق متعدّدة، هي لا تنمو حتّى النّهاية وتموت [...]. اللّغة هي تاريخيّا واقعيّة لأنّها تصير إلى تعدّدية لغويّة، تعجّ بكلم مستقبليّ وماض، كلم "الأرسطقراطيّين" المتصنّع، "دخلاء" على اللّسان، عدد لا يحصى من المبادرين بالكلام، الذين يتفاوتون في مدى سعادتهم أو شقائهم، لغات ذات مدى اجتماعي يضيق ويتّسع، بمراعاة دائرة الاستعمال هذه أو تلك. صورة لغة مثل هذه في الرواية، إنّها صورة أفق اجتماعيّ، صورة إيديولوجيم اجتماعي ملتحم بخطابه، بلغته.

جماليّات ونظريّة الرّواية، غليمار 1978 .(في الخطاب الرّوائيّ):

يمكن للرّواية إذن أن تدرج في نطاقها (لغات) و(منظورات أدبيّة وإيديولوجيّة متعدّدة الأشكال – أجناس، مهن، جماعات اجتماعيّة لغة النبيل، المزارع، البائع، الفلاّح)، أيضا (لغات موجّهة، معتادة ثرثرة، هذر الحفلات، حديث الخدم) (نفس المرجع). لنأخذ كمثال فقرة من ديكنز، يشير باختين نفسه إلى هذا اللاّتجانس المكوّن للسّرد:

هذا الملتقى وقع حوالي الرابعة أو الخامسة بعد منتصف النّهار، حينئذ كان كلّ حيّ هارلي ستريت، كافانديش سكوار، يعجّ بهدير السيارات وضربات الزّوّار المضاعفة بالمطرقة على أبواب المدخل. حدثت المقابلة هنا لمّا دخل م.مردل إلى منزله، بعد أن قام بمهمّته اليوميّة التي تتمثّل في فرض احترام أكثر فأكثر للإسم البريطاني في جميع مناطق العالم المتحضّر، القادرة على تقدير المؤسسات التجاريّة ذات الصّيت العالميّ والجمع بين رؤوس الأموال الضخمة والخبرة العملية. ذلك أنّه لم يكن أحد يعلم بالضّبط بما يشتغل به حقيقة السّيّد ميردل، فيما عدا أنّ عمله ينتج المال؛ بهذه الكلمات كان الجميع يحدّد شغل السيد مردل خلال جميع الحفلات الرّسميّة، وكان التّفسير الحديث لمثل الجمل وثقب الإبرة، يتقبّله مغمض العينين.

شارل ديكنز Charles Dickens، دوريس الصّغيرة La petite Dorris، ذكره باختين.

إنّ (الأسلبة الباروديّة التي أجريت على خطب البرلمان والمآدب) تقوم بإدراج كلام الآخر في الرّواية (تحت شكل مستتر) (مذكور سابقا)، دون أن تمحوه في الخطاب الرّوائيّ.

إنّ كتابات باختين Bakhtine حول الحواريّة إذن أساسيّة بالنّسبة لتكوّن مفهوم التّناصّ. فالتّحديد الذي اقترحته جوليا كريستيفا Julia Kristeva هو قبل كلّ شيء مرتبط جدّا بتعليقها على أعمال باختين Bakhtine التي ساهمت في التّعريف بها في فرنسا. كريستيفا Kristeva، في الحقيقة، أقامت موازاة بين وضعية الكلمة، الحواريّة، عند باختين Bakhtine، ووضعيّة النّصوص: فمثل الكلمة التي تعود على الذات sujet وعلى المرسل إليه destinataire في نفس الوقت وتكون موجّهة نحو الملفوظات السابقة والملفوظات المعاصرة، النّصّ كان دائما في نقطة تقاطع مع النّصوص الأخرى: ((كلّ نصّ ينبني كفسيفساء من الاستشهادات، كلّ نصّ هو امتصاص وتحويل لنصّ آخر)) (سميوتيكا Semeiotike، مذكور سابقا). التّناصّ إذن وبالضّبط عند مراعاة اللاتجانس المكوّن لكلّ عمل يلغي مفهوم العلاقة الدّاخل– ذاتيّة intersubjectivite: كما أنّ الكلمة لا تعود على الذّات التي تستعملها فقط بل هي موسومة بكلام آخر، نفس الشيء بالنسبة للرواية لا تردّد فقط الكلام الوحيد والواحديّ للكاتب، فالنّص هو مكان انشطار الذّات وتشظّيها:

ما يفهمه باختين من (الـــ)كلمة/ خطاب [...] هو انقسام الذّات، تنقسم قبل كلّ شيء لأنّها مشكّلة من الغير، لكي تصبح على مرّ الزّمن لها غيرها الخاصّ، وبهذا تكون متعدّدة غير قابلة للمسك، متعدّدة الأصوات. لغة رواية ما هو المجال الذي يتجاوب فيه تبديد "الأنا"، وتعدّد تشكّله.

جوليا كريستيفا Julia Kristeva، ((شعريّة مخرّبة))، المقدّمة لـــميخائيل باختين، شعريّة دوستويفسكي، لوسوي، 1970.

إنّ التّناصّ هو علامة التّاريخ والإيديولوجيا: هكذا كتب رولان بارث Roland Barths بأنّ ((مفهوم التّناصّ هو ما أضافه لنظريّة النّصّ من حجم المجتمعيّة: إنّه كلّ اللّغة، السابقة والمعاصرة، التي تقبل على النّصّ ليس فقط عن طريق انتساب قابل للكشف، محاكاة إراديّة، لكنها منبثّة) (مقال "نصّ (نظريّة الـــ)" مذكور سابقا). إنّ التّناصّ إذن لا يقطع أبدا النّصّ الأدبيّ عن السّياق الاجتماعيّ الذي ينبثق فيه: يجب ألاّ يفهم على أنّه شكل من انكفاء الأدب على نفسه. فالنّصّ الأدبيّ، حسب كريستيفا التي تعيد طرح نظريات باختين حول هذه النّقطة، لا يردّد فقط صدى الكتابات السابقة لكن أيضا الخطابات المتاخمة له. فالتّناصّ، وفق هذا المنظور، لا يفهم على أساس أنّه حسب نموذج عموديّ، نموذج التّقليد والانتساب، لكنه حسب النموذج الأفقيّ للتّبادل مع اللّغة المحيطة.

III –المتناصّ intertexte والمتخلّل للخطاب interdiscours

على كلّ حال، مهما كانت الرّوابط الأساسيّة التي توحّد ما بين الحواريّة والتّناصّ، من المهمّ عدم المطابقة بينهما. فالتّناصّ، عندما يفكّر فيه على منوال الحواريّة، في حدود صيرورة كتابة وانبثاث، يطرح في الحال مسألة حدوده الخاصّة وطبيعة المتناصّ.

إذا اعتبر، في الحقيقة، كلّ شكل من أشكال اللاّتجانس السّرديّ هو علامة للتّناصّ، هذا الأخير لا يتحدّد بالتمكّن من جديد من نصّ، إلاّ إذا تمّت مراعاة مفهوم النّصّ نفسه بمعنى شديد الاتّساع. غير أنّ مقاربة مثل هذه معرّضة لأن تفكّك المفهوم وأن تحرمه من كل إفادة للتّحليل الأدبي. أيضا لنميّز بين المتناصّ intertexte وتفاعل الخطاب interdiscours، هذا الجزء من الآخر الحاضر في كلّ خطاب، هذا العمق السّرديّ الذي يتملّص منه كلّ تلفّظ(1).

نحتفظ إذن باختلاف واضح بين الإحالة إلى نصّ والانبثاث من خلال الخطاب. إذا كان الوعي باللاّ تجانسيّة المشكّلة لكلّ كلام هي ضروريّة لتكوّن مفهوم التّناصّ، مع ذلك فإنّ هذا الأخير ليس مرادفا لها. إلى جانب ذلك علينا ألاّ نعتبر كلّ لغة موسومة إيديولوجيّا صادرة عن تناصّ، ولا كلّ تصوير هزليّ لسنن خطابيّ خاصّ، ولا كلّ تعبير هجائيّ كذلك. هكذا، فإنّ الخطاب المتفاصح المسنّن بدرجة كبيرة من الفخامة الذي يتمسّك به، في *رحلة في آخر الليل* Voyage au bout de la nuit، "الأستاذ المبرّز بيسطومبيس Bestombes" لا يشكّل معارضة تناصيّة لكنّه تصوير هزليّ لنمط من الخطابات الذي تدرجه الكتابة في الرّواية لكي يظهر حذلقة عالم باعتبارها غرورا علميّا في سياق الحرب:

فودسكين، زد على ذلك، هذا الملاحظ المتواضع، لكن كم هو لبيب، قام باستخلاص مثالب أخلاقيّة عند جنود الأمبراطوريّة، منذ 1802، نعثر على ملاحظات مثل هذه في مذكّرة أصبحت الآن قديمة، مع ذلك فقد أهملها جورا طلبتنا الحاليّين، حيث سجّل، أقول هذا، بكثير من التّبصّر والدّقّة حالات يقال عنها أزمات "اعتراف" قد تحدث، إشارة ممتازة، من بين مجموع الإشارات، عند من هو في مرحلة نقاهة أخلاقيّة... شخصيّتنا العظيمة دوبري Dupre، بعد حوالي قرن، عرف كيف يهيّئ، بخصوص نفس الظّاهرة، مصنّفا عرف شهرة منذئذ حيث توجد هذه الأزمة تحت عنوان أزمة "ضميمة الذّكريات"، أزمة يجب، حسب نفس المؤلّف، أن تسبق بقليل، لمّا

يوجّه العلاج بعناية، التّدهور الشّامل للمثل المضطربة والتّحرير النّهائيّ لحقل الضّمير، ظاهرة تالية عامّة في مجرى الشّفاء النّفسيّ.

سيلين Celine، رحلة في نهاية الليل Voyage au bout de la nuit، غاليمار Gallimard، 1932.

النّبرة المفخّمة، فخامة العبارات، المرسلة بدون انقطاع عن طريق النّعوت، المراجع المستقصاة هي في النهاية الدّواء الوحيد الذي يمكن للأستاذ أن يعالج به خوف باردامو .Bardamou. انتهى الهجاء بمضاعفة سخرية الكاريكاتير: بستومبس Bestombes، مؤكّدا علىانغلاق خطابه الخاصّ، يتوجّه إلى باردامو Bardamou بعبارات متمدّنة بصفة خاصّة لا تخلو من هزء، مع أنّها منطوقة على مسرح الحرب العنيف والهمجيّ: هل يعنيك، يا باردامو Bardamou، مادمنا قد بلغنا هذه الخاتمة المرضية، أن تعرف بأنّي غدا بالذّات سوف أقدّم لجمعيّة علم النفس العسكريّ مذكّرة حول الصّفات الأساسيّة للذّهن البشريّ؟ هذه المذكّرة ذات مستوى عال، فيما أعتقد.

نفس المرجع

هل يعنيك، يا باردامو Bardamou، مادمنا قد بلغنا هذه الخاتمة المرضية، أن تعرف بأنّي غدا بالذّات سوف أقدّم لجمعيّة علم النفس العسكريّ مذكّرة حول الصّفات الأساسيّة للذّهن البشريّ؟ هذه المذكّرة ذات مستوى عال، فيما أعتقد.

نفس المرجع

لمّا يوسّع المبدأ إلى حدّ قبول مثل هذه الممارسات كظواهر تناصّيّة، تكون المخاطرة كبيرة في أن يصبح غير عمليّ: لأنّه إذا ما كان كلّ شيء تناصّ ، بما فيها الآثار الأكثر دقّة للّهجة الاجتماعيّة التي تتجلّى في شكل استشهادات غير قابلة للتحديد ومجهولة الأصل في نصّ ما، الدّراسة الدّقيقة لتناصّ ما تفقد معناها. لابدّ إذن من التّأكيد بأنّه إذا ما كان كلّ شكل من التناصّ يتطلّب لاتجانسا خطابيّا، فإنّ كلّ فقدان للتّجانس الخطابي لا يعني تناصّا.

رغم أنّه، كلّ تناصّ ليس فقط وبالقطع أدبيّا ويكون من المجازفة التّأكيد بأنّ الآثار المتأتّية من الأعمال المعترف بها في تقاليد معطاة هي وحدها المعدّة تناصّا. لا يمكننا، في الواقع، أن نستبعد من حقل التّناصّ النّصوص الأجنبيّة عن الأدب والتي تندرج فيه تحت شكل استشهادات، تلميحات: قصاصات الجرائد، استشهادات في عوليس Ulysse لجويس Joyce، تندرج في التّناصّ بنفس القدر الذي تندرج فيه الإحالات إلى هومير Homere. نفس الشيء في مذكّرات ما بعد القبر Memoires d`outre-tombe لـشاطوبريان Chateaubriand، الإحالات، العديدة جدّا، للأدب القديم والكلاسيكي، يجب أن تعامل على أنّها متناصّات، مثل مستلّات المراسلة الخاصّة، كرسائل لوسيل Lucile، وهي ذخائر حافظت عليها المذكّرات، استحضرتها بعد موت هذه الأخيرة، أو الوثائق السياسية، مثل مراسلات نابليون Napoleon لكليبير Kleber (شاطوبريان Chateaubriand، مذكرات مابعد القبر Memoires d`outre-tombe، على التوالي، الكتاب 17، القسم6 والكتاب 19، القسم 18).

إذا كان لابدّ من اعتبار كلّ نصّ، مهما كانت طبيعته، ما أن يستحضر من طرف نصّ آخر، ينتمي بحقّ للتّناصّ، فلأنّ المتناصّ أيضا لا يمكنه أن يحدّد اعتمادا على خاصّيّة ليست منه. فهل بإمكاننا أيضا التّأكيد بأنّ

الاستشهادات المتعلّقة ببطاقة menu سرتا Certa في "فلاّح باريس Le Paysan de Paris" لآراقون Aragon أو، في "الحياة طريقة عمل La Vie mode d`emploi" لجورج بيريك Georges Perec، بالمعلّقات والتّدوينات المختلفة ("كالمعلّقة الحاملة لعبارة توقّف مؤقّت للمصعد" في القسم XXII، شبكات الكلمات المتقطّعة أو إعلانات الصّيدليّة في القسم LXXVI، أو أيضا الاستشهادات المستمدّة من وصفات المطبخ –"سلاطة دنتوفيل salade d`inteville" في القسم XLVII– ج.بيريك، في "الحياة صيغة عمل"، هاشيت، 1978) لها الحقّ تماما في أن تكون من بين الممارسات الأدبيّة، هذه النّصوص لم تعد على هامش النّصّ الأدبيّ.

IV. نقد نقد المصادر

سرعان ما ظهرت خطورة أن يبدو التّناصّ كمجرّد صيغة لنقد المصادر التّقليديّ. في ثورة اللّغة الشّعريّة (لوسوي، 1974) ألحّت جوليا كريستيفا على طريقة النّقل الخاصّة بالتّناصّ التي يجب أن تميّزه. فمفهوم المصدر يركّز على أصل ثابت، تكون له دائما على الأقلّ قيمة العلّة والتي على القارئ أن يفكّ طلسمها. كان يفترض دائما بأنّ المصدر قابل للعزل، يمكن رصده، بأنّه موضوع قارّ يمكن التّعرّف عليه؛ التّناصّ، على العكس من ذلك، يتصوّر على أنّه طاقة منتشرة يمكنها أن تبثّ آثارا تكون إلى حدّ ما من غير الممكن مسكها في النّص.

يحيل مفهوم المصدر بالذّات إلى نصّ يتصوّر على أنّه كيان عضويّ ينمو باستمرار انطلاقا من هذا المبدإ الأوّليّ؛ التّناصّ على العكس من ذلك، يثمّن النّصّ المنفجر، غير المتجانس، المتشظّي... (انظر الأنطولوجيا، ص). أخيرا يبتعد الغرض من نقد المصادر جذريا عن فكرة المناصّ. فالكشف عن مصادر نصّ ما، هو دائما البحث عن التّأثير، موضعة العمل في تقليد أدبيّ، وبالتّالي، بيان مدى أصالة المؤلّف. بالنّسبة لـــلانسون Lanson، ((الأبحاث المتعلّقة بالمصادر والأبحاث البيوغرافيّة، إذا ما لم يكن لها من هدف سوى تقديم حساب للفائف جان جاك روسو Jean-Jaques Rousseau أو العثور على بيت شعريّ إيطاليّ ترجمه رنصار Ronsard، [يكون] معرفة ضئيلة وعقيمة جدّا)). بينما، عند النّظر في ((المنظر الّذي شكّل مسقط رأس راسين، الجوّ العائليّ حيث تربّى، البور روايال Port-Royal الجنسيني Janseniste والهيليني helliniste، القصر الملكي، العالم، شامبميسلي Champmesle وعشّاقها، باطن البورجوازي الموسر لمّا بلغ سنّ الشّيخوخة، تقرأ قائمة كتبه؛ تستكشف في أعماله آثار بعض الأعمال القديمة والحديثة)) (غوستاف لانسون Gustave Lanson، "التاريخ الأدبي وعلم الاجتماع"، 1904، محاولة في المنهج، في النّقد وفي التاريخ الأدبي، هاشيت Hachette، 1965

هكذا تسمح دراسة المصادر بإعادة تشكيل تكوّن العمل وبيان ما تدين به أصالته وتفرّده لسياقه الاجتماعي والتاريخي. تسعى أيضا إلى شرح العمل ممسكة بالصّلات التي تربطه بزمنه، إلى أن ((تجعل من الكاتب منتوجا اجتماعيّا وتعبيرا عن المجتمع)) (نفس المرجع). يفهم نقد المصادر الكتابة على أنّها خليط من التّأثيرات ومن الإسهامات الشّخصيّة، التي على النّقد أن يوضّحها. قد يتحدّد المصدر حتّى بالنّسب: هكذا يؤكّد غوستاف رودلر Gustave Rudler وهو من أتباع لانسون Lanson، بأنّ المصدر لا يوجد في كلّ مرّة تكتشف فيها قرابات ما بين عدّة نصوص، لكن لمّا ((الكتّاب يكرّرون [...] بعضهم البعض)) (غوستاف رودلر Gustave Rudler، تقنيات النّقد

والتّاريخ الأدبيّ، أكسفورد Oxford، مطبعة الجامعة، 1923). المصدر إذن هو الحلقة التي تقيم ما بين المؤلّفين نسبا، مكوّنا للموروث.

يحدّد غوستاف رودلر Gustave Rudler في مؤلّفه منهجا حقيقيّا يؤسّس بصفة إيجابيّة نقد المصادر؛ يقترح تصنيفا أصيلا يميّز بين المصادر الحيّة والمدوّنة، المصادر الأمّ والإضافيّة؛ يخصّص المؤشّرات (الدّاخليّة والخارجيّة) التي تسمح بالتّعرّف عليها، ثمّ يعرض الأشكال المختلفة للتّقصّي (تبعا للنّوع، وفق الحقبة،بالنّظر للموضوع، حسب الكاتب ...) المتّبع من أجل العثور عليها. مثل هذا المنهج يبيّن بصفة نموذجيّة تماما كيف أنّ نقد المصادر، من ناحية، تمّ تصوّره باعتباره خطوة وضعيّة تدّعي بأنّها نجت قدر الإمكان من تعسّف وتخمين المقاربات مابين النّصوص و، من ناحية أخرى، كيف يفترض أنّ كاتبا ما يستمدّ من موروث يعرفه وينتمي إليه.

إنّ هذا التّذكير بالمنهج المدعو "نقد المصادر" يسمح لنا في البداية بفهم كيف أنّ مفهوم التّناصّ، بالنّسبة لكريستيفا Kristeva وبارث Barthes على الخصوص، يقوم ضدّ هذه المقاربة النّقديّة التّقليديّة والتي يزعم أنّه جاء كبديل لها. بالنّسبة لهذه المواقف النّقديّة، في الواقع، التّناص يمثّل قطيعة مع كلّ تفكير يتعلّق بالنّسب وبالتّأثير.

كما كتب رولان بارث في "من الأثر إلى النّصّ"، ((التّناصّيّ الذي يوصف به كلّ نصّ، لا يمكن أن يختلط بشيء من أصل النّصّ: البحث عن الـ"مصادر"، الـ"التّأثيرات" لعمل ما، إنّها الاستجابة لأسطورة النّسب؛ الاستشهادات التي يوردها نصّ مجهول صاحبها، غير قابلة للرّصد، فقد قرئت من قبل [...])) ("من الأثر إلى النّصّ" De l`oeuvre au texte، حفيف اللّغة، محاولات نقديّة IV ، لوسوي Le Seuil، 1984). هذه المعارضة ما بين التّناصّيّ من ناحية، والمصدر، والنّسب من ناحية أخرى، تندرج في نظام يعارض مصطلحا بمصطلح، الأثر بالنّصّ.

بالنسبة لبارث وكريستيفا، النّصّ، في الواقع، يتعارض مع الأثر كإنتاجيّة بالنّسبة لمنتوج مكتمل، كفعاليّة بالنّسبة لحالة؛ فللنّصّ تدليل signifiance (يكون متعدّدا دائما، مضاعفا دوما) بينما الأثر هو ذو دلالة signification، والتي يمكنها أن تتحدّد بوضوح. فإذا ما كان النّصّ، محدّدا بالتّناصيّة، غير قابل للإحالة، كما تمّ بيانه من قبل، على ذات تراقب هويّته، يضمن المؤلّف الأثر؛ إلى جانب ذلك، حسب تعبير رولان بارث Roland Barthes، الأثر ((مندرج في مجرى نسب))، وهو ما يعني بأنّه ((يفترض تحديدا للعالم (للأصل، ثمّ للتاريخ الخاصّ بالأثر)، تسلسل للآثار فيما بينها وتملّك للأثر من طرف مؤلّفه)) (نفس المرجع). المتناصّ، في المقابل، لا يقدّم مبدأ شارحا، لا يسمح بتحديد علاقة سببيّة لها تأثير على ما بين الآثار. استعارات النّسج والتّشابك مفيدة في التّعامل مع النّصّ تأخذ مكان النّموّ، العضويّة، التّطوّر، التي تضفى على الأثر.

لايؤدّي التّناصّ إذن، نظريّا على الأقلّ، إلى طريقة في القراءة تبحث عن أصل الأثر كاشفة عن البصمات المختلفة التي شكّلته، ولا أن تجعل من النّاقد بديلا عن المؤلّف قادرا على الوصول إلى قراءاته، وبالتّالي استرجاع ذكرياته، مهما كانت درجة وعيه بها و ما طواه النّسيان منها. إنّه عمق ذاكرة جمعيّة ومجهولة النّسبة يردّ التّناصّ إليها النّصّ، محدّدة بهذه الصّفة، بينما نقد مصادر الأثر تفترض ذاكرة فرديّة. إذا ما كان القارئ متمثّلا للتّناصّ،

عليه أن يراعي اللاّتجانس الذي يخترق النّصّ، وتدليله، ((بريق، وميض غير متوقّع لعدد غير محدود من اللّغات) ، حسب تعبير رولان بارث (مقال "النّصّ (نظريّة الـــ)، مذكور سابقا).

هكذا يفهم لماذا مثل هذا التّثمين للنّصّ، على حساب الأثر، تماشى مع نقد للأدب، جعل منظّري التّناصّ يختارون الأعمال الأكثر خرقا للمألوف، ومن بينها، أغاني مالدورور Les Chants de Maldoror وشعر لوتريامون Poesies de Lautreament. هذان النّصّان هما في الواقع يمثّلان كتابة تسعى إلى هدم وإعادة بناء مستمرّة من مختلف الأوجه للأدب، محقّقة اختراقا في نطاقه مؤدّية إلى التّشكيك في حدوده الأكثر صرامة (انظر جوليا كريستيفا Julia Kristeva، ثورة اللغة الشعرية La revolution du langage poetique، لوسوي Le Seuil، 1974). إنّه بدون أدنى شكّ لأمر دالّ أن تكون نصوص النّهضة التي مثّلت أرضا خصبة لدراسة فضّلها نقد المصادر مادامت تسمح له باستكشاف البصمات المختلفة للمؤلّفين القدامى مثلما هو الحال في الأدب الإيطالي(1)، تترك مكانها لنصوص، تأتي في واقع الحال، لتلغي مجرّد نقد للمصادر فتشكّك في كنهه.

7- محصّلة نقديّة للمفهوم

في نهاية هذا الشّوط، يظهر لنا بأنّ تاريخ التّناص يرتبط ارتباطا وثيقا بنظريّة للنّصوص تكوّنت بصفة متدرّجة طيلة القرن العشرين. لم يفرض مفهوم التّناصّ نفسه في النّهاية إلاّ لمّا أصبحت الاستقلاليّة الذّاتيّة للنّص أمرا مقبولا: وبالضّبط لأنّ النّصّ لم يبق في نهاية هذا الشّوط، يظهر لنا بأنّ تاريخ التّناص يرتبط ارتباطا وثيقا بنظريّة النّصوص تكوّنت بصفة متدرّجة طيلة القرن العشرين. لم يفرض مفهوم التّناصّ نفسه في النّهاية إلاّ لمّا أصبحت الاستقلاليّة الذّاتيّة للنّص أمرا مقبولا: وبالضّبط لأنّ النّصّ لم يبق محالا على التاريخ ولا على المؤلّف بصفة خاصّة، على نفسيته ومقاصده، ولأنّ تداخل النّصوص وتشابك الخطابات أمكن أن تفهم باعتبارها محرّكا للتّطوّر وعنصرا أساسيّا للدّلالة. لأنّ الشّكّ أحال اتّجاه اللّغة، نحو غزارة الملفوظ وهويّة التّلفّظ وتجانسه، أمكن تصوّر النّصّ كتراكب لشظايا غير متجانسة. جرّ التّناصّ إذن "موت المؤلّف"، على حدّ تعبير بارث: ("موت المؤلّف"، محاولات نقدية. مذكور سابقا.): الاستشهادات، التّلميحات، الاستعادات المختلفة للذكريات لم تعد أبدا تفهم باعتبارها تجارة يقيمها مؤلّف ما مع أحد الّذين سبقوه، بحيث يستدين منه، بغرض الاحتفاء به أو السخرية منه، لكي يستظلّ بظلّه أو يميّز نفسه عنه...

هكذا فإنّ التّناصّ المحدّد بخطاب نقديّ خاصّ جدّا، قضى على مقاربة نفسانيّة للكتابة من جديد التي سادت مادام النّصّ المشهور كتابته مختوما ببصمة كاتبه ومادام هذا الأخير اعتبر قد تمكّن من السّيطرة على قدر اللاّتجانس الذي تسرّب إلى خطابه؛ على العكس من ذلك يفترض التّناصّ بأنّ كلّ قول يأخذ نصيبه من الغير.

تتدخّل نظريّة التّناصّ إذن ضمن تصوّر للنّصّ منسجم جدّا وصارم والّذي عدّل بعمق فكرة الكتابة، وبالتّالي غيّر أشكال القراءة والتّحليل. هكذا لعب التّناصّ دورا حاسما في الانتقال الحادث من الأثر إلى النّصّ، من المؤلّف

إلى الذّات المفارقة لكلّ تلفّظ، من المصدر ومن التّأثير إلى التّداول المعمّم وغير المحدود للغيريّة في خطاب استمراريّة نموّ وتطوّر لاتجانس نصّ متصوّر كتحوير لشظايا ...

مع ذلك، فإنّ مفهوما مثل هذا للنّصّ، الذي، من بعض النّواحي، يثوّر المقاربة الممكنة من الكتابة، هو عرضة لأن يجازف بأهمّية مفهوم التّناصّ في حدّ ذاته. فأطروحة إنتاجيّة النّصّ، كما رأينا سابقا، تفترض بأنّه يتكوّن بصفة مستقلّة ذاتيّا و تجب قراءته دون أن تكون هناك ضرورة للرّجوع لا إلى ما هو خارج النّصّ ولا إلى المؤلّف؛ تجعل من غير الفائدة رصد اللاّتجانس والاستشهادات وتترك هذا العمل لنقد المصادر الذي تتنكّر له بعنف.

أضف إلى ذلك هل من المنطقيّ، في منظور مثل هذا، أن تفضّل بصفة منتظمة الأشكال الضّمنيّة للتّناصّ، الاستشهادات "بدون وضع علامات التّنصيص"، الآثار الدّقيقة للاّتجانس، المنبثّة في مجموع النّصّ...، على حساب الأشكال الواضحة ومنها، على سبيل المثال، الاستشهادات الصّريحة. فالدّلالات الخاصّة بالتّناصّ تظهر بقدر أكبر لمّا النّصوص التي، بشكل من الأشكال، تستعاد في الحكي، على خشبة المسرح أو في قصيدة يمكن رصدها بتؤدّة. إنّه لممّا يدعو إلى الانتباه، في الواقع، أن تخصّ رواية ما بالذّكر مؤلّفا أو نوعا معطى: قد يتأسّس حتّى معنى النّصّ على مثل هذه الاستعادة. أيضا الاتّهام الصّريح الموجّه لعمليّة رصد المصادر ألا يبدو لأوّل وهلة مبالغا فيه. فبهذا الصّدد أكّد لورون جنّي Laurent Jenny ، في مقال أساسيّ، "استراتيجيّة الشّكل La Strategie de la forme" ، بأنّه ((على عكس ما كتبت جوليا كريستيفا Julia Kristeva ، إذا ما روعي التّناصّ بالمعنى المحدّد من غير الصّحيح أن لا علاقة له بنقد "المصادر": فالتّناص لا يعيّن تلقّ غامض وخفيّ للتّأثيرات، بل إنّ عمل التّحويل والتّمثّل لعدّة نصوص التي يقوم بها نصّ ما يمثّل القطب الذي يتمركز حوله المعنى)) (لورون جنّي Laurent Jenny، "استراتيجيّة الشّكل La Strategie de la forme "، الشّعريّة Poetique ، رقم 27 ، 1976).

إذ أنّه، من أجل توضيح هذا "العمل"، لأمر من البداهة بمكان أن يتمّ تحديد ما هي النّصوص المستعادة وكيف تمّ تحويلها أو تمثّلها. فإذا ما كان التّناصّ لا يقف عند رصد "البصمات"، لا يمكنه أن يستغني عنها.

إنّ بيان مصدر ما، حتّى وإن أخذ موقعه من منظور أصوليّ محدّد، يمكن أن لا يكون الهدف منه فرز الأصل عمّا اقترض منه، مثل فرز الحبّ عن التّبن، بل محاصرة رهانات جماليّات. هكذا في بداية المنافسة La Curee ، وصف جولة في غابة بولونيا، قد يبدو كنتاج لملاحظة شديدة الدّقّة أكثر منها متأنّية(1):

Malgré la saison avancee, tout Paris etait là: la duchesse de Sternich, en huit-ressort, Mme de Lauwerens, en victoria trés correctement attelée, la baronne de Meinhold, dans un ravissant cab bai-brun, la comtesse Vanska, avec ses poneys, Mme Daste, et ses fameux stappers noirs, Mme de Guende et Mme Teissiere, en coupe, la petite Sylvia, dans un landau gros bleu. Et encore don Carlos, en deuil, avec sa livree antique et solonnelle, Selim Pacha, avec son fez et sans son gouverneur, la duchesse de Rozan, en coupe-egoiste, avec sa livree poudree a blanc, M. le comte de Chibray, en

dog-cart, M. Simpson, en mail de la plus belle tenue, toute la colonie americaine. Enfin deux academitiens, en fiacre.

Zola, La Curee, chap.I, 1872.

فهذا الوصف يستند على تسجيلات تقريريّة مستمدّة من الصّحافة الباريسيّة احتفظ بها زولا Zola في ملفّاته التي يستعملها عند التّهيّؤ للكتابة: بيان الوثائق التي تغذّي العرض تسمح بتأكيد أنّ الكتابة الأكثر مرجعيّة، الأكثر حرصا على أن تظلّ أقرب ما يمكن من الواقع، تمرّ عبر نسخ نصوص معدّة سلفا. لمّا يواجه النّصّ بمناصّه (انظر طبعة غاليمار Gallimard، "فوليو Folio"، 1981، ملاحظات هنري ميتيران Henri Mitterant الذي يستعيد مقال الفيغارو Figaro الذي استخدمه المؤلّف)، يستنتج بأنّ زولا Zola يستردّ لون عصر، جوّا، موصوفا جيّدا، فيقيس على الأسماء الواقعيّة ليخلق صنوها؛ يلجأ عن طريق التّحوير إلى اسم العلم الأوّل: فـالكونتيسّة والوسكا Walewska تصبح الكونتيسّة فانسكا Vanska، وحسين باشا Hussein Pacha يصبح سليم باشا Selim Pacha، أو يحافظ على الإيحاء الأجنبيّ لبعض الأسماء، الإسبانيّة والألمانيّة بصفة بارزة، لينحت على منوالها اسما خياليّا. يوفّر إذن مقال الجريدة معلومة ثمينة، يغنى الحكي بها بمضاعفة التّفاصيل وتنوّع إلى أقصى حدّ من مصادر مختلف الاستبدالات المعجميّة (حلاقة، عربات ...). إنّ بيان "مصدر" النّصّ يسمح هكذا بإبراز الكتابات المغايرة التي استند إليها تكوين الخطاب الواقعيّ، ولعلّه يوفّر للقارئ مظهرا للاّتجانس ضروريّ لعقد المشابهة مع الواقع. إنّ رصد المناصّ يكشف عن الكيمياء الخاصّ بكتابة تمزج بين الواقعيّ والمخترع ويؤكّد بأنّ الطّبيعة المرجعيّة للحكي تتحكّم على قدر كبير في قراءات مؤلّف بقدر ما تحكّمت في تجربته، وبأنّ تأثير الواقع ينتج دوما عن اقتراض نصّي، عن أثر قراءة.

إذا ما كان التّناصّ يشمل نقد المصادر، بل يتجاوزه، فلأنّه أيضا لا يختزله في سلسلة من الاقتراضات لكنّه يعتبره وكأنّه مقدّمة للنّصّ دلاليّة وإيديولوجيّة: فالمصدر ليس فقط المبدأ المؤسّس والمغذّي للعمل، هو استمداد للقيم وللدّلالات الجديدة. لأنّه، لكي يمكن أن لا يحلّل فقط بمصطلحات الانتساب والاقتراض، يمكنه أن يبرز الصّفة التّاريخيّة الخاصّة بمناصّ ما. إنّه بهذا المعنى أمكن لـبول بينيشو Paul Benichou أن يحلّل الأندروماك Andromaque لــراسين Racine("أندروماك Andromaque الأسيرة ثمّ الأميرة"، الكاتب وأعماله L`Ecrivain et ses travaux، كورتي Corti، 1967). إنّ التّنقيب المجدّد لإقامة جدول بيانيّ لمختلف الأعمال التي شكّلت موضوع راسين Racine لايبلغ هدفه في حدّ ذاته: فبعد أن أبرز أيّة مصادر استعمل راسين Racine، حلّل النّاقد الكيفيّة التي اشتغلت بها في المسرحيّة. بيّن في البداية كيف أنّ راسين Racine قام بالوصل بين فرعين متمايزين من الموروث، ما يتعلّق بــهرميون Hermione وما يتعلّق بــأندروماك Andromaque، مشكّلا هكذا موضوعه المأساوي حول خمس شخصيّات، المتنافستان، أستياناكس Astyanax، بيريس Pyrrhus و أورست Oreste. أكّد بعد ذلك بول بينيشيو Paul Benichou على عنصرين أساسيّين: ما فعله راسين Racine لمّا جعل ((بيريس Pyrrhus ينحاز إلى جانب أعداء أندروماك Andromaque ولمّا أسند له واقعة التّهديد بقتل الطّفل)) و سفير أورست Oreste

وهو قادم إلى إيبير Epire يطالب بولد هكتور Hector، في المشهد الافتتاحي للمسرحيّة. بعض التّحويرات تعود إلى الحرص على الانسجام الدّاخليّ للعقدة؛ بعضها الآخر تبرّره ضرورات مشابهة الواقع. هكذا فإنّ عفّة أندروماك Andromaque، التي لا يمكن إدراكها في عصر يوريبيد Euripide، تفرض نفسها في القرن السّابع عشر بالنّسبة لبطلة في مثل هذه المرتبة؛ تسمح بالإضافة إلى ذلك بتقديمها في صورة مثاليّة وبتثمين دور الأمّ الذي قامت به:

موضوع أندروماك Andromaque تعرّض للبلبلة خلال القرون عن طريق التّغييرات التي حصلت للمفاهيم المشتركة المتعلّقة بالمعاشرة وبكرامة المرأة؛ وبصفة أكثر خاصّة، في زمن راسين Racine، بفعل فقدان للتّفاؤل البطوليّ، الذي فتح المجال، على خشبة المسرح المأساويّ، ليتصادم، وجها لوجه، العنف الذي لا حدّ له والفضيلة اللاّئذة إلى الدّموع.

بول بينيشو Paul Benichou.

عند تحليل الكيفيّة التي يندرج بها عمل ما في محيط موروث ما ويستعيد، ولكن في نفس الوقت يتجاهل ويترك، عددا معيّنا من المصادر، إنّه إذن من الممكن إبراز كيف أنّ مجموع القيم المشتركة في عصر ما تتطلّب قراءة جديدة للمناصّ وشرحا لما يصيبه من تحويرات جديدة. إنّ دراسة المناصّ لا تكشف فقط عن تفرّد عمل في عصر ما، لكن أيضا عن التّطوّر التّاريخيّ لموضوع أو لتقليد (محور التّزامن وحده هو الذي اعتبره لانسون Lanson كورقة رابحة في نقد المصادر). إنّ مجرّد استنتاج للمغايرة الحاضرة في نصّ راسين Racine تعرض بوضوح التّاريخيّة المكتشفة هكذا في مناصّ أندروماك Andromaque.

النّقطة الثّانية التي تجعل من واجب أيّة ممارسة للتّناص أن تراجع أسسها النّظريّة المبدئيّة بخصوصها، ولن يكون ذلك إلاّ بهدف التّرشيد، ألا وهي المتعلّقة بالاستبعاد الكلّي لمفهوم المؤلّف. لا تضع نظريّة النّصّ أبدا في حسابها مقصديّة المؤلّف (وهو طرف مركزيّ في كتابات لانسون Lanson): ما أراد المؤلّف أن يقوله محيلا إلى هذا النّصّ أو ذاك لا أهمّيّة تذكر له. لكن، حتّى إذا ما كانت قراءة الاستشهاد، التّلميح ... لم تكن، فعلا، مسترشدة بهذا المفهوم للمقصديّة، ألا يستبعد إلى حدّ كبير ما تشكّله في أغلب الأحيان من استراتيجيّة دلالة موجّهة مباشرة للقارئ؟ استعمال المؤلّفين المعاصرين للنّصوص القديمة، على سبيل المثال، هل يمكن فهمه بدون أن توضع في الحساب استراتيجيّة الدّلالة هذه التي يتأسّس عليها؟ هكذا، لن يقف التّناص في أغاني مالدورور Chants de Maldoror والأشعار Les poesies عند حدّ تناقل لمقطوعات مجهولة المؤلّف هي متعدّدة بقدر ماهي متنوّعة: هو استعمال متعمّد للأدب وللبلاغة اللّتين يضعهما لوتريامون Lautreamont في سلّة واحدة، في عمليّة إنشاء تشبه أيضا لعبة تلميذ ثانويّ.

بدون أن يكون الأمر متعلّقا برغبة في التّمييز، هي عمليّة مستحيلة تماما، ما بين الافتراضات الواعية والافتراضات غير الواعية، يبقى أساسيّا التّأكيد بأنّ بعض الممارسات التّناصّيّة تصنع المعنى في الحدود التي

تجعلها تندرج في استراتيجية محسوبة. فتأثيرات المعنى التي تنتجها، من المؤكّد أنّها تختلف عن مقصد المؤلّف، لا يمكن إهمالها: الاستشهاد، التلميح، المحاكاة السّاخرة ... هي أيضا البحث عن الهجاء، السّخرية، تحويل الدّلالة، انتقاد السّلطة، معارضة الإيديولوجيّة. سوف نرى كدليل بأنّ بعض الأساليب التّناصيّة، المعارضة مثلا، تتطلّب أن يكون عند المؤلّف وعي حادّ بكتابته الخاصّة وقدرة كبيرة على السّيطرة بدقّة متناهية على الجانب المتعلّق بالمغايرة المدرجة. ألم يسع بروست Proust إلى المعارضة الإراديّة بصفة مخصوصة لكي يتخلّص من ذكرياته وإلى محاكاة غير واعية؟ (انظر الأنطولوجيا، ص.159). لا يتوقّف التّناصّ إذن عند التّناول المجدّد غير المراقب للنّصوص، ودراستها بدون أن توضع في الحساب الاستراتيجية المتعمّدة التي تشتغل الكتابة على أساسها، ممّا يعتبر فقدانا لرهان من رهاناتها الأساسيّة. قد يعني هذا أيضا استبعاد القارئ من مقاربتها، رغم أنّها تلتمس قربه بشدّة.

أخيرا، من المناسب الإشارة بأنّ التّعريفات التي أعطيت للتّناصّ في السّبعينيّات تنحو إلى فرض نموذج نصّيّ وحيد: جرى كلّ شيء في الواقع وكأنّ كلّ نصّ، وفق تعريف تناصّيّ، هو فسيفساء من الاستشهادات، تجميع مشكّل من عناصر غير متجانسة.حقّا أن التّقطّع، التّشظّي، اللاّتجانس من الخصائص الأساسيّة للنّصّ المعاصر، و من بعض النّواحي، للنّص الاستشهادي. لكن جدوى التّناصّ ألا يكمن في طرح جماليّات متنوّعة في المعالجة؟ ألا يمكنها أن تشكّل بقدر ماهي قوّة قطيعة، شكلا من الارتباط؟ إنّ دراسة نصوص تنتمي لحقب مختلفة تسمح ببيان تنوّع رهانات التّناصّ، فيصبح من التّعسّف اختزاله في نظريّة النّصّ، في جماليّات معطاة

من أجل ذلك، لن نمنح الامتياز للمناصّات الضّمنيّة، ولن ننفر من التّعرّف على "النّصوص السّابقة"، حسب مصطلحات جينيت، ولن نهمل الاستراتيجيّات التي تمّ تشغيلها من طرف الممارسات التّناصّيّة، مادام على القارئ أيضا أن يكون عارفا بها ما أن يدرك بناء معنى النّصّ. إنّه إذن في مقابل بعض الخيانة للنّظريّة الأولى للتّناصّ يصير ممكنا عدم فصلها عن ممارسات الكتابة والقراءة المحدّدة للنّصوص. لكي يظلّ مفيدا للتّحليل، في الواقع، على المفهوم ألاّ يكون موضوعا للتوسّع المبالغ فيه –كلّ أثر للاّتجانس يصبح علامة تناصّيّة –، ولا لحصر مفرط – وحدها الأشكال الضّمنيّة هي المهمّة، والتي يجب فحصها بمعزل عن المؤلّف والتّاريخ –. تتمثّل فرضيّتنا في أن مثل هذا الانعطاف لا يعني أبدا عودة لنقد المصادر.

*المقال مأخوذ من كتاب ناتالي بيغاي-غروس:

Nathlie Piégay-Gros, Introduction à l'intertextualité, Nathan, Paris,2002. pp.22-41.

-ميخائيل باختين، جماليّات الإبداع اللغويّ، غاليمار، 1984.

(1) بخصوص وضعية باختين اتجاه أوبايز، أنظر تزفيتان طودوروف، ميخائيل باختين، المبدأ الحواريّ، لوسوي، 1981.

(2)إنّه لمن المفيد بدون شكّ شرح ((التّباينيّة)) عن طريق لاتجانس ملفوظات وليس عن طريق تنوّعها: هذه الأخيرة قد تحيل إلى تعدّديّتها (الملفوظات متعدّدة) وليس إلى خرق تجانس كلّ ملفوظ (كلّ ملفوظ مخترق بالمغاير alterite).

(3)بخصوص مفاهيم تفاعل الخطابات interdiscours والتّفاعليّة الخطابيّة interdiscursivite أنظر ، دومينيك منقينو Dominique Maingueneau، تحليل الخطاب L`Analyse du discours، هاشيت Hachette، 1991.

(4) يحال بهذا الخصوص إلى الدّراسة النّموذجيّة لغوستاف لانسون Gustave Lanson، "كيف تتمّ عمليّة الخلق عند رنصار "Comment Ronsard invente (ملاحظات حول نشيد ode"في اختيار رمسه De l`election de son sepulcre")، محاولات في المنهج، في النقد وفي التاريخ الأدبيّ، .

(5)حافظنا على كتابة النّصّ بلغته الأصلية نظرا لكون العبارات المستعملة تتعلّق بأنواع عربات وأسماء أعلام وأشياء ومظاهر حضاريّة لها علاقة وطيدة بالعصر والبيئة اللّذين كتبت فيهما، ومن الصّعب نقلها إلى لغة أخرى. ثمّ إنّ المفهوم المعالج من خلال هذا النّصّ يقوم على هذا التوثيق الذي لا يمكن أن يبرز إلاّ من خلال النّصّ بلغته الأصلية. [المترجم].

مقدّمة عامّة لدراسة سيميائية المقروء والمرئي*

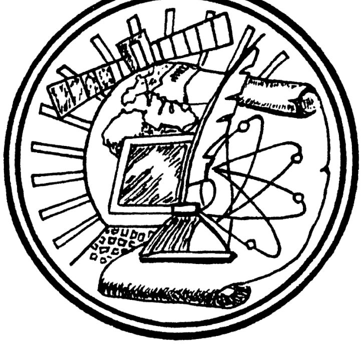

جوزيف كورتيس **ترجمة نادية بوشفرة**

الحالة الرّاهنة لــ"السيميائيات" بأوربا

إنّ عبارة سيميائيات(والتي تتقارب شكليا مع كلمات أخرى تشابهها صرفيا من ناحية النّطق، والتي تعدّ جديدة الاستعمال من مثل "المعلوميات"، "السيبرنيطيقيات"،" الآليات"، "الإنتاجيات"، إلخ) تبدو اليوم أيضا أقلّ معرفة بالنسبة إلى الجمهور الفرنسي، وتحديدا من هم بمجال العلوم الإنسانية1 (مع أنّها متداولة بكثرة بالانجليزية منذ نهاية القرن الماضي بتسمية SEMIOTICS) وهذا باختلاف القول مثلا بكلمة "سيميولوجيا"التي أحدثت موضة العصر بفرنسا في عهد رولان بارث، وهو الحامل لرتبة أستاذ بمدرسة فرنسا حينما عنون مؤلّفه "سيميولوجيا الموضة".

في الواقع، ركّز بارث في عمله على السيميولوجيا (التي اعتبرها بعد ف.دي سوسير بمثابة "دراسة العلامات") من وجهة نظر إيحائية2 (إذن هي ذات ميول "أدبية" و/أو "اجتماعية") أراد أن يبتعد قليلا عن السيميائيات خاصة في نهاية حياته–و حتّى يبقى مخلصا لما نادى به كلّ من دي سوسير و هيلمسليف–على اعتبار أنّها تقدّم كمنهج للتحليل حامل لل"علمية"(و القابل لإعادة الإنتاج من قِبل فاعل ما).

لقد نجح بارث في أن يجمع في مساره بين نقطة انطلاقه و نقصد ذلك النّاقد الأدبي الكبير و المشهور عالميا(خاصة لما نشره في مؤلّفه "درجة الصّفر في الكتابة" والذي لعب دور الوسيط للتعريف به) وعبقريته العظمى والمتمثلة في أنّه ظلّ غير قابل للتّقليد، ولهذا السبب لم يتمكّن من إقامة "مدرسة" خاصة: لا يستطيع أحد اليوم أن ينكر ما قدّمه بارث , وإن فعل فمن العبث كنيته ب"البارثي" حتّى وإن تمكن من العودة إلى مراجعه في كلّ مرّة والاستفادة من محطات أثره الدّالة.

ينبغي القول في هذا المطاف، إنّ عبارة سيميولوجيا كانت واسعة الاستعمال بفرنسا(ومنذ القرن 18 م) في المجال الطبّي للإشارة إلى ذلك العلم الذي يهتمّ بالأعراض وبعلامات الأمراض. ومنه، ومن باب المقارنة، كان

الانطباع العام للفظة سيميائيات غريبا ودخيلا على علم المصطلحات الفرنسي الكلاسيكي وعلى ثقافتنا اليونانية واللاّتينية، و كأنّه مصطلح مستورد من عالم تقني (لما يتّسم به من ملحق "ات" الحاضر بقوة في يومنا هذا) وفي المقابل يبدو وكأنّه ملك للعالم الأنجلوسكسوني.

يجدر بنا القول إنّ التأثير الشمال أمريكي، كان له الوقع العظيم لوجود السيميائيات والتي- في حدود العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة- تسرّبت إلى الأراضي الفرنسية ومسحت في طريقها القول بالسيميولوجيا: لا يمكن أبدا أن ننسى أنّه وتحت رعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة " UNESCO" وبفضل مساعي ر.جاكبسون تأسّست "الجمعية الدولية للسيميائيات" بكازيميارز(بولونيا) عام 1966، وقد اختارت أوّل كاتب عام لها، باحث كبير، معروف عالميا، إنّه أ.ج.غريماس.

أمّا من النّاحية الاشتقاقية، فلفظتا "سيميائيات" و"سيميولوجيا" تنحدران من أصل يوناني وتحيلان مباشرة إلى تصوّر العلامة، حتّى وإن وجدناهما في العشريات الأخيرة تأخذان طابع التباينات المختلفة، على الأقلّ في "المدارس" التي تصرّح بها.

في البداية، كانت للسيميولوجيا- ومنذ التّعريف الدّقيق الذي اقترحه دي سوسير [="العلم الذي يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية"]- مهمّة أساسية في جرد وتصنيف وتوظيف العلامات في عالم اجتماعي ثقافي معطى و معرّف تاريخيا.

من هذا المنظور، استطعنا تأسيس- وحسب ما يوافق عاداتنا الثقافية الغربية- أوّل تصنيف للعلامات، بالتّركيز على مختلف "قنوات" (المستقاة من الحواس الخمس المعروفة: الرّؤية، السمع، الشّم، الذّوق واللّمس) التواصل المتعلقة بالذّات: وهكذا تمّ التّمييز بين العلامات البصرية والسمعية والشّمية والذّوقية واللّمسية.

ثمّ إنّه، وفي وسط هذا الحقل الشاسع الذي تمثّله دراسة العلامات، جاء التمييز الواسع للمجال اللفظي: اللسانيات (باعتبارها وصفا وتحليلا "علميا" للغات الطبيعية)التي ازدهرت كثيرا خلال العشريات الأخيرة.

فسواء تعلّق الأمر بالصوتيات (=الدراسة الفيزيائية للأصوات) أم بعلم الأصوات (= تحليل الأصوات من وجهة نظر وظيفتها دلاليا) أم بعلم الصّرف (= بنيات و قواعد تشكّل الكلمات) أم التركيب (= الروابط التي تجمع بين كلمات الملفوظ الأصغر وبين القضايا) أم بما صدر مؤخّرا بعلم الدلالة (= تحليل المعاني التي تحملها الكلمات، الجمل، الخطابات..إلخ.)، فإنّ معظم الأبحاث التي أنجزت (وحتّى على الصّعيد المالي) كانت على حساب أنواع أخرى من الكلام، تلك التي لم تستفد من مزية وجود باحثين لها في الميدان.

هكذا، وعلى سبيل المثال، نجد المرئي- الذي استحوذ اليوم على عيشنا الاجتماعي والثّقافي (من الحضانة إلى الجامعة) وفق لعبة التطبيقات والاستراتيجيات التّجريبية- ما زال في حالة تمتمة فيما تعلّق بتحليله النّسقي والشّكلي، وخاصّة من وجهة نظر تلقيه وفهمه، وهذا على الرّغم من الأبحاث "الواعدة"3 – من الناحية التنظيرية

والمنهجية– لج.م. فلوش أو ل.ف.ثورلمان (اللّذين ينتميان مثلنا إلى "المدرسة السّيميائية بباريس" المؤسسة من قِبل غريماس).

صحيح أنّ بعض التعليمات العالية للسمعي البصري تلجأ إلى التّطبيق الوحيد الملموس، حيث إنّها تعرض عموما "وصفات" متعدّدة، هي معرفة فعل لممارسة فورية، حاملة لصفة التجريب، دون الاهتمام بالإشكالات الدّلالية الأكثر أهمية مثلا من تلك "القراءة" السيميائية للصور. من المؤسف أن نجد عناية وحيدة بإنتاج (بكل إجراءاته) السمعي البصري على حساب التأويل الملموس المنجز من قبل المتلقين، مع أنّ المقاربتين وهما مجتمعتان، تستطيعان أن تقدّما موضوع تكامل مثمر.

نفهم من هذا كلّه أنّ بعض الحملات الإشهارية مثلا، لقيت رواجا واسعا، في حين شهدت أخرى– والتي استثمرت اعتمادات هامة– فشلا ذريعا :هناك قوانين للخطاب (من لفظي أو مرئي أو الاثنين معا، لا يهم) حيث لا يمكنها أن تنفلت، دون أن تواجه خطر عدم فهمها كما يتمناه الخطاب. في هذه الحالة، لا يمكن للتّواصل الإشهاري أن يخضع لعدد معين من القوانين الأساسية التي تسعى السيميائيات إلى تحقيقها، أو على الأقل إلى إحداث بعض سبل المقاربة لها4.

إنّ امتحان الآليات التي تقيمها لعبة التّلقي و الفهم للمعطيات البصرية من طرف المشاهد، هي ذات تعقيد كبير، صحيح أنّه علاوة على الأشكال الأساسية التي أشرنا إليها، يوجد جزء كبير "للإبداع" الذي لا يمكنه هو الآخر أن يتملّص من أشكال أكثر أو أقلّ توقّعا وبنينة.

للأسف، توجد دراسات قليلة اهتمت بالحقل المرئي سواء على صعيد "السردية"(=أشكال القصة المقدّمة) أو على صعيد المعطيات الدلالية (=القيم المعروضة لتلقي استحسان الجمهور)، وبطبيعة الحال، هناك الكيفية (والوسائل المرتبطة و المتّبعة) للحكي من وجهة نظر محدّدة: في معظم الأوقات وخاصّة في الروابط المتعلّقة بالذّات، لا يكفي أن نقيم فعلا للمعرفة ولكن أيضا ينبغي أن نحقق فعل الاعتقاد، بالإقناع و بحمل مشاركة المرسل إليه.

بيد أنّنا نشكّ مع كل الأبحاث الرّاهنة فيما تعلّق مثلا بالمعرفة الآلية للصّور، أن نجد تداخلا ما بين المواد واختلافات محتملة بين مقاربات متعدّدة أكثر أو أقلّ "علمية": كالمعلوميات، وأيضا علم النّفس والسيميائيات وعلم الاجتماع والتّاريخ والفنون التّشكيلية..إلخ.

والحال كذلك بالنّسبة إلى السيميائيات الموسيقية (على الرّغم من الأبحاث الأولى لج.ج ناتييز أو ل.ن رووي) والفضائية اللّتين لا تزالان في مراحلهما الأولى للتّطور. هنا أيضا نجد التّقنية (أو إجراءات الإنتاج) تراعي عامّة التّفكير (قراءة الموضوعات المبنية) ولا يمكن أن يعارضنا القليل من الموسيقيين (أ. تاراستي مثلا مع هلنسكي) أو المعماريين السيميائيين (أ. رونيي أو م. حمّاد بفرنسا).

من دون شك، ولأجل فهم الموقف المترفّع الذي اتّخذته اللّسانيات، ينبغي أن نعلم أنّ الكثير من الكلام غير اللّفظي هو أكثر أو أقلّ ترجمة منه في شكله اللّفظي، في حين يظل العكس دائما بعيدا عن الاحتمال: فالخطاب الفلسفي، المنطقي أو الرّياضي – من الوجهة المفهومية- يصعب تمثّله من خلال شريط رسوم صامتة، فيما يمكن للقصة التي تحكيها أن تعبّر عنها في شكل لفظي.

هذا يعني أنّه يجب الإشارة إلى أنّ "الترجمة" المنجزة، تظل في الغالب أكثر افتقارا: فالتّقليد يفقد أساسه في إدراك المصلحة الدّلالية لما يتمّ حكيه لشخص أعمى مثلا، والرّسم أيضا، فمهما كان جيّد الوصف، مفصّلا بإتقان، يظلّ غير قابل للسرد أبدا: لأنّ السّند الدّالي (الأشكال، الألوان، المكوّنات...إلخ) هو حامل لثروة دلالية عظمى (أو تأويلية، إذن هي من نظام المدلول)، حيث لا يتأتّى للكلمات الأكثر انتقاء بأن تحلّ محلّه – محل الرّسم-.

وحتّى داخل مجال اللّسانيات، سنجد ترجمة القصيدة – التي تلعب على وتر الدّال (=أي ما يرى من خلال المعاني) أكثر من المدلول (=ما هو مفهوم)- مستحيلة تماما، لمّا يتمّ الانتقال من لغة طبيعية إلى أخرى.

وكذلك الأمر، حينما نتحدّث عن قصيد بودلير الذي لا يقبل البتّة ترجمته، إلى أيّة لغة طبيعية أخرى(يابانية أو رّوسية مثلا) ذلك لأنّه يعقد توليفات بين صعيد التّعبير(=الأصوات الفرنسية التي يستدعيها) وصعيد المحتوى (= "الأفكار" المعبّر عنها). بمقدور الياباني أو الرّوسي أن ينسخ المحتوى المحتمل(ربما دون صعوبة تذكر، نظرا للاختلافات في الأساس الاجتماعي الثقافي المسجلة عن اللّغتين) ولكن من غير الممكن أن ينقل لنا روابطه بالتعبير الفرنسي (باستخلاص الأصوات والفونيمات).

ولسبب أدلّ، نجد في مجال المعمار والبناء وفي إطار أوسع نتحدّث عن المحيط، أنّ كلّ تأويل لساني (في شكل كلمات) لا يمكنه طبعا أن يقيم العوالم الدّالة الموظّفة: الحل الوحيد هو أن يتجوّل المرء في المدينة الجديدة لأجل إعادة إدراك (تركيبيا ودلاليا) التّمفصلات الشاملة و/أو المحلّية وبالتّالي محاولة منه لاستشعار هذا الإحساس أو ذاك، ومنه "الحكي" بالتعبير اللفظي لما شاهده أو شعر به.

تاريخيا، صوّر دي سوسير اللّسانيات على أنّها جزء مكوّن للسيميولوجيا، حاول فيما بعد ر.بارث أن يعكس طرحه في مؤلّفه" عناصر السيميولوجيا" والتي تناولها كما هي أ.ج.غريماس في "المدرسة السيميائية بباريس" التي أسّسها.

واليوم أيضا، من باب الخطأ أن نعطي الأولوية للسانيات على الصّعيد التنظيري- حتّى و إن كانت في زمن مضى تنعت ب "العلم الرّائد" (ك.ليفي ستروس)- لأنّها لا تحقّق في الأخير سوى مقولة واحدة للعلامات: هكذا، تكون الخطّية والزّمنية (اللّتان تلعبان على ثنائية السابق عكس اللاّحق)، المحققتان في الكلام اللّفظي، غير موجودتين إطلاقا كما هما في العالم المرئي مثلا، الذي ينادي دوما بالاقتران والتّزامن.

غير أنّه – وللأسف، ودون شك بالنّسبة إلى جميع أنظمة التمثيل الأخرى المحتملة- يجب الاعتراف بأنّ اللّسانيات قد استحوذت على أرضيات البحث في علوم الكلام؛ تحاول اليوم أيضا، بصفة أقلّ ما يقال عنها إنّها غير واعية وحتى على مستوى الأصعدة التّعليمية والبيداغوجية، إقصاء خلفية الدّراسات المخصّصة لأشكال أخرى من الكلام، لأنّها من طبيعة أقلّ "علمية"، وبذلك فهي موسومة بأنّها غير جديرة للتصوّر في حقل "علوم الكلام". وما طّلبات العلوم المعرفية اليوم إلاّ أن تدعّم مقارباتها بإدراج اللّسانيات في متونها وذلك بالاستعمال الأقصى للجمل.

واليوم، كلّ ما يحدث و كأنّ السيميولوجيا (أو السيميائيات) لا ينبغي عليها أن تهتم باللّغات الطّبيعية، ذلك المجال الذي تحفّظ منه اللّسانيون (ذوو الملاحظات الصّارمة)؛ لكنّنا مع ذلك نعترف أنّه من حقها أن تدرس الشّفرات الأخرى- الممثّلة وكأنّها "قاصرة"، "هامشية" أو من الأفضل القول إنّها "ثانوية"، "مشتقة"- باستعمالها داخل التّواصل المتعلّق بالذّات(مثل قانون المرور، وشفرة اللباس، وتلك المتعلقة بالمعرفة وأيضا بالكتابة...).

هذا يعني أنّها ستظهر لنا و كأنّها سيميولوجيا من نوع "وظيفي"، لتعلن انتماءها إلى "نظرية التّواصل" الشّهيرة، حينما تحرص بشدة على علاقة الباث بالمتلقي، وعلى إجراءات التّرميز وفكّه، إلخ..حيث الملاءمة الدّلالية و التّركيبية تظلّ أبدا موضوعا مشتبها فيه: ذلك لأنّ "التّركيب" و"الدّلالة" مثّلا دوما على أنّهما مفاهيم خاصّة باللّسانيات (جملية) وحيث من غير المعقول استعمالها خارجها، عدا ما كان من قبيل المجازي.

نعلم أنّه، وحتّى داخل اللّسانيات، ظلّ علم الدّلالة مثلا، و خلال عقود مضت، يصارع لأجل الوصول إلى فرض وجوده، باعتباره مكوّنا فرعيا وثابتا، حاملا لإجراءات التحليل الخّاصّة به. ولا يمكن أبدا دحضه، لأنّه يكاد يقرض مضامينه من خلال عودته إلى علم المعاجم، حتّى و إن تغيّر عنوانه: يظلّ "علم الدلالة المعجمي" الجديد يعمل على المعالجة "الآلية" للغات الطّبيعية، وهو الأمر الصّعب الذي يصادف في طريقه مشاكل جمّة.

لكن بعيدا عن خصومات المدارس، برزت السيميائيات الأوربية المعاصرة وتفوّقت على الرّغم من كلّ العواصف و الزّوابع التي قصفت بها، فقد تسنّى لها أن تبسط مجال البحث إلى غاية تحليل النّصوص التي تخلّت عنها اللّسانيات التّقليدية (حيث يظلّ موضوعها الأقصى في الاحتمال، يقع في حدود الجملة).على أنّه، لا يمكن لأحد أن ينكر مثلا، "سيميائيات المحكي" ل.ن.إيفريريت ديسمادت (دي بويك 1988)، الذي وعلى الرّغم من دقّة تحليلها و تقديمها التعليمي الرّائع، لم يلق عملها هذا استحسانا من اللّسانيين "المتزمّتين و المعسّرين". الأمر نفسه، لمؤلّف حديث العهد عن سابقه، مثل الذي خصّص ل"التّحليل السيميائي للخطاب: من الملفوظ إلى التّلفظ" (ج.كورتيس، آشات، 1991) الذي اعتبر خرقا عند اللسانيين المعروفين ب"ولائهم العظيم والصارم" وأنّه مؤلّف "أدبي" (وبمعنى يفهم منه بأنّه تحقيري) لا دلالي أو بلاغي أو حتّى أسلوبي.

ذلك لأنّ اللّسانيين التّقليديين ظلّوا يشكّكون في الطّابع "العلمي" لكلّ بحث (و في الحالة الرّاهنة نتحدّث عن التركيب الصّرفي) متجاوزين حدود الجملة (التي يضعونها هم أنفسهم وكأنّها مسلّمة لا نهاية لها)؛ والأكثر من ذلك

نجدهم مرّات، يفحصون بصفة عشوائية بعض التسلسلات الموجودة بين الجمل، لكن بطريقة جزئية (مثلا، هذا هو حال علاقات الافتراض، أو في دراسة الواصلات بين القضايا، مثلما قدّمها أ.دوكرو، والذي يبتعد كثيرا عن آراء بعض اللّسانيين !)، على كلّ حال، دون أن تطمح إلى التّكفّل بالوصف التّركيبي والدّلالي لكلّ الخطاب المعطى وعلى المستوى الأشمل.

لنترك جميع التّحفّظات و الانتقادات، والتي نجد أن بعضها مبرر في الحقيقة، لنقول إنّ السيميائيات تكوّنت شيئا فشيئا بفرنسا، و انتشرت بشكل واسع في أوربا، منذ سنوات 1960، خاصّة تحت التحفيزات القوية لأ.ج.غريماس، حيث ظهرت كمادة حقيقية: هذا ما لا تشهد له الكتب المدرسية فحسب، لكن أيضا العدد الكبير من مِنح التّكوين المتواصل لأساتذة التعليم الثانوي، والذين انتقلوا في السّنوات الأخيرة إلى التطبيق السيميائي، وإلى غاية فتح مسابقات مفتوحة للأساتذة.

2. المسارات المتّبعة

1.2 مسلّمات الإنطلاق

إنّ ما تتّسم به السيميائيات الحديثة هو أنّها لا تبحث عن تأسيس تصنيف لا نزاع فيه وعالمي "للعلامات"(بالمعنى الجاري للفظة)- حتّى وإن كان هذا ضروريا وهامّا، خاصّة على الصّعيد الأنثربولوجي- كما كانت تفعل قبلها السيميولوجيا، لكن بمعرفة ما يحدث "تحت العلامات" أو "ما بين العلامات"، ما هو قاعدة لعلاقات المشاركة فيها، حيث يشعّ المعنى بكلّ درجاته، بكلّ وصفات التّغيّر التي تصاحبه.

من ف. دي سوسير، الذي كان ينظر أساسا إلى العلامة (اللّسانية) على أنها كلّية ، ننتقل إذن إلى اللّساني الدّنماركي الكبير ل.هيلمسليف (والذي استمدّ منه غريماس بعض طروحاته) الذي درس مكوّنات العلامات (مهما كانت) و فحص علاقاتها الدّاخلية.

تتعلّق الخطوة الأولى بتفرقة منهجية لوجهي الكلام(="صعيد التّعبير" و"صعيد المحتوى" اللذين، وحسب مصادقتنا لهما، يعدّان بمثابة "الدّال" و"المدلول" عند دي سوسير)، قابل كلّ واحد منهما لأن يكون موضوع تحليل متميّز، ومن ثمّ دراسة علاقاتهما الدّاخلية: فمثلا، في حالة الكلام الشّعري أو المرئي، القائمين على التّزامن ما بين صعيدي الكلام لإنتاج المعنى.

بطبيعة الحال، هذه فرضية عمل لا يمكن تحديدها على بعض القطاعات الخّاصّة؛ فميدان استثمارها يمتدّ إلى جميع أنواع الكلام الممكنة، قابلة لأن تلائم طبيعيا خصوصياتها: فالإشهار أو القصيد غير قابلين للتحليل مثل شعر أو فضاء مسكون، حتّى وإن كان لكل واحد منهما "موضوعاته" السيميائية وبالطّبع حاملا لمعنى معيّن.

هذا يعني، أنّ الهدف الذي أعلنته السيميائيات- وهنا بالذات موقع اختلافها مع "السيميولوجيا" ل. ل.ج.بريتو أو لج.مونان- هو إذن أقلّ من دراسة للتواصل (حتّى و إن كانت الأكثر أهمية، كما سنراه لاحقا) عنه من الدّلالة المتّسمة بالتّوسع سواء على المستوى الإيحائي أم غير الإيحائي، وسواء على صعيد الملفوظ (التّركيب و الدّلالة)- والمستخرج من التّحليل الموضوعي للرّسائل (سواء كانت جرسية، مرئية، إشارية، إلخ..) أم على مستوى التّلفظ (ذي الطّابع التّداولي5) الذي يلعب على شروط إنتاج المعنى وعلاقاتها بالسّياق وبالمتخاطبين..إلخ.

وباختصار، نقول إنّ العلامات كما هي ليست الموضوع الأخير للسيميائيات، لكنّها نقطة انطلاقها المفروضة عليها. وبالطّبع، تشتغل السيميائيات مبدئيا على جميع العلامات الممكنة، وليس فقط على العلامة اللّسانية: بدليل أنّنا نتحدّث مرّات عن "السيميائيات اللّسانية" (عبارة اقترحها منذ عهد قريب أ.ج.غريماس وتناولها كريستيان ماتز، المختصّ في سيميائيات السينما)، في حدود اشتغال علوم المناهج جزئيا عليها واعتمادها مثلا على مكتسبات الأبحاث المثمرة للسانيات الصّوتية أو الجملية.

من الواضح أنّ- وباختلاف أنواع أخرى للمقاربة السيميائية- المواقف النّظرية الأساسية لواحد مثل أ.ج.غريماس الذي نتقاسمها معه، ترتبط بقوة باللّسانيات أكثر من الأنثربولوجيا أو علم الاجتماع مثلا، حتّى وإن كان التّصريح بالعودة هنا وهناك لمواد("الشّكلانيين" الرّوس، مثل بروب أو ي. لوتمان، و"البنيويين" الفرنسيين مثل الأنتروبولوجي ك. ليفي ستروس أو حتّى " لعلماء الاجتماع الجدد" من مثل ب. بورديو).

نحن نعلم أنّ العلامة (أو"الممثّل" كما يصطلح عليها ش.س.بيرس) هي دوما علامة لشيء آخر، على الأقلّ لعلامة أخرى ("مؤوّلها") وفي هذه الحالة الأخيرة، سنحاول الحديث عن سيميوزيس غير محدودة (مثلما يشير إليها كلّ قاموس للغة، حيث تحيل كلّ كلمة إلى كلمات أخرى، إلى ما لا نهاية، حسب مبدأ الانتقال).

فالأمر هنا متعلّق بإحداث لاصقة للعالم من خلال استعمال العلامات (وحسب علاقة العلامة بالمرجع: مثل قانون المرور، حيث يستخدم "الأحمر" على أنّه علامة المنع)، التي تبدو غالبا ذات نظام تعاقدي (متعلّق بالطّبيعة "الاعتباطية" للعلامة) داخل فريق اجتماعي معطى. أمر آخر أيضا، يجب التّسليم به، وهو أنّ العلامات فيما بينها، لديها علاقات ليست بالضّرورة ذات صلةّ مباشرة مع العالم في حدّ ذاته، وأنّها قابلة لأن تحلّل حسب المبدأ القائل بالمحايثة، مستقلا إذن عن "الواقع": سيتعرّف الكلّ بعفوية إلى أنّ "الخمر الأحمر"ليس في الحقيقة أحمر، و"الخمر الأبيض" ليس هو الآخر أبيض.

على كلّ حال، فإنّ رد العلامات إلى مرجع واحد و إلى "الحقيقة"، يعني استحالة تحليل كذا معطيات لسانية، لسبب أقوى نجده في كلّ خطاب شعري، حلمي، عجائبي، إلخ. و ماذا نفعل إذن ب" الواصلات" (من مثل الوحدات اللّسانية التي هي "أنا"، "هنا"، "الآن") و أسماء الإشارة ("هذا"، "هذه") وعدد من الظروف (ما بين، ظرف المكان أو ظرف الزمان: "هناك"، "قريب من هنا"، "إلى هناك"، "في شهر"، إلخ..) أو النّعوت التّقويمية("رائع"، "ضخم"،

إلخ..)التي لا تحمل أبدا مرجعا ثابتا في التعريف بها، إنّما يظلّ "يطفو على السّطح" ليحيل في كلّ مرّة إلى وضعية للتواصل، و لتلفظ معطى؟.

وتتعقّد الوضعية أكثر لدرجة اليأس في المجال المرئي. فنحن نرى مثلا أنّ قيمة "الأحمر" تتعدّد وجوهه أكثر بحسب البلدان، وحسب أيضا– وفي إطار ثقافة معطاة – السّياقات التي يظهر فيها: لا يمكن لأحد أن يمنحه، بالرّسم مثلا قيمة أحادية في عالمنا الغربي: إنّه يتوقّف على علاقته بالألوان والأصباغ الأخرى، الأشكال المحيطة به، إلخ... ومن باب الحدّوثة، نذكّر أنّه، كان لبعض المطاعم في الماضي، قاعات أكل ملوّنة بالأحمر: والغرض من ذلك، في ظنّهم، التّعجيل بتحضير الغذاء للزّبائن.. ! لكن لا– مثلما هو الحال في قانون المرور– ذلك يشير إلى المنع.

ما نودّ قوله أكثر، هو أنّ ما هو ملموس، يتجلّى في أنّ العلامة لا تأتي أبدا وحيدة، إنّما تحيل دوما إلى علامة أخرى حتّى وإن كانت هذه مغيّبة. إذا قلت مثلا:" جدران هذه الغرفة هي بلون أصفر فاتح"، أو "أبيض مائل للإصفرار"، "الأصفر الفاتح" و"الأبيض المائل للإصفرار" لا يحملان معنى إلاّ من خلال إدراجهما في أنظمة الألوان، والأصباغ، ودرجات الألوان داخل عالم اجتماعي و ثقافي معطى (و بالخصوص مادة بناء السّكن في نظر عادات جماعة معيّنة).

بتعبير آخر نقول، كلّ علامة تسجّل نفسها داخل المجموعة، حيث تحتلّ داخلها مكانة معلومة، وبالطّبع متغيّرة بحسب الثّقافات (بحدودها التّاريخية والجغرافية) وسياقات الاستعمال.

ولهذا السّبب، وكما أسلفنا الذّكر، لا توجد إطلاقا رمزية حقيقية عالمية. حتّى الوحدات القاعدية ("ماء"، "تراب"، "هواء" و "نار")– حيث حدّثنا باشلار عنها جيّدا في إطار عالمنا الغربي– غير مجسّدة في كلّ الثّقافات (أو حتّى إذا ما صادفناها، نجدها تكتسب تأويلات دلالية مختلفة): في الصّين مثلا، لا يؤخذ "الهواء" بعين الاعتبار، لكن في المقابل يأتي الاهتمام "بالخشب" و"المعدن"...

في هذا الإطار، نسجّل في هذا المقطع أنّ العلامات لا روابط لها فيما بينها إلاّ إذا وضعت على الأقلّ سمة واحدة تعيّن الاختلاف بينها (إنّها قاعدة للغيرية وللتعارض) وحدّدت على الأقلّ عنصرا للتّشابه(منشئا لاعتماد الهوية، الذي يلزم تقاربهما): بطبيعة الحال، نجد لعبة الغيرية والهوية غير مدركة إلاّ في إطار عالم خطاب معطى، و الأكثر من ذلك في مجموعة دالّة خاصّة: وفي مثالنا ل"الأصفر الفاتح" و"الأبيض المائل للإصفرار"، يتعلّق الأمر بعالم الألوان المستعملة لطلاء غرف بيت، لبناء معطى.

في هذا المنظور، سنفهم أنّ الأولوية ستمنح للعلاقات بين الألفاظ: "في اللّغة، توجد فقط الاختلافات، دون ألفاظ إيجابية"؛ هذا مبدأ ف. دي سوسير، وقد تعلّق في البدء باللّغات الطّبيعية فقط، ويبدو أنّه بدأ ينتشر ليشمل مجموع الموضوعات السيميائية الممكنة، بمعنى لكلّ المجموعات الدّالّة. فكيف باستطاعتنا مثلا، أن نعرّف "الأصفر" في تفرّده واستقلاليته عن الرّوابط الأخرى التي تشدّه إلى الألوان الأخرى؟

لا يعني ذلك هنا، وفي هذا المنعطف، أن نتوقّ إلى إنكار"الحقيقة"؛ ببساطة، ينبغي أن نعترف مثلا "بما هو معيش" – مثله مثل أنظمة التّمثيل التي نجدها في "الكلام"– الذي هو أيضا على علاقة الدّال عكس المدلول (إذ من دونه، لا يحمل معنى). على سبيل المثال، نجد في محادثة بين شخصين في الشّارع، ومن خلال التّقليد والتّصرّف بالإشارة، أنّ هذه الطرق لا تختلف عن الموضوع الذي يتبادلان فيه أطراف الحديث.

إنّه بقدر ما يجب أن يمنح للمرء معنى، ينبغي عليه أن يمثّل العالم الطبيعي (و بالمعنى الواسع "الحقيقة") وكأنّه كلام حقيقي، وكأنّه موضوع سيميائي قابل للمقارنة بينه وبين اللّغات الطّبيعية أو الصّور التي يمكن له أن يتواشج معها باختلاف الثقافات في النّظام المرئي.

إنّ صعوبات التّحليل السيميائي، وحدها، جعلتنا نستهلّ دراستنا و نولي الأهمية ل"التّظاهر" ول"كائنات من ورق" كما كان يقول أ.ج.غريماس مازحا في وصف النّصوص. إنّ الفضائية والإشارية والمكانية (في الحديث عن المسافات القريبة)، إلخ. هي مقاربات لا تزال في حالة مشروع، ولنتصوّر إذن، كلّ الأهمية في علاقاتها بالذّات والمجتمعات.

نحن نعلم مثلا، أنّ هناك توزيعات فضائية للقائمين بالفعل Acteurs(و لتنقّلاتهم الممكنة)، المرتبطة بالقدرة أو بالحراسة، والذين يكونون أحد أسباب التّدهور البشري داخل جماعة معطاة. هكذا، تنزع التّنظيمة الفضائية، الزّمانية، الفاعلية للعمل هي أيضا وضمن مقاربات أخرى محتملة (نفسية، اجتماعية، إقتصادية، إلخ..)إلى التّحليل السيميائي، حيث تكمن الأهمية في السيميائية المسمّاة "للفعل".

هذا يعني أنّ "السيميائيات غير موجودة: في حين، هنالك مناهج متعدّدة للسيميائيات، لديها على الأقلّ ما تشترك فيه من خلال الاعتراف بوجود رابط وبالأحرى تكامل (مؤوّل بلفظ علاقة الافتراض المتبادلة) بين الدّال والمدلول، بين صعيد التّعبير و صعيد المحتوى6.

لا تمنع هذه النّقطة المشتركة الأساسية من ظهور سريع جدّا – مثلا في نظر اتّخاذها "للمرجع" أو استثنائها منه (=العالم الذي يحيل إليه الخطاب دوما)– للاختلافات النظرية و المنهجية الكبيرة، حتّى و إن كان الرّهان المشاطر عليه هو البحث عن قواعد توظيف المعنى في أيّ مجال كان، سواء كان مفهوميا (كلّ ما يستخرج من الأبنية الذّهنية) أم إدراكيا أم شعوريا (سمعي، بصري، شمّي، لمسي، ذوقي).

إنّ في تعدّدية "المدارس" ثروة عظمى (هي في حدّ ذاتها توظّف نقاط انطلاقها المختلفة و الممكنة مثل: اللّسانيات، الفلسفة، التّاريخ، علم الاجتماع، علم النّفس، الأنثروبولوجيا، إلخ..)، وضمان لأن لا تفرغ في أيّة دوغمائية عقيمة، تسدّ الباب في وجه كلّ بحث جديد. من جهة ثانية، فإنّ داخل المدرسة الواحدة، يحلّل الباحثون الموضوع الواحد السيميائي المعطى، وهم قادرون على افتراض أوصاف قلّ أو عظم اختلافها، وذلك وفق محتوى كفاءاتهم.

بهذا المعنى، نستطيع القول إنّ كلّ سيميائية تستخرج أكثر من نظام "الاشتغال" عنه من معرفة مضمونة، أدقّ شكلنة. ونحن نعلم أنّ العلوم، حتّى و إن عرفت دوما "بصرامتها"، مثل المنطق، لن تنزاح أبدا و في جزء منها عن كونها "غامضة".

نجد السيميائيات هنا موصى بها و مصوّرة بشكل واسع- لأنّه، مهما كان المسار المنهجي المختار، يجب بالضّرورة الاعتماد على المسلّمات الأوّلية- انطلاقا من المبدأ القائل بأنّ كلّ كلام معطى (لفظي أو غير لفظي) يشمل خصوصيتين أساسيتين. من جهة، ولكي يكون، ينبغي للكلام أن يلعب على الأقلّ على العلاقة (و من ثمّ التّمييز و التّكامل) بين الدّال والمدلول. نقول عنه إذن، إنّه "مزدوج التّركيب":يكون الشيء مثلا، ما أراه و ما أسمعه، و شيء آخر يتمثّل في الدّلالة التي أمنحها له.

لنأخذ شريط رسوم صامتة: ترى عيناي خطوطا و أشكالا و أسطحا و ألوانا (كلّ ما يؤخذ إذن عن الدّال وعن الإدراك البصري، وهنا نجده من نظام "التّحليق" ببعدين اثنين) أكثر من جهاز ميكانيكي يستطيع التسجيل أو إعادة الإنتاج، وفي الوقت نفسه،على صعيد المدلول، أفهم شيئا آخر، أعلم القصّة التي حكيت لي؛ مستندا إلى المعطيات الإدراكية، إنّني أرتّبها، أدرّجها، أنظّمها و أستخرج الدّلالة التي هي من نظام آخر.

والأمر مختلف إذا ما امتلكنا مركّبا لفكّ الشّفرة الدّلالية الموافقة له، مبدئيا لن يستطيع أيّ جهاز أن يقتحم هذا المستوى من إدراك المعنى. هذا يعني أنّ هدف السيميائيات و همّها الأوّل هو التّصريح، في شكل بناء مفهومي بشروط الإدراك و إنتاج المعنى، مهما كانت أسناد الدّال فيها.

يجب أن ندقّق هنا في أنّ السيميائيات - واعية بتخومها و احتمالاتها- لا تمدّنا بموضوع للتّحليل إلاّ كما اقترحنا تسميته من قبل7 "بالدّلالة الابتدائية"، تاركة المجال لمواد أخرى ما يمكن أن تتّسم به من حيث "الدّلالات الثّانوية".

إنّ الدّلالة الابتدائية (المسمّاة أيضا "باللّسانية" في حالة الكلام اللّفظي) هي الوحيدة التي تتعاطى التّحليل السيميائي: كما يشير إلى ذلك نعتها، فلا طموح لها مسبقا وأساسا، إلا بخدمة الفهم الأكثر عمقا، ذلك الذي، تحملها له العلوم الإنسانية الأخرى حقّا.

ولتكن مثلا، القصة البسيطة أو الحكاية المعروفة مثل "البنت ذات القلنسوة الصّغيرة الحمراء"8. نسمّي "الدّلالة الابتدائية" تلك التي في متناول كلّ مستمع يستمع إلى هذا المحكي، ولكلّ قرّاء هذه القصة، بمن فيهم الأولاد الصّغار: هذا ما ينطبق جيّدا على معنى علوم الكلام، التي، جميعها، (أيضا مثلا، على علم الأصوات وعلى علم التّركيب وعلم المعاجم أو على علم الدّلالة) هي مجبرة على التّسليم بوجود "مخاطَب معتدل" الذي سيوجّه له هذا الملفوظ إمّا صوتيا، تركيبيا أو دلاليا أكثر أو أقلّ قبولا لديه.

هذا يعني، أنّه يوجد هذا الشّخص أو ذاك، مقابلا للحكاية ، قادرا على إنشاء قراءة دلالية أكثر غنى: إذا كان للأولاد صلة بالدّلالة الابتدائية، فإنّ بعضا من الرّاشدين، و بفعل معارفهم الموسوعية الكبيرة، ستكون بحوزتهم تأويلات إضافية، أكثر غنى وأشدّ تعقيدا: وإذن، سيساهم عالم الاجتماع، الأنثولوجي، المؤرّخ، النّفساني، الفلكلوري، إلخ..في الحكاية بدلالات أخرى، أكثر إيضاحا واستجلاءً: هذه هي التي نشير إليها بتسمية "الدلالات الثّانوية" من منطلق أنّها تفترض جميعها، مستوى "ابتدائيا".

سنسجّل إذن، أنّ " الدّلالة الابتدائية"- توافق عموما المستوى الأدنى للفهم الحقيقي- و"الدّلالة الثّانوية"- من طبيعة موسوعية (حسب معنى أ.إيكو)- لا تتعارضان قطّ : يأتي التّمييز بينهما شكليا، لا ريب، لكن أيضا، هما على الأساس متكاملتان، والانتقال من الواحدة إلى الأخرى، يتمّ طبيعيا لموضوع معطى، و بصفة نظامية. هذا ما يفسّر أنّ السيميائي، بدوره لا يمكنه أبدا أن يفترض، وبصفة قطعية، جازمة، بنينة أكيدة للموضوع الذي يدرسه: المعنى الذي يتحرّى البحث عنه، يظلّ دوما "غير ثابت".

فبالاكتساب التّطوّري للمعرفة الزّائدة، سيغني الطّفل من جهته الحكاية بدلالات جديدة. من هنا ينبغي الاعتراف بأنّ العلوم الإنسانية المتعدّدة، غير السيميائيات، هي الأخرى تبحث عن تأويلات، هي سبل تتصل فيما بينها من حيث القصد المشترك للوصول إلى العمق الأفضل، وهذا دون أن يحدث ذلك تنافسا أو تسلّطا بين مستويي الدّلالة، الابتدائية و الثّانوية.

إنّ الحديث عن "الدّلالة الابتدائية" يعني بالتّأكيد التّسليم بأنّ الموضوع المحلّل هو أكثر غنى: في النّطاق ذاته، لن تستوفيه "الدّلالات الثّانوية" حقّه دون شكّ. فإذا ما وجدت دلالة لمعطى ما، فذلك يعني مسبقا أنّنا نقيم مسافة بين الفاعل (الذي يكون موضوعه دالاّ) و الموضوع (الذي يسخّر نفسه خشية من الفاعل): ومن الطبيعي، أن تختلف وجهات النّظر الدّلالية حسب الأشخاص والأزمنة والأمكنة، لكن أيضا حسب الكيفية التي يقدّم بها الموضوع للفاعل المؤوّل.

بمعنى آخر نقول، إنّ دراسة موضوع سيميائي، تعني التّطرق لوجهة نظر واحدة أو لوجهات نظر متعدّدة (تكاملية إن أمكن): فمهما كانت الطّريقة المتّبعة، يظل الموضوع حاملا للجديد دائما، بمعنى أنّ هنالك أوجها له مختفية، لم يتمّ إدراكها في الوقت ذاته. بالتّعريف، لن يكون أيّ تحليل كاملا، و منتهيا ما دام فيه غياب للشّراكة بين الفاعل و الموضوع، وما دام هناك هذا الخيار –الضّروري- لمستوى الملاءمة الذي بدونه يكون التّحليل مستحيلا.

أكثر من ذلك، فإنّ في تبنّي وجهة نظر معطاة – مثلما ألمعنا الذّكر سالفا- تحقيقا لإشكالية ما. لقد سبق وأن تحدّثنا عن "المخاطَب المعتدل"، المسلّم به لزوما من قِبل مجموع علوم الكلام؛ يتعلّق الأمر هنا طبعا، بخيال صِرف، ولهذا السّبب سنعود إليه لاحقا، هنا أو هناك، حول ما سمّيناه، منذ وضعنا العنوان الفرعي لهذا المؤلّف "بعدم ثبات المعنى": بالفعل، فإنّ من هو على محكّ اللّعبة، هو من يكتب و من يتحدّث و من يرسم، إلخ..- إنّه

المرسل أو بالأحرى المتلفِّظ- الذي لن يكون بالضّرورة متماشيا بالدّرجة نفسها مع المرسل إليه (أو المتلفَظ له، الذي توجّه له الرّسالة) الذي يقرأها، يسمعها، يراها، إلخ..

بالنّسبة لطرفي اللّعبة، فإنّ المعنى لن يكون بالضّرورة هو نفسه. وكلّ واحد منّا يعلم أنّ الكلمات نفسها- أو الصّور نفسها- لا تحمل بالضّرورة الدّلالة نفسها وذلك حسب تبنّينا لوجهة نظر المتلفّظ (أو الباث) أو المتلفظ له (أو المتلقي).

من جهة أخرى و لأجل العودة إلى مقاربة أكثر شكلية، تسلّم السيميائية بأنّ كلّ كلام هو قابل للتمفصل، بمعنى أنّه يعاين وحدات مميّزة، قادرة على إقامة أنواع من العلاقات المختلفة، سواء على مستوى "النّظام" (=أنواع الوحدات والقواعد التي يتضمّنها الكلام المعرّف) أم على مستوى "العملية" (=تنفيذ ملموس للكلام المعطى، تسلسل الوحدات، العلاقات بين مقطوعات الوحدات، إلخ..).

بيد أنّه، في نقطة الانطلاق، يجب على الأقلّ التّأكيد بأنّ كلّ كلام مستخلص من نظام اللاّ متواصل Discontinu: قواعد "الإبدال" (حسب المبدأ القائل بأنّ في كلّ تغيير للدّال، يأتي التّعديل في المدلول، و العكس صحيح: وهو الأكثر تكررا) والاستتباع ب"الإحلال" (و حسب المبدأ القائل بأنّ كلّ تغيير في الدّال لا يجرّ وراءه تعديلا على صعيد المدلول، مثلما هو الحال في شرح المفردات، والعكس صحيح، مع التّجانسات التي تجمع الدّال الواحد بمدلولات مختلفة)، تسمح باستخراج، و بطريقة دقيقة، الوحدات المعنية في اللّعبة.

في الحقيقة، يبدو لنا من اللاّزم، من وجهة نظر اصطلاحية إحلال- منذ البداية- لفظ فارق Discret بدل اللاّمتواصل. ففي مجال اللّسانيات، يرتبط المتواصل Continu عموما بتصوّر "التّسلسل النّظمي": فالكلمة، مثلا تتكوّن من تسلسل للمقاطع، مشكّلة (صرفيا و خاصة دلاليا) الكلّ.

الأمر نفسه، سيكون اللاّمتواصل مرتبطا باللاّتسلسل الفوري على المحور النّظمي، وعلى هذا الأساس لن يستطيع موافقة وحدة معطاة. لهذا، نلاحظ في الفرنسية مثلا، يأتي النّفي ب"ne... pas" على أنّه وحدة، وفي الوقت نفسه ليس من نظام المتواصل، إنّما هو كما نعتقد، ينتمي إلى اللاّمتواصل. ينبغي إذن الاعتراف بأنّه توجد داخل الكلام اللّفظي وحدات – بالتّعريف، تأتي "فارقة"- هي من قبيل نظام المتواصل. هذا يعني، أنّ مفهوم اللاّمتواصل لا يسمح دائما بالتّعريف بوحداته.

ينبغي ألاّ نخلط بين اللاّمتواصل – الذي يحيل بالضّرورة إلى النّظام التّركيبي- والفارق الذي يعتبر التّصوّر الوحيد القادر على أن يكون أساسا لتحديد الوحدات المشكّلة لخطاب معطى.

يصحّ ذلك ليس فقط في المجال اللّساني (مثلما هو الحال مع "ne... pas" التي أثرناها سابقا) و لكن أيضا في الحديث عن النّظام المرئيVisuel : الموضوع المعطى نفسه، والواقع خلفا، بإمكانه أن يدارى جزئيا، من خلال تطابق صورة أخرى له؛ فالموضوع المقول، هو بهذا الفعل ممثّلا بطريقة اللاّمتواصل، ولكنّه لا يشكّل أبدا وحدة

فارقة (من وجهة نظر دلالية) بالقياس إلى الصّورة الأخرى التي تظهر لنا متموقعة في الأمام (و في إطار العودة إلى خيال المنظور طبعا).

إنّ الانتقال من المتواصل (المعيش، الموضوع التّجريبي) إلى اللاّمتواصل أو من الأفضل القول بالفارق (حيث تسجّل وحدات الموضوع مباشرة بعد إخضاعه للتّحليل)- الذي يبدو و للوهلة الأولى، متعلّقا بالمسيرة العلمية (في علم النّبات، و في الكيمياء، إلخ..)- قد يخلق مشاكل عديدة، لأنّه لا يكون ممكنا إلاّ من خلال توظيف مبدأ التّجريد (فمن الطّبيعي أن يترك اختيارنا لمستوى الملاءمة جميع المعطيات التي لا تستخرج منه).

وهكذا، فإنّ تمفصل هذا المستمر المادي الذي هو "شجرة"(كما تقدّم لنا في اللّحظة التي نودّ غرسها) ب"جذور" و"ساق" (أو "سويقة") و"بغصون" و"براعم"، إلخ..يفترض اختيارا لوجهة نظر خاصّة، لا يهتمّ مثلا بالانتقال المتواصل للنّسغ من طرف إلى آخر لهذه الشّجرة.

وأمام الموضوع المعطى، فإنّه من المستحيل وصفه بالكامل، لأنّه حامل لأوجه، يمكن ضبطها و إدراكها من وجهات نظر مختلفة تماما. فباقة من الورود ليست لها الدّلالة نفسها عند العاشق الذي يهديها لحبيبته، وعالم النّبات الذي يصنّف هذه النّبتة مع نباتات أخرى والبستانيّ الذي يهتمّ يوما بعد يوم بقصة تلك الورود وازدهارها، وصيرورتها، وببائع الزّهور الذي يهتمّ بها من وجهة نظر جمالية، وأيضا من زاوية اقتصادية، إلخ...

هذا يعني، في اللّسانيات، أنّنا نستنتج حاليا ما يشبه الرّجوع الجزئي، صحيح أنّه محدود نسبيا، بالمتواصل، إلى عدم الثّبات، بالتّوازي دائما مع الاعتراف "بالمجموعات الغامضة" مثلا، أو ب"منطق الارتياب". يدخل هذا فيما يسمّى "بالإبستيمي" أو "التّركيب" الذي له نكهة خاصّة اليوم، والذي يتعارض مع موجة "البنيوية" (الممثّلة بأنّها أكثر "دقّة" أو أكثر "جمودا" في سنوات 1960-1970).

واليوم، ونحن في هذا العقد الأخير من القرن، نسجّل أنّ "المعرفية" تظهر وكأنّها تحلّ الضّبابية: فدقّة التّحديد التي تبدو مفروضة في علاقة الإنسان/ بالآلة، تظهر في أنّها ترمي بخطوتها على الارتياب، على "الغموض"...ربّما هذا ما يفسّر نوعا آخر من "الموضة"، هي أيضا متنقّلة، لا تدوم.. ! في المقابل، نجد السيميائيات، خاصّة تلك التي تدّعي أنّها "متميّزة"، هي بوعي منها أو بغير وعي، تبحث عن وضعية أنطولوجية – علم الكائنات- ثابتة (ذات أساس أدبي، نفسي و/ أو فلسفي) تبدو لنا شخصيا، نوعا ما في غير مكانها، وعلى كلّ حال غير مضبوطة منهجيا.

بناءً على ذلك، يوجد نوع آخر من المقاربة، هو حاليا في طريق الاستكشاف من وجهة نظر "علمية "خالصة (أو بالأحرى من منظور علمي، بمعنى معاد إنتاجه من قِبل فاعل ما)، وهو يبحث عن إقامة بعض التظّاهرات السّيميائية في طبيعتها و التي لا يمكن دحضها، فهي تستخرج من نظام المتواصل.

حتّى إنّ بعض الأبحاث في دراسة الأهواء والأحاسيس وحالات الرّوح، مثلما هي على الأقل موصوفة في النّصوص أو الصّور، تحيلنا إلى معرفة التّشابكات والانزلاقات بين الوحدات المعروفة مسبقا والمنظّمة حسب نموذج سردي ، تركيبي، هو من نظام الفارق.

هكذا، تستطيع ظواهر معيّنة أن تطرح السّؤال مثلا حول المسافة المقدّمة (منهجيا) بين الفاعل والموضوع؛ والأمر كذلك في المجال الجمالي، فلن نستطيع القول بمَن هو الأسبق، الفاعل(النّاظر أو السّامع) أم الموضوع (المنظور أو المسموع): هذا ما يرتبط عفويا، بإشكالية عدم ثبات المعنى.

بالتّأكيد، يمكننا أن نحذف كلّ مسافة بين الفاعل و الموضوع، و لكن بلا شكّ، ليس بالإمكان أن يكون أيّ تحليل سيميائي حقيقيا (أو بالمعنى الواسع علميا). عاطفيا، يظهر التّوحّد- الموافق للاختفاء الخالص والبسيط للوحدات المعنية- على أنّه الحلّ الأنسب: لكن كيف العمل من وجهة النّظر التّحليلية، التي تلعب دورها على مستوى اللاّمتواصل؟.

سنلاحظ أيضا أنّ التّقسيم الدّقيق (و الذي يستخرج منه علم العروض مثلا، في المجال اللّفظي) لا ينتمي إلى صعيد التّعبير: سيتواجد أكثر على مستوى المضمون في حالة الإيقاع الدّلالي، مثلما يمكننا أن نحدّده، والأمر كذلك، حينما يأتي الحديث عن "التّأزم" في الرّواية، حيث لا يرتبط ضرب المعنى بهذه الكلمة أو تلك، لكن بكلّ المجموعة النّظمية المعطاة، والتي هي من طبيعة دلالية. نشير في هذه الوقفة، إلى أنّ الإيقاع غير متعلّق بالكلام اللّفظي فحسب، إنّما نجده أيضا في المجال المرئي، الإشاري، إلخ..و بالوضعية نفسها التي تستخرج من المتواصل.

والحال نفسه، مثلما اقترحه فيما مضى م.بالبريقة M. Ballabriga ، إذ ليس من المستحيل تصوير، في بعض الحالات، تحليل سيمي9 يتعدّى حدود إطار الوحدات المعجمية (أو، بالأحرى نقول "السيميمات" بمعنى الكلمات في السياق) والتي وظّفت كنقطة انطلاق له، فاتحة المجال له، مع الأخذ في الحسبان لكلّ المجموعة الخطابية المعطاة.

هكذا، ولكي نعود إلى حالات الرّوح مثلا، فإنّ لفظتي "امتعاض" و"هيجان"- اللّتين سنصادفهما لاحقا في *"الحلية"*- يبدو و كأنّهما تتناضدان بالأجزاء، محبطتين بذلك كلّ تحليل جاد.نعلم أنّ "الامتعاض" يتعلّق "بالحزن ممزوج بالغيظ" (قاموس روبير الصّغير):سيكون من الصّعب هنا، أن نحلّل هذا "الممزوج"، بمنحه نظاما ثنائيا أو ثلاثيا، أو فارقا على العموم.

مثل هذه الملاحظات المقارنة، يمكن إنجازها في مجال السيميائيات المرئية، مثلا في حال الرسم المسمّى "غير التّصويري" الذي يلعب غالبا على عدم التّمييز بين المتواصل والفارق: هذه النّقطة سنعود إليها لاحقا.

هذا يعني، أنّنا نرى مثلا في المجال الصّوتي، أنّ الاستفهام لا يمكنه في أيّ حال من الأحوال أن يشترك مع هذا المقطع أو ذاك، أو مع هذه الكلمة أو تلك، داخل الجملة المعطاة: إنّه من نظام "التّقسيم الدّقيق"، إذن من نظام المتواصل بالنّسبة إلى الوحدات المعجمية المشكّلة للملفوظ.

لكنّنا سنستنتج حالا أنّ الجملة التّصريحية، هي صوتيا مكيّفة بطريقة مختلفة: هي بلا شكّ، تستخرج من المتواصل بالنّسبة إلى الأصوات ("الفونيمات") أو الكلمات ("الليكسيمات") المستعملة، لكنّها ليست غريبة عن نظام الفارق وعن المستوى التّدرّجي الأعلى، ذلك الذي يتعارض فيه مثلا الاستفهام والتّعجّب مع التّصريح. وفي معنى آخر، ذاك الذي في المستوى المعطى، ومن نظام الفارق، نستطيع إعادته في صعيد آخر، على أنّه مستخرج من المتواصل وهكذا دواليك . ومن هنا نعترف بأنّ العلاقة بين المتواصل والفارق، ليست من طبيعة جوهرية، إنّما من طبيعة علائقية فقط.

كلمة أخيرة بالنّسبة إلى الرّوابط الممكنة بين السيميائيات و العلوم المعرفية التي هي اليوم في طريق التّشكّل، مثلما ألمعنا الذّكر أعلاه.

ينبغي أن نأمل على الأقلّ بأن تقدر جميع الأبحاث الرّاهنة، خاصّة تلك الواعدة، التي تحملها اللّسانيات العصبية و النّفسية، على إعداد سيميائيات عصبية و نفسية، جديرة بتناول ليس فقط أنواع الكلام غير اللّفظي المتروك على جهة من قِبل أغلبية اللّسانيين (مع أنّه، لا أحد ينكر مثلا، أهمية قراءة الصّور في ثقافتنا)، لكن أيضا في تحليل الخطاب (مثلما هو غير قابل للاختزال إلى مجموعة أو إلى تسلسل الجمل المشكّلة له: كلّ واحدة من هذه الجمل، تستطيع أن تمثّل منفردة، أن تكون متجانسة مع جميع مستويات التّحليل اللّساني، غير أنّ مجموعها سيشكّل بالطّبع خطابا شاذا، غير معقول).

حاليا، مثل هذه المقاربة لن تكون بطبيعة الحال إلاّ من قبيل التّمنّي: على كلّ حال نودّ أن يكون بمقدور السّيميائيات، في مستواها وحسب إمكاناتها، أن تحمل مسابقة، متواضعة لكنّها فعّالة، إلى هذا المجال الواسع الذي تمثّله العلوم المعرفية داخل الإبستيمي الرّاهن، و ليس فقط في الإطار اللّفظي أو اللّساني.

2.2 شبكة تطريز عامّة للمقاربة السّيميائية:

مثلما سنرى في الجزءين الأساسيين لهذا المؤلّف، سوف لن ينجز وصف أقصوصة غ. دو موباسان بالطّريقة نفسها كما هو في شريط المرسوم لب.رابيي، خاصّة فيما تعلّق بالأهداف المرجوة التي لن تكون أبدا متماثلة.

لأنّ الكلام اللّفظي يخضع لعدد معيّن من القواعد التي لا يمكن لجميعها أن ينطبق على الكلام المرئي: هكذا العلاقة المسمّاة ب"النّظمية" (="و" العنصر، "و" العنصر الآخر...) تفترض في المجال اللّساني تتابعا زمنيا (حسب

علاقة السّابق ضد اللاّحق) للوحدات، فيما تسلّم اللّوحة أو الصّورة، مثلا، بالاقتران ("و" ذاك العنصر، "و" ذاك الآخر...).

في المقابل، نجد العلاقة "الاستبدالية" (="أو" العنصر، "أو" العنصر الآخر...) مستقّلة عن التّزمين وهي موجودة في كافة أنواع الكلام الممكنة. هكذا، يكون للشّاطئ نفسه في لوحة، على الرّسّام أن يختار بين هذا اللّون و/أو ذلك الطّلاء، ما عدا كلّ الألوان التي بحوزته.

على أنّ المسيرة السيميائية ستكون نفسها، مركّزين في ذلك أساسا على المدلول (="شكل المحتوى") في المحكي المدروس، والأكثر من ذلك على الدّال (="شكل التّعبير") في حالة الشريط المرسوم (في النّظام المرئي).

إنّ المسار التّحليلي الذي سننجزه، سيبرز بالمرّة عددا معيّنا من المتماثلات، و لكن أيضا تكامل الأوصاف، بالقدر الذي يجعلنا نقف تارة على المدلول و تارة أخرى على الدّال. لكنّنا سنسجّل في نهاية مسارنا (في "خاتمتنا العامّة") ما تشترك فيه المسيرتان المتّبعتان، حيث السّمة السّائدة ليست فقط للمدلول، ولكن أيضا وجزئيا للدّال: من هذا المنطلق عنونّا مؤلّفنا ب"من المقروء إلى المرئي" الذي سيأخذ معنى آخر غير الذي كان متوقّعا من قبل.

ولتكن الخطاطة الآتية التي سنتّخذها دليلا لنا:

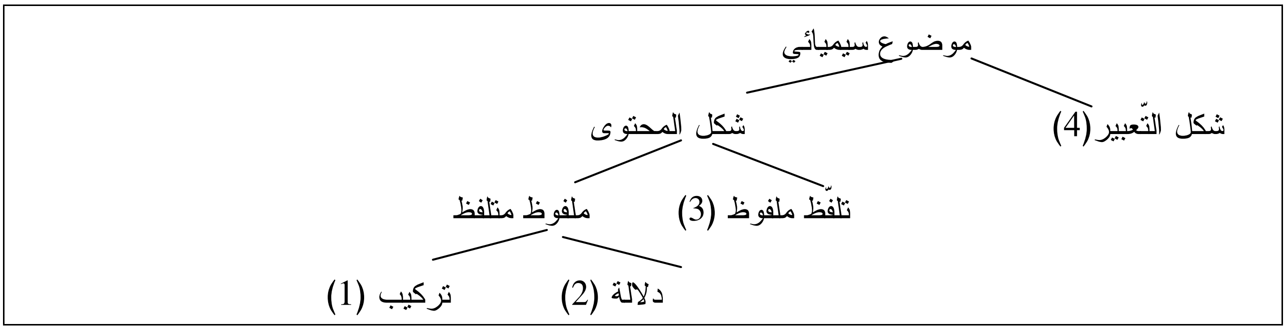

ما نسمّيه هنا "بموضوع سيميائي" هو كلّ "مجموعة دالّة"، تحمل معنى. فهي تتمفصل وفق مكوّنين اثنين. لدينا أوّلا "شكل المحتوى" المتعلّق عموما بمدلول ف. دي سوسير، والقريب من معنى "الشّكل" القابل للتّحليل مستقلا عن الدّال.

هكذا، سيكون وصفنا *للحلية* لغ. دو موباسان، الذي سنفتتح به دراستنا، سوف لن نأخذ في الحسبان مثلا الدّال الخطّي المستعمل: إذ أنّ النّص "نفسه" ظهر في منشورات جدّ مختلفة، فمن كتاب الجيب –الكتيب– إلى سلسلة لابلبياد (عند غاليمار)؛ ففي الحالتين، نجد الخصوصيات المطبعية المستخدمة ليست هي نفسها.

يقع تحليلنا على "صعيد المحتوى"، من غير اهتمام بهذه الاختلافات، التي هي من ضمن أخرى (كما سنرى لاحقا) تستخرج من "شكل التعبير": لهذا السّبب نقول إنّ الأمر متعلّق بالنّص "نفسه". ووجهة نظرنا هنا ستكون أساسا إذن، "دلالية" (بالمعنى الواسع).

كما تشير إليه خطاطتنا، يفترض "شكل المحتوى" مكوّنين فرعيين. الأوّل، ذاك الذي يتعلّق إجمالا، بالقصّة المحكية (المعرّف بالملفوظ المتلفّظ، الحامل لتمفصلات تركيبية و دلالية، مترابطة فيما بينها، كما سنوضّحه بالتّفصيل الدّقيق).

ثمّ، الكيفية التي يقدّم بها المؤلّف (أو بالمعنى الواسع المتلفِّظ) "قصّته" لقارئه (للمتلفظ له): إنّه المتلفّظ الملفوظ: كلّ واحد يعلم، مثلا، أنّ المشهد "نفسه" يمكن تصويره سينمائيا، عن قرب أو عن بعد، مائلا إلى اليمين أو إلى الشّمال، مطلاّ عليه، أو غير مطلّ، بضرب من الزّوم، إلخ..

فمهما تعلّق الأمر بالقصة (ب"المسرود" حسب اصطلاح ج.جينات) أو بوجهة النّظر المختارة لتقديمها للمرسل إليه، توجد دوما – في هذه الحالة أو تلك– قواعد التوظيف المتضمَّنة، التي ستكون لنا فرصة مراقبتها واستخراجها شيئا فشيئا من خلال أوصافنا، والتي سنجدها مرة هنا ومرة هناك، داخل اللّفظي وداخل المرئي أيضا.

فيما يحدّد "شكل التّعبير" تقريبا "بدال" ف. دي سوسير: هو أيضا يمكنه أن يحلّ منعزلا و مستقلا عن المدلول، عن "شكل المحتوى". سنبرز في دراستنا الثّانية، المخصّصة لشريط مرسوم كلّ الأهميّة المعطاة لصعيد التّعبير، فيما تعلّق مثلا بالتّغيّرات المصادفة من رسم إلى آخر، إلخ..

وبالطّبع، سنفحص الرّوابط و العلاقات والتّوليفات التي يحدثها مكوّنا الموضوع السيميائي: "شكل التّعبير" و"شكل المحتوى". هذا يعني، كما سنرى في الخاتمة وكردّ فعل لها بأنّ أقصوصة موبسان، غير قابلة للتّحليل إلاّ بالنّسبة للدّال الذي يعبّر عنها.

ملاحظة أوّلية ينبغي تبيانها هنا للقارئ هي: أنّ كلّ المصطلحات التي ستستعمل في هذا المؤلّف، هي أساسا تلك التي قُدّمت بصفة نسقية ومنظّمة في *تحليلنا السيميائي للخطاب: من الملفوظ إلى التّلفظ*، أشات، 1991: أمّا فيما يخصّ الألفاظ الأكثر تقنية، و التي أحيانا ليس من السّهل تأويلها لأوّل وهلة، فسنعتمد على هذا المؤلّف الحامل لفهرس المفاهيم، الميسّر للبحث في تعريفاتها. على كلّ حال، سنجد أنفسنا في هذا المؤلّف، مضطرين لإدراج تصوّرات جديدة، في حالة ما اقتضى الأمر ذلك: إنّ السّماح بوجودها، سيكون بشرحها في كلّ مرّة، ونحن بصدد مسارنا السّيميائي.

على أنّه ولأجل إتاحة فرصة الاستيعاب أكثر لتحليلاتنا، سنذكّر(كما فعلنا على الأكثر أو على الأقلّ أعلاه)، في كلّ مرّة من أوصافنا – إمّا من خلال الملاحظة بالهامش، أو داخل النّص نفسه – بعدد معيّن من التعريفات الأساسية، التي يكفي تذكّرها في كلّ مرّة، يتمّ فيها تطوير تحليلاتنا. على كلّ حال، سنجد بسهولة معظم التّصوّرات السيميائية واللّسانية المستثمرة، بفضل الفهرس المقترح في نهاية المؤلّف.

الـــــهوامـــــــش

* عن جوزيف كورتيس، من المقروء إلى المرئي، تحليل سيميائي لأقصوصة دي موباسان و لشريط مرسوم لب. رابيي، ترجمة د. بوشفرة نادية، جامعة دي بيبوك، الطّبعة الأولى، بروكسال، 1995، ص.ص: 31.13.

1- فمثلا، مجلة العلوم الإنسانية (رقم22) أظهرت في نوفمبر 1992، عددا من الصّفحات المخصّصة *لاستكشاف* السيميائيات، مع أنّ هذه وجدت بأوربا منذ ما يقارب أربعين سنة.

2- لنأخذ مثالا مستعارا من ر. بارث: غلاف مجلة فرنسية، يصوّر جنديا أسود، مرتديا بزّة فرنسية ومحيّيا العلم الثّلاثي الألوان وخلفه غابة استوائية. تستخرج هذه الملاحظات من هذا الذي هو مفهوم مباشرة: أمّا الإيحاء فيوافق للاستعمار الذي أعلنته فرنسا في تلك الآونة: "المدلول" الذي لا يمكننا تحديده إلاّ بطريقة مائلة، غير مباشرة، وبمنظور يستند على المعرفة التي لم يصرّح بها مباشرة على المجلة.

3-وصفي مثلما فعل أ. إيكو نفسه، والذي مع ذلك هو موافق لطروحات الأمريكيين مثل ش.س.بيرس، وطروحات الأوربيين مثل أ.ج.غريماس.

4- نحيل هنا خصوصا، إلى مؤلَّف ن. إيفراريت داسميت، المعنون ب *التّواصل الإشهاري*، لوفان، 1984

5- بالمعنى الأنجلو سكسوني لفلسفة الكلام، التي تركّز على التّعديلات المصادفة خلال التّواصل، عند الباث (أو المتلفِظ) والمتلقي (أو المتلفَظ له) لرسالة معطاة (لفظية أو غير لفظية).

6- جميع المنهجيات السيميائية تتّفق على أنّ الدّلالة تنتج من خلال إقامة علاقة بين الألفاظ. لكن في إطار فرضيات ش. س. بيرس (بأمريكا)، السيميوز هو ثلاثي لا ثنائي الأبعاد (مثلما هو الحال بأوربا).

7- عن *التّحليل السيميائي للخطاب*، آشات، 1991، ص. ص: 61.60.

8- لنذكّر هنا، وحسب العادة الشّعبية الفرنسية، أنّ البنت ذات القلنسوة الصّغيرة الحمراء، كانت مدعوة من الذّئب لأكل بقايا طعام الجدة قبل أن تتبعه إلى السّرير. في هذا المحكي، "الاستهلاك" هو في الوقت ذاته، جنسي وأنثروبوفاجي (أي أنّه متعلّق بالشعوب الآكلة للحوم البشر).

9- هذا النّوع من التّحليل، المنطلق من الوحدات المعجمية، يشير إلى إظهار قابليتها للتفكيك إلى سمات مميّزة (أو "سيمات") على صعيد المحتوى إذن. هكذا، مثلا، لفظة " واجه" التي سنعود إليها لاحقا – تشمل على الأقلّ عناصر مختلفة: تلك المتعلّقة بالزمانية (إنّه الماضي)، وبالفضائية (التي تلعب على علاقة العلوي ضد السّفلي)، والمتعلّقة بالحركة والتّوجيه، الذي ينتقل من الأسفل إلى الأعلى، والخاصّ بمؤلّف الفعل المعني، وبذاك الذي وجّهت إليه الحركة المنجزة، إلخ.. .بالمعنى الأنجلو سكسوني لفلسفة الكلام،

التي تركّز على التّعديلات المصادفة خلال التّواصل، عند الباث (أو المتلفِظ) والمتلقي (أو المتلفَظ له) لرسالة معطاة (لفظية أو غير لفظية).

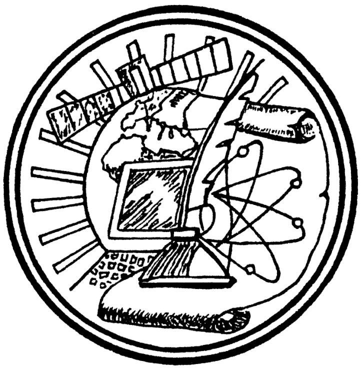

مفـــاهـيم تـداولـــيـة

لـــ: دومينيك مانقينو — *ترجمة: منى بدري*

اهتمام قديم:

إن التداولية هي ملتقى تأملات متعددة المنابع لذا فإنه من الصعب حصرها والإحاطة بها. وقد يتراءى لنا، من جهة، أنها لم تغز مجال العلوم الإنسانية إلا حديثا، ومن جهة أخرى، فلقد طرحت في مسائل لغوية ضاربة في القدم. والواقع أنه لا يجب الخلط بين الظواهر المعتبرة حاليا على أنها متعلقة بالتداولية وتأسيس شبكة من التصورات التداولية المقصودة قصدا.

فمنذ ظهور الفكر اللساني في اليونان، بدا الاهتمام الكبير بكل ما يمس فعالية الخطاب في السياق. إن علم البلاغة، أي دراسة قوة الإقناع في الخطاب، ليندرج تماما في المجال الذي تحدد التداولية اليوم معالمه. وبإمكاننا وصف تاريخ الفكر الأوروبي حول اللغة – على نحو مبسط – بأنه نتيجة الانفصال المؤسس الذي تم بين "المنطق" و"البلاغة ". فالأول مرتبط بالمبحث الأنطولوجي، يطرح قضية شروط الملفوظ الصادق عن طريق تحليل قضية، أما الثانية التي اهتم بها السوفسطائيون والبلاغيون، فتترك جانبا مسألة الحقيقة لدراسة اللغة باعتبارها خطابا منتجا للتأثيرات وكقوة تأثير في الواقع.

لكن هذين التوجهين، كثيرا ما يتداخلان، ذلك هو الأمر بالنسبة لـــ " المنطق " " Logique " الشهير لمدرسة " بورروايال " " Port–Royal "[1] منها الآتي على سبيل المثال : " مما يحدث في غالب الأحيان، أن تثير كلمة ما، بالإضافة إلى الفكرة الأساسية التي نعتبرها معناها الحقيقي معاني أخرى كثيرة بإمكاننا نعتها بالأفكار الثانوية والتي غالبا ما لا نوليها اهتماما كبيرا مع أنها تترك انطباعا في الذهن.

---

[1] Nicole , La Logique ou l'Art de Penser , 1962 (Texte remanié jusqu'à l'édition de 1683) -A. Arnauld.rééd. Flammarion, 1970

فمثلا لو أننا قلنا لشخص ما أنك كذبت ولا نعود إلا للمعنى الحقيقي لهذه العبارة، فسيكون الأمر كما لو أننا قلنا : أنت تعرف عكس ما تقول ولكن بالإضافة إلى هذا المعنى الأساسي، يعبر هذا الكلام عند الاستعمال، عن فكرة تحمل معنى الاحتقار والشتم، توهمنا أن محدثنا يستخف بنا ولا يبالي لو شتمنا، وهذا ما يجعل كلامه مهينا وجارحا".

وهنا، بفضل مفهوم " الفكرة الثانوية " (Idée Accessoire)، يحاول المؤلفون فصل المحتوى القضوي للملفوظ، سنطلق عليه فيما بعد تسمية " القوة الإنجازية " (Force Illocutoire)، وفي حالتنا هذه تأخذ معنى الشتم. ومن هنا، يمكن تسجيل تعقد ظاهرة " الاستعمال " اللغوي مع المحافظة على استقلالية وأولوية المنطقي. وفي السياق نفسه، يتساءل منطقيو " بور روايال " حول القوة السرية التي تجعل التلفظ بالعبارة " هذا هو جسدي " يحول فعلا الخبز، بالنسبة للمؤمن، ليصبح جسد المسيح.

ولقد أولى علم النحو، عبر تاريخه الطويل، اهتماما بعدد معتبر من الظواهر التي تدخل حاليا في نطاق اهتمام التداولية. إن دراسة : الصيغة والزمان والتحديد الإسمي والخطاب المنقول وحروف التعجب.. الخ، تفرض أخذ عملية التلفظ بعين الاعتبار، ولكن انشغال التقاليد النحوية بالجانب الصرفي التركيبي أساسا،يركن في زاوية الطابع التداولي لهذه الاهتمامات، كما أن عنصرا مثل "بصراحة" (Franchement) في "قل لي بصراحة ما رأيك"، اعتبر قبل كل شيء "قرينة ظرفية" (adverbe de phrase)، انطلاقا من نوعه ومغزاه وليس من خلال قيمته التخاطبية.

وبشكل تبسيطي، يمكننا ملاحظة الجهد المبذول في الفكر التداولي لإعادة التفكير في القطيعة بين المنطقي والبلاغي، أو عندما يكون التفكير لسانيا بحتا لإعادة النظر في القطيعة بين البنية النحوية واستعمالاتها؛ وبعبارة أخرى، تكون التداولية لسانية إذا اعتبرنا أن استعمال اللغة وتملكها تكون من قبل متلفظ يتوجه بكلامه إلى مخاطب في سياق معين، لا يقحم من الخارج على ملفوظ مكتف بذاته مبدئيا، ولكن بنية اللغة تكون مشروطة أساسا لكونها موظفة من قبل تلفظات فردية بالتلفظات الفردية وأنها تحدث أثرا معينا ضمن سياق معين، لفظي أو غير لفظي.

إن التمايز بين مختلف مدارس التداولية يقوم أساسا على هذه القاعدة. فمن جهة، نجد أنصار الحد الأدنى (Les Minimalistes) ممن يرون أن الجانب التداولي مكون من بين مكونات اللسانيات، إلى جانب النحو وعلم الدلالة. وفي الجهة المقابلة، نجد فئة تقول بامتداد رقعة التداولية على سائر المحيط اللساني، أي أنه لا يمكن لأي ظاهرة لسانية أن تخرج من دائرة التداولية. وبما أن التداولية ليست محط اهتمام اللسانيين وحدهم، فلقد أدى هذا إلى زيادة الخلط. والحقيقة أننا لو حددنا التداولية وقلنا أنها " دراسة اللغة في السياق "، لن يمكننا هذا من التحديد المسبق للدرس الذي سيتبنى هذه الدراسة؛ فمن عالم الاجتماع إلى عالم المنطق، تخترق اهتمامات التداولية مجمل البحوث التي تهتم بالمعنى والتواصل وغالبا ما نرى التداولية تتجاوز الخطاب لتصبح نظرية عامة لـــ "الفعل" الإنساني.

إن عوامل التنوع هذه تسمح بفهم وإدراك السبب الذي يجعل التداولية تبدو كخليط للعديد من الحقول المتداخلة فيما بينها،تهتم كلها بدراسة "اللغة ضمن السياق".ومما لا ريب فيه، أنه توجد بعض المعالم المكررة والقضايا المفهومية التي تحظى باهتمام خاص، ولكنها تصاغ صياغات مختلفة.

الدلالية والتداولية

إن تحديد التداولية كمجال متخصص في دراسة اللغة، لم ينسب عادة إلى لساني، بل إلى الفيلسوف والسيميائي الأمريكي ش. موريس (C. Morris) "أسس نظرية العلامات" 1938 (Fondations of the theoryof signs) والذي قسم فهم لغة ما (شكلية أو طبيعية)، في إطار النظرية العامة لـــالدلالة "Sémiosis"،إلى ثلاثة حقول:

1) حقل التراكيب.

2) حقل الدلالية.

3) حقل التداولية.

وهي تتطابق والعلاقات الأساسية التي تنشئها العلامات: مع علامات أخرى (التركيب)ومع ما تدل عليه (الدلالية) ومع مستعمليها (التداولية).

ويتبين لنا أن فكر موريس ليس موحدا، ويبدو أنه متردد بين فكرة أن المكونة التداولية تخترق المكونة الدلالية (وهذا يعني أن العلامات لها في الوقت نفسه بعد تداولي وبعد دلالي) والفكرة التي ترى أن التداولية تهتم فقط بمجموع الظواهر الباقية ذات الطابع البسيكوسوسيولوجي والتي أهملها النحو وعلم الدلالة (السيميائية). ولكن مثلما يحدث غالبا، فلقد تم الاحتفاظ بأضعف صورة لتقسيم موريس والتي مفادها أن التداولية أحدثت كعلم ملحق يهتم بما يفعله المستعملون بالملفوظات، (فكلمة "Pragmatique" أصلها يوناني "Pragma "، أي "عمل ")، بينما يعالج علم الدلالة مضمونها التمثيلي، المطابق لــ "شروط الحقيقة" لديهم (المستعملين) أي الشروط اللازمة لكي يكون الملفوظ صادقا.

في هذا المفهوم، تنفصل التداولية عن علم الدلالة، ويصبح الاستعمال منفصلا عن المعنى، أي أن "القول" منفصل عن "المقول ". ونتصور أن النقاش سيتركز حول هذا الانفصال، أي بين من يريدون الحفاظ عليه ومن يريدون محوه. هل من جزء واحد في المركبة الدلالية لا يخضع للتداولية؟ وإن وجد، فما هو؟ وهل بإمكاننا فهم وإدراك معنى المنطوق بمعزل عن عملية التلفظ؟ بالنسبة للكثير، فإن الحل الوسط والأكثر قبولا يكمن في التمييز بين الدلالية التمثيلية التي تهتم بدراسة شروط الحقيقة في جملة ما، وبين الدلالية "التداولية" التي تهتم بمعالجة ما لم تحط به الدلالية التمثيلية: وعلى وجه الخصوص "الإشاريات " "Les Embrayeurs"، والتي سنتطرق إليها بعد قليل. وبناء على ذلك، ستبدو التداولية لا كدراسة للجمل باعتبارها نماذج خارج السياق، بل كدراسة لتحقق الجمل، دراسة لهذا الحدث الفريد ممثلا في عملية التلفظ.

يبدو الفكر التداولي كعملية ربط للحقول المفصولة تقليديا بالعلم. ومن بين عمليات الفصل الأساسية التي كانت محل نقده، تلك التي بين الملفوظ والسياق، ولقد تجلى ذلك، على الخصوص عبر الاهتمام بما يسميه علماء المنطق بـــ "عناصر الفهرسة" (Elements Indexicaux)، وعلماء اللغة مقتفين في ذلك آثار جاكبسون Jakobson بـــ: "الإشاريات" (Les Embrayeurs): (أنا، أنت)، الظروف الزمنية (الآن، غدا،..) أو المكانية (هنا، إلى اليسار، ...). وهنا تظهر للعيان إشكالية شهيرة تشير إلى أن هناك وحدات لسانية يقتضي تأويلها اعتبار تواردها" (occurrence) وأخذه بعين الاعتبار.

والواقع أن وجود مرجعية مختلفة لهذه الإشاريات عند كل تلفظ ليس هو ما يستدعي النقد والاهتمام ولكن تأثيراتها على إدراكنا للغات الطبيعية؛ حيث تبدو اللغة كنظام موجه انطلاقا من بؤرة، فالعملية التلفظية، هي نفسها، مترسخة في اللغة بمقدار ترسخ النحو أو الصرف. ومن المؤكد أن "أنت" (tu) يكتسب قيمة جديدة في كل مرة، ولكن الحاجة لرد المنطوق لمتلق تفرض نفسها لدى كل عملية تلفظ ؛ وبالطبع، فإن الإحالة المرجعية للمجموعة الإسمية "الولد" (le garçon) تتغير بتغير الأداءات، ولكن القواعد التي تمكن المتلقي من تحديد دلالة اسم مسبوق بـــ (le) هي في كل الأحوال ثابتة.

وبالنسبة للتداولية وحدها، فإن الأخذ بالإشاريات (Les Embrayeurs) ليس كافيا لإعطاء التيار التداولي الدفع اللازم، ويعتبر الدافع القطعي نتيجة الفكر حول أفعال الكلام (Les actes de langage) التي قطعت شوطا كبيرا بأخذها على عاتقها مسألة الفصل بين الدلالية والتداولية بنقض الفكرة التي مفادها أن معنى الملفوظ يتوافق مع حالة العالم الذي يمثله، بمعزل عن أدائه. وهذا بالتحديد، ما كان ثمرة أبحاث الفيلسوف البريطاني جون أوستين (John Austin).

أفعال الكلام:

في كتابه "الكلام من حيث هو فعل ؟"[2] (1962)، بدأ أوستين بالاهتمام بأفعال مثل "أقسم "، "عمد" (baptiser, jurer)، والتي أسماها بالأفعال الإنجازية (Verbes Performatifs). وتتميز هذه الأفعال بكونها تحقق ما تقوله، وتؤسس واقعا جديدا عبر أدائها فحسب، وهكذا فإن قول "أعمدك" (je te baptise) أو "أقسم بذلك" (je le jure) معناه: عمد أو أقسم. وبطريقة عكسية، لإتمام عملية التعميد أو القسم استوجب القول "أعمدك" أو "أقسم بذلك ". إن هذين الملفوظين لا يمكن الحديث بصددهما عن الصحة أو الخطأ، بل كل ما يمكن فعله هو التساؤل عما إذا كان الفعل الذي يمثله كل واحد وينجزه "ناجحا" أم لا، إذا كان هناك، بالفعل، تعميد أو قسم. هذه الأفعال الإنجازية تتعارض مع أفعال أخرى، يسميها (أوستين) بـــ "الأفعال التقريرية" (Verbes Constatifs)، والتي تهتم بوصف حالة العالم بمعزل عن تلفظها: (" أجري "، "أحب وطني") كما تحتمل الصحة أو الخطأ. وبالتركيز على هذه المجموعة المتفردة من الأفعال، يريد "أوستين" (Austin) نقد "خطأ النزعة الوصفية" (erreur descriptiviste)، أن تمثيل حالات العالم تعتبر من أهم وظائفها، أو بالأحرى وظيفتها الوحيدة.

---

2 - ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان *Quand dire c'est faire,* Seuil, 1970.

لقد تحدثنا عن "الأفعال الإنجازية" ولكنه كان من الأجدى التحدث عن "التلفظ الإنجازي"، وبالفعل، فلاوجود لفعل إنجازي دون استعمال، فإذا قلنا: "يعمد بول الأطفال بتغطيسهم في الماء" (Paul baptise les enfantspar immersion)، "وعدته البارحة" (je l'ai promis hier)، "أقسم بذلك دوما" (je le jure souvent)، ليس هناك فعل، فهي ملفوظات تقريرية يكون فيها وصف الحالة بمعزل عن العملية التلفظية، وبإمكاننا ملاحظة أن التلفظ الإنجازي يتطلب "حاضرا آنيا" (présent ponctuel) والضمير "أنا "، فكل من العنصرين مترابطان كثيرا ببعضهما، بما أن "الإنجازية" (performativité) تتطلب تطابقا دقيقا بين فاعل التلفظ وفاعل الملفوظ، أي بين القول (le dire) والمقول (le dit)، فعند قولنا: "أنا أقسم" (je le jure)، لا يعود الضمير "أنا" (je) على المتكلم، وكأنه أي شخص آخر: "بول" (Paul) أو "أخي" (mon frère)، ولكنه يعود على المتكلم باعتباره هو المتلفظ.

ولكن أوستين تخلى تدريجيا عن هذا التمييز بين "الملفوظ التقريري" (énoncé constatif) و"الملفوظ الإنجازي" (énoncé performatif)، والحقيقة أنه تبين له استحالة إيجاد تلفظات مجردة من القيمة الإنجازية، لا تهتم إلا بتمثيل العالم، وحتى الملفوظ الذي يبدو وصفيا بالدرجة الأولى، مثل: "إنها تمطر" (Il Pleut) ينشأ حقيقة جديدة وينجز هو أيضا فعلا، وفي هذه الحالة يتعلق الأمر بفعل إثبات. فبالنسبة لأوستين، لا يوجد فرق في التصريح (explicitation) عند قولنا "إنها تمطر" (Il pleut) و"أؤكد أنها تمطر" (j'affirme qu'il pleut)، فالفعل الإنجازي (le performatif) يصبح "صريحا" (explicite) في الحالة الثانية و"أوليا" (primaire) في الأولى. ومن المؤكد أن أفعالا مثل "ساند، أكد، أمر" (soutenir, affirmer, ordonner)، أحداث ذات طبيعة لغوية، فهي ليست من نفس نوع الأفعال "المؤسساتية" (institutionnelles) مثل "أقسم، عمد، قرر" (jurer, décréter, baptiser)، ولكنه الأمر في كلتا الحالتين يتعلق بــ "أحداث لغة" (actes de langage) (هناك أيضا مصطلحات مثل: أحداث الكلام actes de parole وأحداث الخطاب actes de discours).

وينتج عن كل عملية تلفظ بعد "كلامي" (illocutoire) أو (illocutionnaire)، إذن، فمفهوم "التقريري" أيسر فهما من "الإنجازي "، فما نسميه "معنى" اللفظ يجمع بين مركبين: إلى جانب محتوى القول القضوي وقيمته الوصفية التي تكون نفسها عند قولنا (Paul part) و(Paul pars) "ذهب بول" و" بول اذهب "، هناك قوة تحقيقية هي التي تحدد لنا نوع حدث اللغة الذي تم إنجازه عند أدائنا له، وكيف يجب استقباله من قبل المتلقي: فقد يتعلق الأمر بطلب، تهديد أو اقتراح....الخ، فالتكلم تواصل أيضا مادمنا نتواصل بالحديث، وتضمين في التلفظ للكيفية التي يراد أن يدرك بها هذا الأخير من قبل المتلقي. إن تأويل اللفظ لا يتم وفعل اللغة لا ينجح إلا إذا أدرك المتلقي النية المرتبطة بالتلفظ، فلكي يكون فعل الأمر ناجحا وجب على المتلقي معرفة أنه أمر موجه إليه، وبإمكانه التوصل إلى ذلك بالاستعانة بعلامات أحادية المعنى marqueurs univoques (صيغة الأمر أو سابقة إنجازية) (préfixe performatif) مثل "آمرك" (je t'ordonne)، سواء أكان من النبرة أو السياق.

يميز أوستين على الخصوص، ثلاث قوى فاعلة مكملة للأداء، فنطق اللفظ، هو في الآن نفسه:

– إنجاز فعل تلفظي locutoire، إنتاج سلسلة من الأصوات تحمل معنى في لغة ما.

– إنجاز فعل تقريري illocutoire، إنتاج ملفوظ ذي قوة ما مرتبطة به بناء على اتفاق عن طريق القول نفسه.

– إنجاز تأثيري perlocutoire، أي إحداث تأثيرات في الوضع عن طريق الكلام (فعلى سبيل المثال، بإمكاننا طرح سؤال (فعل تحقيقي) مقاطعة شخص ما أو إرباكه أو لنظهر وجودنا، ... الخ). فالميدان الوظيفي perlocutoire يخرج من الإطار اللغوي المحض.

لقد فتحت إشكالية فعل الكلام المجال لنقاشات هامة ودقيقة ليس بوسعنا طرحها في هذا المقام، ولكننا سنشير فقط إلى الإشكالية التي تثيرها أفعال اللغة غير المباشرة.

ويتعلق الأمر بأفعال اللغة المنجزة بطريقة غير مباشرة بالاستعانة بأخرى، وبهذا تكون الجملة "هل بإمكانك إعطائي المربى ؟" (Voulez–vous me passer la confiture ?) هنا بشكل مباشر، سؤالا، ولكن المتلقي يفك رموزه على أنه طلب. وهنا نصطدم بمفارقة لغرض (الطلب) يبدو بوضوح أنه مخفي، فهو كذلك لأنه يختبأ وراء السؤال، ولكنه مفتوح لأن الانتقال من فعل اللغة الأولي إلى الفعل المولد (dérivé) يتم بصورة مشفرة عند المتحدثين بالفرنسية: فبمجرد سماعنا هذا السؤال يتم تأويله مباشرة على أنه طلب.. وإذن، كان الاهتمام بالآليات التي تتيح للمتلقي توليد (dériver) التأويل غير المباشر، فبالنسبة للصياغات المشفرة مثل: "هل تريد ؟" (Voulez–vous) أو "هل بإمكانك ؟" (Pouvez–vous ?)، وهي تحمل أدنى قدر من الصعوبات على عكس الصياغات التلميحية الأخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كان الملفوظ "تأخر الوقت " استوجب علينا اشتقاق "اذهبوا" في هذه الحالة يتعين علينا اللجوء بقوة إلى قوانين الخطاب والاستنجاد بها (أنظر الفصل 5).

ولكننا بمجرد تناولنا مشكل المعنى الحرفي Sens Littéral والمعنى الثاني Sens dérivé، لا مناص من الاصطدام بمسائل أخرى مثيرة، كتلك المتعلقة بالمجاز trope على وجه الخصوص: فكيف بوسعنا تأويل استعارات مثل: "Paul est une andouille" ؟ ولقد وصلنا إلى حد التساؤل ما إذا لم يتعلق الأمر، وهذا عكس ما يظنه أوستين، بملفوظات غير مباشرة في تلك "البادئة" الإنجازية "أؤكد أنها تمطر" (j'affirme qu'il pleut)، "ألمح إلى أن الطقس جميل" (je suggère qu'il fait beau)، وهل القول بأنني أؤكد وألمح هو إنجاز لفعل اللغة المناسب أو الحديث عنه فقط؟ فبين "إنها تمطر" و"أؤكد أنها تمطر "، أيهما أولي؟ إن الإجابة على هذا النوع من الأسئلة تستدعي بالضرورة خيارات فلسفية حول ماهية المعنى واللغة[3].

شروط النجاح

لقد قلنا إن فعل الكلام لا يكون صحيحا أو خاطئا، لكنه يكون ناجحا أم لا، ويترتب عن مثل هذا التحديد آثار كبيرة إذ أنه يتعلق بصيغة تسجيل الملفوظات في الواقع. فبعد الالتزام بدقة، وعلى نحو ملائم، بالقواعد النحوية، يبدو أن فعل الكلام يخضع لعدد معين من شروط النجاح، ولا يمكن لأي شخص قول أي شيء في أي ظرف. وهذه المجموعة من الشروط هي التي تجعل فعل الكلام ملائما أم لا ومشروعا أم لا. وهذا لا ينطبق فقط

---

[3] - حول هذه القضايا، أنظر: *Les Enoncés Performatifs* de F. Récanati, paris, minuit, 1981.

على المؤسسات النموذجية كالعدالة والكنيسة والجيش ... التي تقنن بصرامة بعض الممارسات الخطابية. وهكذا، فإن فعل عاديا مثل إعطاء أمر يستتبع أن المتلفظ (الأمر) يحتل مرتبة أعلى، وهي الإمكانية المادية للمخاطب لإنجاز ما ينتظر منه إنجازه، الخ. وحتى فعل الإثبات أي تقديم ملفوظ باعتباره صحيحا، فإنه يخضع لشروط النجاح : فيفترض من المتحدث أنه يعرف عما يتحدث عنه وأنه صادق، وقادر على ضمان ما يقوله. وينتج عن ذلك، أن كل فعل كلام يتضمن مجموعة من الحقوق والواجبات وإطارا قانونيا خاصا بالمخاطب والمتلقي.

إن هذا يؤدي بنا إلى التساؤل عما إذا كان اعتبار الفعل منجزا حقا، إذا لم تتوفر جميع شروط نجاحه. فمثلا شخص يعد بفعل شيء وهو يعلم أن هذا الفعل مستحيل تحقيقه أو أنه خارج السياق القانوني يخبر جاره بأنه يحكم عليه بالسجن، فهل هو في هذه الحالة أنجز الأفعال الكلامية المتعلقة بهذا الوعد ؟ وكان هذا الموضوع محل نقاش كبير. أما من جهتنا، فإننا نعتبر أن فعل الكلام قد أنجز فعلا حتى وإن عد كأنه لم يكن. والواقع أن كل فعل كلام ينشد المشروعية من خلال عملية التلفظ نفسها، وبعبارة أخرى، فإن من ينجز فعل كلام لا يستعرض في البداية، مجموع الشروط اللازمة للقيام بذلك، ولكن مجرد تلفظه يقتضي توفر هذه الشروط. فلكي يقول روي بلاس Ruy Blas الخادم المتنكر في شخصية نبيل إسباني للملكة " أحبك " لا ينتظر حتى يكون له الحق بذلك، ولكنه يمنح نفسه هذا الحق بتلفظه ذاك على أساس الفكرة التي يحملها عن الأرستقراطية الحقيقية.

إن النطق بفعل الكلام يحدد بالضرورة، علاقة "موضعية" rapport de places من الجهتين، وطلب الاعتراف بالوضعية التي يرى كل واحد نفسه فيها : من أنا حتى أكلمه بهذه الطريقة ؟ من هو حتى أكلمه هكذا ؟ من يعتبرني (من يعتبر نفسه) حتى يكلمني هكذا ؟ الخ. وفي النهاية، فمسألة الهوية هي محل البحث هنا. وفي كثير من الأحيان، فإن هذا الأمر يمر دون أن يدرك، ولكن يحدث أحيانا أن يفترض الخطاب توزيعا جديدا للوضعيات عوض أن يؤكد التوقع، كما هو الحال في " جزيرة العبيد " L'Ile des Esclaves لـــ " ماريفو " Marivaux حيث أخذ العبيد يصدرون الأوامر لسادتهم وتقوم الجزيرة بتوسيط هذا الانقلاب الخطابي، وهي البلد العجيب الذي يصبح فيه العبيد هم السادة. والمثل الأكثر وضوحا، هو حالة " ساتير " Satyre في " أسطورة القرون " لفيكتور هيقو Victor Hugo، Légende des siècles، حيث يستدعى ساتير إلى مجلس الآلهة وهو في موضع الدونية والاتهام لا يخضع، وإنما يقوم بمرافعة عنيفة، يتنبأ فيها بزوال من يتحدث إليهم: الآلهة الذين يحاكمونه ويختتمها بهذه الكلمات :

ليأخذ كل مكانه، أنا بان Pan، أنت يا جوبيتر Jupiter، اركع أمامي

فبإصدار ساتير لهذا الأمر، يكون قد أحدث انقلابا في السلطة واتخذ لنفسه الهوية المناسبة، هوية مبدأ إلهي جديد.

ولدى قراءتنا لما بين السطور، يمكننا إدراك التشكيل المسرحي الناتج عن قوة الكلام الشعري نفسه لفيكتور هيقو التي هي كلام الإله : " ولأن الكلمة هي الفعل والفعل هو الله " كما جاء في كتابه " العقاب " Chatiments،

فكلام الكاتب المنفي هنا ينتصر على قوة سياسية جائرة، ففيكتور هيقو هنا، يصل بالطموح التحقيقي لكل تلفظ حتى منتهاه.

تصنيف أفعال الكلام :

لقد بذلت جهود عدة في تصنيف أفعال اللغة (الكلام) وكان أوستين نفسه قد فعل ذلك، أو بعبارة أدق، صنف الأفعال التي يمكن أن تعبر عنها، وهناك عشرات من المحاولات الأخرى في هذا الموضوع، إلا أن المهمة تظل عسيرة وذلك لعدم وجود اتفاق حول العناصر المعنية بهذا التصنيف ولا المعايير الملائمة لذلك.

ولإعطاء فكرة عن الفئات التي نستخدمها نقدم التصنيف الذي وضعته ف. ريكاناتي F.Récanati[4] وقد استوحته هي الأخرى من الفيلسوف ج. سارل J.Searle.

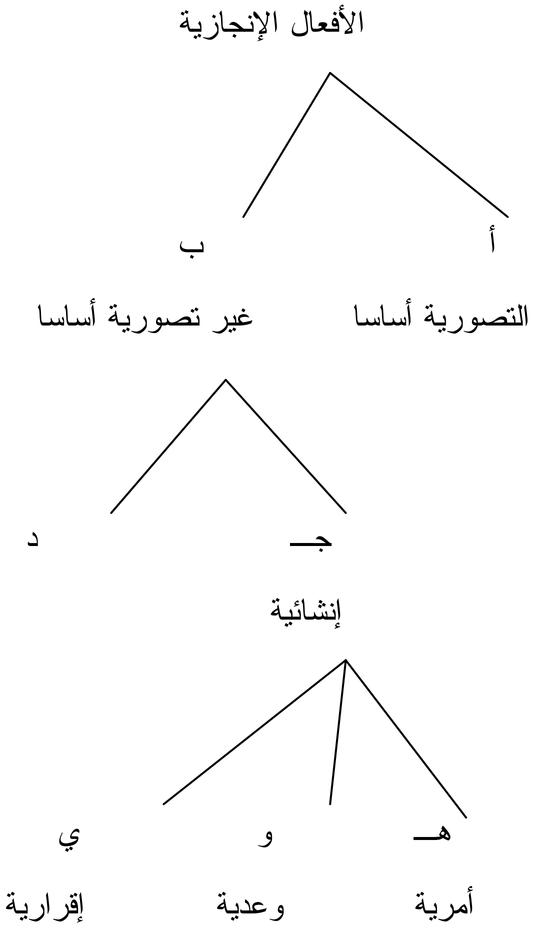

أ – تمثل وضعية ما.

4- أنظر: الفصل 6.[4]

ب – تعبر عن موقف اجتماعي (شكر، اعتذر..).

جـــ – تمثل وضعية تتحقق بواسطة التلفظ (عمد، أمر..).

د – تمثل وضعية تقدم كمعطى بمعزل عن الفعل التلفظي (أكد، زعم..).

هـــ – يكون التغيير في الوضعية فوريا لأن التلفظ هو المتسبب في هذا التغيير (حكم، أمر..).

و – يقع التغيير على عاتق المتكلم (وعد..).

ي – يقع التغيير على عاتق المرسل إليه (أمر..) ؛ ويعبر الفعل هنا عن نية المرسل إليه في تحقيق (إنجاز) الوضعية لأن التلفظ يتضمن هذا القصد.

ولكن وضع تصنيف شامل يثير إشكالية كبرى، هل يجب التسليم بوجود عدد من أفعال الكلام في لغة بقدر ما فيها من الأفعال للتعبير عنها ؟ هل يتضمن كل فعل فعلا إنجازيا متميزا ؟

فعلى سبيل المثال، هل أن ساند وزعم (soutenir et prétendre) هما بالضرورة فعلان إنجازيان متمايزان ؟ هل هذه الأفعال الكلامية تخص مختلف اللغات الطبيعية أو هل يمكن وضع تصنيف مستقل عنها ؟ ألا تتدرج أفعال عديدة في الآن نفسه في عدة تصنيفات ؟

وسنلاحظ أنه توجد في اللغة صيغ تحقيقية لا يبدو أن معناها يوافق أي فعل معين، مثل : " إلى الجحيم أيتها البخيلة " " Au diable l’avarice ! " " سحقا لك أنت أول / من علمني الخيانة " (موسي) " Honte à toi qui la première / m’a appris la trahison" (Musset)..وفي السياق نفسه سنلاحظ أنه إذا كانت عبارة " قذر! " " Salaud ! " تتضمن معنى الشتم فليس الأمر كذلك بالنسبة لعبارة " أشتمك " " je t'insulte".

إن الأفعال الإنجازية ليست في ذاتها سوى مجموعة من مجموعات الأفعال التي تسمح بتشكيل صيغة الملفوظ.

وفي العادة، يتم التمييز بينها وبين الأفعال التي يطلق عليها علماء المنطق أفعال الموقف القضوي Verbes d'attitude propositionnelle، ففي حين تنجز الأولى فعل الكلام، تبرز الثانية التلاحم بين المتلفظ وعملية التلفظ التي يقوم بها ويتعلق الأمر بـــالأفعال المعبرة عن وجهة نظر Verbes d’opinion (اعتقد، علم، قدر ...) (croire, savoir, estimer) التي تتعلق بحقيقة محتوى القضية، أو الأفعال الوجدانية Verbes affectifs (سر، أسف..) (se réjouir, regretter)، وتتميز كل هذه الأفعال بخاصية القدرة على الاشتراك في حالتين اثنتين: كمقدمة لما يليها أو كحالة اعتراضية (عبارة معترضة):

" أؤكد (أظن/ يسرني) أن (يكون) هنا مع ليون

هو هنا مع ليون، أؤكد ذلك (أظن/ يسرني)

هو هنا، أؤكد ذلك (أظن/ يسرني)، مع ليون"

من الواضح جدا أن هاتين الحالتين ليس لهما نفس الأثر الدلالي. ففي حالة وجود الفعل كمقدم فهو يقتضي تفسير مجموع الملفوظات التي تليه، بينما في حالة الجملة المعترضة فهو يبدو مرافقا للملفوظ على أساس عارض لتفادي الوقوع في التأويل الخاطئ.

إن كل هذه الأفعال تبين مسألة أساسية طالما أهملت وهي أن المقول غير قابل للانفصال عن القول، والملفوظ مدعم بطريقة أو بأخرى بنوع من التعليق يقدمه المتحدث حول كلامه.

الأفعال الكلامية الكبرى Les Macro–actes de langage:

عندما يكون اهتمامنا منصبا على نصوص لا على ملفوظات معزولة كما هو الحال في الأدب، فإننا لا نستطيع أن نكتفي بالتعامل مع أفعال الكلام البسيطة (وعد، تنبأ..). إن التداولية النصية تواجه مقاطع قد تقصر أو تطول من الأفعال الكلامية التي تتيح إنشاء قيمة تحقيقية شاملة على مستوى عال وهي: (الأفعال الكلامية الكبرى) Les macros actes de langage. وفي هذه الحالة تبرز إشكالية أنواع الخطاب: فإذا كان المخاطب يعرف إلى أي نوع تنتمي هذه المجموعة من الملفوظات: (خطبة موجزة في وليمة، موعظة يوم الأحد، مقالة نقد سياسي،..الخ) فإنه سيجد التفسير الملائم الذي لا ينتج عن الحاصل البسيط لمجموع أفعال الكلام البسيطة ويبدو ذلك جليا في نصDu coté de chez Swann:

" منذ وقت، أصبحت تبدو على أوديت علامات الانفعال والحيرة. ورغم أنها لم تدرك معنى هذا الخطاب، فقد فهمت بأنه يمكن أن يندرج ضمن نوع "الخطب" ومشاهد من المعتابات والتوسلات من ذلك النوع الذي أصبحت، بفعل ما تعرفه عن الرجال، تدرك، من غير أن تتقيد بتفاصيل الكلمات، أنهم لا يمكن أن يتلفظوا به إلا إذا كانوا عاشقين، وماداموا عاشقين فلا فائدة من الانصياع لهم لأنهم لن يصبحوا كذلك بعد فترة".

لم تفهم أوديت تفاصيل ملفوظات سوان Swann، ولكن بما أنها استوعبت بأي نوع من أفعال الكلام الكبرى يتعلق الأمر، فهي تعلم كيفية الرد بالطريقة المناسبة.

ولا حاجة لأن يكون الملفوظ معقدا لكي يطرح المشكل فالتأويل الصحيح لمثل أو حكمة يتطلب ليس معرفة كونه "تقريرا" فحسب (على سبيل المثال، لكل بخيل ابن ضال A père avare fils prodigue)، بل أيضا نوعا خطابيا مخصوصا تناسبه أفعال كلامية كبرى مخصوصة، فالمخاطب مطالب بأن يدرك على الخصوص أن المتلفظ لا يتكلم باسمه، بل باسم حكمة الأمم، وأنه يتلفظ بقول يفترض أن يتناسب ووضعية التلفظ.. الخ، وهنا أيضا هناك شروط مطلوبة لضمان النجاح، فـإشكالية الأنواع la Problématique des Genres تبدو أساسية هنا، فبمجرد التعرف على نوع النص، بإمكان المتلقي تأويله والتصرف بالطريقة الملائمة بخصوصه، وإلا فإنه بالإمكان حدوث شلل حقيقي.

وبإمكاننا الذهاب أبعد في قضية الأنواع المتعددة للأدب ومساندة الرأي القائل بأن الخطاب الأدبي بصورته تلك هو عبارة عن ميتا–نوع métagenre، ويفترض طقوسا خاصة وشروط نجاح معينة. إن نصا أدبيا لا يتلقى بطريقة ملائمة إذا لم يؤول باعتباره أدبيا. ونتذكر الاضطراب الذي أحدثه مقال الجريدة الذي يصرح فيه م. دوراس M. Duras بـــ "علمه" بأن كريستين فيلمان Christine Villemin قتلت طفلها، وحسب تأويل النص واعتباره أدبيا أم لا، فهو يدخل في مدارات متميزة كليا. فإذا اعتبرناه أدبا فإننا سنستبعد أي علاقة له بالواقع ونخلص الكاتب من أي مسؤولية.

وحول هذه النقطة، فإن مثال دون كيشوت Don Quichotte يحتوي على دروس مفيدة غاية الفائدة، ويتمثل جنونه في كونه يعتبر الخرافات إثباتات غير خيالية، ولا يتلقى النص وفقا للتقسيمات الخطابية المناسبة.

من شأن الخطأ التداولي النصي هذا أن يكون له تأثير تداولي غير نصي، وإن مهارة سؤفانتيس تتمثل في كون هذه المقابلة بالواقع هي نفسها خيالية.

القول/ الإظهار (العرض):

إن نظرية أفعال الكلام تؤكد بأن كل ملفوظ يحمل بعدا كلاميا illocutoire، ولكن هذه المكونة الدلالية لا تبدو بنفس الطريقة والتي يظهر بها محتواه القضوي، وعلى سبيل المثال، إذا استخدمنا صيغة الأمر لنعطي أمرا فإننا لا نقول في الملفوظ أنه أمر، بل نظهره إذ نقوله، وكذلك بالنسبة للملفوظ " إنها تمطر "، فلا نقول إنه تأكيد، ولكننا نشير إليه عن طريق التلفظ به. فلكي يكون فعل الكلام ناجحا يجب أن يتمكن المتلفظ من إعلام المتلقي بنيته في إنجاز عمل معين، والذي يشير إليه عبر التلفظ، فالملفوظ ليس ملفوظا تماما إلا إذا بدا كمعبر عن قصد من هذا النوع، ومعنى الملفوظ هو القصد في حد ذاته.

يأخذنا هذا المعنى الذي "يظهر نفسه" إلى قلب الجهاز التداولي، إلى انعكاسية التلفظ، أي إلى حقيقة أن فعل التلفظ ينعكس في الملفوظ. إن الملفوظات، كما يراها مفهوم اللغة النماذج، هي، بصورة من الصور، شفافة، وتتمحي أمام الحالة التي تمثلها. وبالمقابل، ففي المنظور التداولي لا يبلغ الملفوظ إلى تمثيل حالة معينة له إلا إذا أظهر أيضا تلفظه، فقول شيء ما يبدو ملازما للحركة التي يظهر أننا نقوله، ولا يتجلى هذا عبر أفعال الكلام فحسب، بل عبر الإشاريات Les Embrayeurs أيضا، فكل ملفوظ له علامات تشير إلى الضمير والزمان اللذان يعكسان التلفظ فيظهر نفسه إذ يظهر الفعل الذي يبرزه. ويعتبر، إذن، من المقلل، كما نفعل دوما، مقابلة استعمال "عادي" للغة حيث تصبح هذه الأخيرة شفافة ومنفعية لدى استعمالها "الأدبي" أين تتكشف باعتبارها غاية، ونكون قد اعترفنا بالموضوع البنوي لـــ "لاتعدية" (لزومية) اللغة الأدبية.

وفي الحقيقة، فإن الفكرة القائلة بوجود لغة شفافة تماما ليست صحيحة حتى بالنسبة للخطاب العادي، بما أن عملية التلفظ تترك دوما أثرا في الملفوظ، وليس بإمكان اللغة أن تدل دون إظهار نفسها.

اللغة كمؤسسة:

وكما رأينا، فلكي تكون أفعال الكلام ناجحة يجب توفر بعض الشروط. فعلى سبيل المثال، يكون فعل التحية ملفوظا بطريقة مناسبة لدى رؤيتنا لشخص للمرة الأولى في اليوم إذا كان هناك رابط بين المتخاطبين يقتضي ذلك وإذا كان المرسل إليه بإمكانه إدراك ذلك الفعل وإذا كان فعل التحية تصحبه بعض الإيماءات والإشارات..الخ.

ولا يكتسب هذا الفعل معنى إلا في إطار شفرة وقواعد متفق عليها، يمكن، بواسطتها، تعريف الآخر بأننا بصدد إنجاز ذلك الفعل.

وهكذا تمثل اللغة مؤسسة ضخمة تضمن مشروعية ومعنى كل الأفعال لدى ممارسة الخطاب. ويبدو أنه ليس بإمكاننا الفصل فصلا جذريا بين أفعال الكلام والأفعال الاجتماعية المحضة، فبين "أكد" و"عمد" ليس هناك استمرارية، ولكنها أفعال متموقعة في قطبين متقابلين من السلم ذاته، وغالبا ما يستدعي نجاح فعل اللغة شروطا اجتماعية ولسانية في الآن نفسه، إلا أنه يجب التمييز بين الأفعال التي يتوقف نجاحها على موقف المجتمع (فمثلا إن شرعية العمادة أو الزواج أو عدمها تصدر من قبل الكنيسة أو العدالة) من تلك التي يتم بالفعل إنجازها عبر التلفظ بها فقط (طلب، اقترح..).

عندما عرف دي سوسير Saussure "اللغة" بأنها مؤسسة، كان يراها "كنزا" من العلامات المتناقلة جيلا عن جيل، محيلا النشاط اللغوي إلى "الكلام "، أما التداولية فإنها تدعم الفكرة القائلة بأن اللغة مؤسسة، ولكنها تضفي عليه بعدا جديدا. وهذا يتماشى مع تغيير هام لمفهوم "الرمز اللساني ". ففي اللسانيات البنوية، يتعلق هذا الرمز بأنظمة نقل المعلومات (الترميز، فك الترميز) (encodage, décodage...)، في حين أن هذا المصطلح، بالنسبة للتداولية، يعيدالعلاقة بمعناه القانوني، ذلك أنه يعتبر أن العملية الخطابية يتحكم فيها سلوك معقد وتكون مرهونة بقضية الشرعية.

ومن هذا المنظور، فإن التكلم وإظهار بأن لنا الحق في الكلام مثلما نفعله ليسا شيئين منفصلين. فإذا كانت العملية الخطابية تسيرها مبادئ من المفروض أنها معروفة من قبل المتخاطبين الذين يتبنونها للتأثير في الآخر، فإن ذلك يؤدي بصورة طبيعية إلى إشكالية "قواعد اللعبة" règles du jeu.

ففي "دروس اللسانيات العامة" لسوسير، تتيح المقارنة الشهيرة "للغة" بلعبة الشطرنج توضيح مفهومي القيمة والآنية. وبالمقابل، فإن ما يهم التداولية هو قبل كل شيء حركية اللعبة. وكما هو الأمر بالنسبة للعبة التنس أو لعبة الشطرنج، فالشركاء في التخاطب الخطابي يشاركون في نفس اللعبة، التي تقدم شروطا لمواجهة طقوسية تقوم على استراتيجية موضعية أو شاملة، تتم إعادة تحديدها دوما، تبعا للاستباقات التي يقوم بها الممثلون.

ولقد أكد فيلسوف اللغة جون سارل John Searle على الطابع التأسيسي لقواعد اللعبة هذه، فبينما ينحصر دور قواعد مرور الطريق في تنظيم عملية مستقلة عنها، نجد أن قواعد لعبة التنس كتلك المتعلقة بالتبادل الخطابي تأسس هذه العمليات، فربح شوط أو البدء بالتسديد ليس له معنى إلا ضمن هذه اللعبة وهي لعبة التنس (خارج لعبة

التنس لا يعتبر رمي كرة وراء الشبكة بدءا بالتسديد، وإن التأكيد والوعد والطلب ليس لها من معنى إلا في المؤسسة اللغوية وعبرها. وفي استمرارية لفكر أوستين، تبدو اللغة كمؤسسة تتيح إنجاز الأفعال التي لا تكتسب معنى إلا من خلالها.

هذا لا يعني بأن النشاط الخطابي هو مجرد لعبة لا تنجر عنها نتائج في مقابل الطابع الجاد للعالم غير اللغوي. بل على العكس، إن التداولية، إذ تقول بأن القول هو بصورة من الصور فعل، وإذ تدرج الخطاب ضمن نظام مؤسسي، إنما تنحو نحو إعادة النظر في تلك المعارضة القديمة بين الكلمات و "الواقع" التي تتلخص في المقولة الشهيرة لهاملت Hamlet "كلمات، كلمات، كلمات" (words, words, words).

وفي نفس الإطار الفكري، يظهر الخطاب الأدبي هو أيضا كمؤسسة، بتقاليده التلفظية. تكتسب القصيدة الريفية أو الكوميديا معناها بداخل هذه المؤسسة، ويتم التواصل الأدبي على صعيد أوسع وبصورة أفضل. وبهذا طورت التداولية مفهوما جديدا للأدب يختلف كثيرا عن ذلك الذي فرضته الرومانسية التي تولي اهتماما كبيرا بـــ"الرؤيا الشخصية" للكاتب (أو الفاعل الجماعي) وتضع التقاليد الخطابية للمؤسسة الأدبية في الدرجة الثانية.

الـــــتــــفاعــــــل

إن إشكالية أفعال الكلام كغيرها من مجموع التيارات التداولية تولي دورا أساسيا للتفاعل الخطابي إلى حد أن هذا الملمح يكفي، بالنسبة للبعض، لتسجيل بحث ضمن المدار التداولي. وبما أن اللغة لم تعد مدركة على أنها وسيلة لتعبير المتخاطبين عن أفكارهم وحتى لنقل المعلومات، ولكن كنشاط يغير حالة بتعريف الآخر بنية تداولية، ومنذ الحين الذي اعتبرت فيه التداولية كـــ "طقس" rituel قائم على مبادئ تعاون بين المشاركين في العملية التلفظية، ولن تصبح الهيئة الدالة في مجال الخطاب هي المتلفظ بل الزوج الذي يتكون من المتكلم locuteur والمخاطب allocutaire والمتلفظ énonciateur والمتلفظ المشارك co–énonciateur، حسب تعبير أ. كوليولي A. Culioli.

ليس "أنا" (je) إلا ملازما لـــ "أنت" (tu)، "أنت" (tu) افتراضي؛ إن حاضر التلفظ ليس متعلقا فقط بالمتلفظ بل حاضرا مقسما خاصا بالمخاطبة، وفي هذا تتعارض التداولية مع اللسانيات البنوية، ولكنها تعطي قوة جديدة للمفهوم السوسوري الذي يرى بأن اللغة مؤسسة تضمن استقرارها الحركة المستمرة الناتجة عن التبادلات اللغوية échanges verbaux.

وهكذا، نركز كثيرا على فكرة أن المتلفظ يصنع ملفوظه حسب ما قاله الـــمتلفظ المشارك co–énonciateur، وأيضا تبعا للفرضيات التي يبنيها حول القدرات التأويلية لهذا الأخير. إن فعل التوقع والاستعانة باستراتيجيات بارعة جعلت لمراقبة وتوجيه العملية التأويلية ليس لها بعد ثانوي بل تكويني للخطاب. ولنتفحص هذا المقطع من du coté de chez Swann حيث تحدث السيدة كوتار Mme Cottard خلال عشاء سوان Swann عن مسرحية رائجة لم تشاهدها بعد:

(قالت : "أتعلمون أن الأمر متعلق بطريقة الحكي" بعد ملاحظتها هيئة سوان الجادة افترضت بأنه لا يطيق فرانسيون:

- "وفضلا عن ذلك، أظن أنها ستخيب ظني، لا أظن أنها سترقى إلى مستوى سارج بانين الذي تعشقه السيدة كريسي" (...) (Gallimard, "folio", p. 306)

كانت وهي تتحدث، تراقب مخاطبها الذي كانت تسعى إلى كسب رضاه. وإذ لاحظت برودته وجفاءه، حولت مسار حديثها مستخدمة " mais " (أنظر الفصل 3 حول" mais ") مرفوقا بـــ "أنتم تعلمون" (Vous savez)، الذي يلتمس تواطؤ الـــ co-énonciateur بطلب تقاسم مسؤولية القول. إن تغيير المسار هذا، الذي من شأنه أن يسمح لها باستعادة الموقع المفقود، يقتضي وضع استراتيجية جديدة، قائمة على أساس فرضية، خاطئة. إن عبارة "فضلا عن ذلك" تضمن استمرارية كلامها وتعلن في الوقت نفسه عن توجه جديد، قائم على أساس تراجع تكتيكي.

إن تقديم " أظن " (je crois) وربطه بالمضارع يقتضي تكفلا تلفظيا قويا، ويبدو أنه من الضروري اعتماده لاستدراك الموقف بسرعة. ويتوجه المتلفظ التالي الوجهة نفسها فيما يتعلق بسياق وروده بإعادة استخدام "أظن" (Je crois) والتذكير بأذواق أوديت Odette الذي يرمي إلى الحصول على إقحام سوان Swann : وبما أن السيدة كوتار Mme Cottard تعلم بأنه يعشق أوديت Odette، فهي تستنتج بأنه يحب ما تحبه هذه الأخيرة. وبلباقة، تظاهرت بأنها تستحضر، كما في معرض الحديث، وكأن الأمر يتعلق بمعلومة ثانوية، (" وضعت عبارة "معشوق السيدة كريسي" في وضع عطف بيان) ما هو في الحقيقة عماد استراتيجيتها وسبب وجود ملفوظها.

في هذا المثال، يظهر لنا بوضوح أن الخطاب لا يبدو أنه تعبير عن الحالة الداخلية بقدر ما هو شبكةمن الاستراتيجيات المعقدة والمتقلبة التي يحاول المتلفظ بواسطتها إعطاء قيمة لنفسه من خلالها والتغلب على مخاطر الإنقاص من قيمته. كانت السيدة كوتار تعلم أن "سوان" هو، في الوقت نفسه، متذوق للجمال ورجل مجتمع جد مرموق، لذا فقد كانت تخشى أن يكون عنها صورة سلبية. هذا القلق هو الذي أدى بها إلى مراقبة ردود فعله وتحويل مسار تلفظها عند ظهور أي خطر. هذا التصرف له قيمة مثالية: إن كلام المتلفظ يجب أن تؤكده الإيماءات les Mimiques ونظرات الـــمتلفظ المشارك Le co-énonciateur. إن التواطؤ هو الفضاء الذي يتحرك فيه الخطاب.

ولا يكتفي المتلفظون بنقل المضامين التمثيلية، بل يسعون إلى التموقع دوما من خلال ما يقولون، وإلى إثبات النفس عبر الإثبات والسعي إلى ضمان حضورهم في الخطاب

(" أسمح لنفسي بأن أقول لك أن...." "je me permets de vous dire....")..الخ.

وفي المنظور التداولي، لا يعتبر تأويل الملفوظات كترتيب لوحدات تنطوي على معان ويكفي التعرف عليها وتركيبها، بل تعتبر كشبكة من التعليمات تتيح لـــلمتلفظ المشارك co-énonciateur بناء المعنى، وهكذا تجيب على فرضيات المتلفظ حول المتلقي، فرضيات هذا الأخير حول المتلفظ. وكل الفرضيات تقوم على معايير وآراء

رائجة يفترض أن يتقاسمها المتحدثون بلغة ما عند الخطاب. وينجم عنه لاتماثل جذري dissymétrie radicale بين التلفظ والتلقي، مثلما يبينه أ. كوليولي A Culioli :

" يفترض كل ملفوظ تلفظا لاتماثليا والإنتاج والتعرف التأويلي. إن قصد التلفظ على الإنتاج وحده ليس له معنى إذا لم تكن هناك نية مزدوجة لإنتاج المعنى لدى المتلفظين الذين يعتبرون المرسلين والمتلقين في الآن ذاته وليس تباعا بل في زمن التلفظ ذاته "[5].

وهكذا فإننا نحمل على منح الوزن الحقيقي للتعليقات التي يقوم بها المتلفظ حول قوله، مع إعادة صياغة واستباق ردود فعل الآخر، إنما يسعى لمراقبة التأويل ولن يتمكن، في الحقيقة، أبدا من السيطرة عليه تماما.

إن التركيز على التفاعل لا يعني بأن كل ملفوظ سيصبح مباشرة حوارا dialogue، حديث يدور بين أفراد بحضورهم، والأمر واضح خصوصا فيما يتعلق بالخطاب الأدبي الذي تقتضي فيه أنواعه المتعددة وجود مسافة ضرورية بين الكاتب والمتلقي، وهو أمر وارد أيضا بالنسبة للعديد من الأجناس غير الأدبية. ولن نخلط بين الحوار والبعد الحاوري dimension dialogique، فكل ملفوظ حواري إلى أبعد الحدود، حيث أنه لن يمكننا التحليل تحليلا مقبولا إذا لم نتاوله من حيث توجهه نحو الآخر، ونحن هنا أمام فكرة من الأفكار الأساسية للساني الروسي م. باختين M. Bakhtine، الذي يستند إليه الكثير من التداوليين : " إن كل ملفوظ يوضع بالنظر إلى مستمع، أي بالنظر إلى فهمه وجوابه –ليس جوابه الفوري بالطبع، إذ لا يجب مقاطعة خطيب أو محاضر بملاحظات شخصية، وكذلك بالنظر إلى موافقته أو عدم موافقته، أو، بعبارة أخرى بالنظر إلى الإدراك التقييمي للمستمع (...) نحن نعرف الآن بأن كل خطاب هو خطاب حواري موجه نحو شخص معين قادر على الفهم وإعطاء الجواب، حقيقيا كان أو افتراضيا"[6].

وعلى مستوى تجريبي أكبر، يقود هذا الانشغال اللسانيين إلى إعادة الاعتبار إلى واسمات تداولية كثيرا ما أهملت. فبالإضافة إلى الكثير من مظاهر اللاتجانس التلفظي (الخطاب المنقول، السخرية، علامات التنصيص، الخ..) التي تحول نصا إلى ملتقى أصوات، يتم التأكيد على تلك العناصر التي تجمع، حسب مقادير مختلفة، قيما تلفظية نصية وحجاجية وتفاعلية تحادثية: " Quoi ! " (ماذا) " allons donc ! " (هيا)، "ma foi" (لعمري)، " bien " (جيد)(في المثال "je sais bien que" (أعلم جيدا أن)، " Certes " (بالتأكيد)

.... الخ. ومن هذا المنظور، تطور أحد مجالات البحث الأكثر نشاطا في التداولية، وهو تحليل المحادثة analyse conversationnelle الشديد التأثر بعلم الاجتماع الأمريكي[7] ذي النزعة "الأتنولوجية ". يلتقي هذا النوع من الأعمال

---

[5] - - "Sur quelques contradictions en linguistiques", Communications, n° 20, 1973, p. 86.
[6] - - T. Todorov, Mikhail Bakhtine. Le principe dialogique. Suivi des écrits du Cercle de Bakhtine, coll. "Poétique", Seuil, 1981, p. 292 et 298.
[7] بالنسبة لهذا التيار، سنرجع بالفرنسية إلى: - *Engager la conversation* de John Gumperz, Paris, Minuit, 1989; sur E. Goffmann, actes du colloque dirigé par R. Castel, J. Cosnier et I. Joseph, Paris, Minuit, 1989. الأعمال الأكثر تقدما في مجال تحليل الخطاب هي تلك المتعلقة بـ :مدرسة جنيف"؛ بإمكاننا قراءة E. Roulet et al. *l'Articulation du discours en français contemporain,* Berne, Lang 1985, et l'ouvrage de J. Moeschler المذكور في آخر هذا الفصل. نذكر أيضا، بإدارة J. Cosnier et Kerbrat-Orecchioni, *Décrire la conversation,* Presses Universitaires de Lyon, 1989.

مع الأبحاث حول الحجاج، التي تدرس هي الأخرى التلاعبات البارعة التي ينسجها المتخاطبون في مجرى الديناميكية الاتصالية حيث يرتبط تسلسل تدخلاتهم ارتباطا وثيقا باستراتيجيات التقاط الكلام، وعمل ضمني للمفاوضة المستمرة. وفي أفق هذا المنظور، تتجلى الفكرة بأنه من الممكن مطابقة معنى الخطاب باستراتيجياته وديناميكيته وهدفه. نحن إذن أمام إعادة تقييم لكل ما يمكن في الخطاب أن يتم التعبير عنه في صيغة استراتيجيا. إن التداولي "أ. ديكرو" (O. Ducrot)، عندما وضع في صدر مجلة " Sémantikos" homo homini lupus (الإنسان ذئب للإنسان)، قد بين جيدا العلاقة الوثيقة بين علم الدلالة Sémantique والجدل Polémique، بالمعنى الواسع. إن الحوار ليس تبالا متناغما للمعلومات بقدر ما هو شبكة مرنة يحاول كل واحد فيها أن يحبس فيها المتلفظ المشارك le co-énonciateur.

هذا التواجد الدائم للآخر، وهذه المواجهة التلفظية الضمنية تكشف عن نفسها بطرق عديدة، ويكفي توجيه منظور التحليل في هذا الاتجاه الحواري لتتجلى مجموعة من العناصر. وعلى سبيل المثال، فإن مجرد توضيح لسابقة أدائية préfixe performatif يدرك على أنه من قبيل المجادلة : " إنها تمطر " (il pleut) لا تعني " أؤكد أنها تمطر " (j'affirme qu'il pleut)، وهذا الملفوظ الأخير يفترض مجالا من الاعتراضات الافتراضية أو الحقيقية. وفي السياق نفسه، فإن القول " أعلم أنها تمطر " (je sais qu'il pleut)، مقارنة بالقول البسيط " إنها تمطر " (il pleut)، يتلون بقليل من النقض، فكل تكفل تلفظي قوي يبدو موجها ضد تلفظ آخر. عندما قال دون دياغ Don Diègue للكونت " أعلم بذلك، أنتم تخدمون الملك جيدا " (je le sais vous servez bien le roi)، هذا " العلم " (savoir) يدرك في واقع الأمر باعتباره عملية تنازل من قبل دون دياغ لمخاطبه الغارق في المفاخرة، ولكن عندما قال رودريغ Rodrigue للكونت نفسه : " أتعلم أن هذا الشيخ هو الفضيلة والحكمة وشرف زمانه، أتعلم هذا ؟ ". فسؤاله لا يتعلق بالضبط، بسعة معارف الكونت، ولكن يخبره بطريقة التلفظ هذه، ما يجب عليه أن يعرف، كما في البلاغة الماضية حيث نقول ما نزعم عدم الرغبة في قوله (لن أرسم) (" je ne peindrai pas ")، وهنا، نعلم، تحت غطاء الاستعلام، معارف الآخر. إن تكرار " هل تعلم " (sais-tu)(كررت مرتين فيما سبق في النص) تمسرح théatralise مبادرة رودريغ Rodrigue وموقفه المتمثل في حبس الكونت داخل كلامه دون مقدمات. وهو يبدو متأكدا من حقه، سواء في السنن الخطابي أو السنن الأرستقراطي؛ وذلك عندما سمح لنفسه باستعمال ضمير "أنت" في مخاطبته للكونت، وترديد عبارة "أتعلم هذا "، وهو إذ يضع مساءلة فإنه يفرض عليه خطابه ومن ثمة يتحداه رافضا الوضع المتميز الذي يمنحه الكونت لنفسه والوضع الذي يسنده الكونت له.

مـــــلتقـــــى الأصـــوات:

إن التمييز بين الحوار والبعد الحاوري يقود إلى إبراز القيمة التفاعلية لكل ملفوظ، هذه القيمة لا تتجلى في المسرح فقط. وقد جرت العادة بنسبة نصوص من هذا النوع إلى " البلاغة " وغالبا بغرض التحقير. ولكن التصرف كذلك يعني الامتناع عن تحليلها وإقصائها ضمنيا من الأدب الحقيقي الذي يجب أن يكون "صادقا" و" لا يحاول التأثير ". والحقيقة أن هذه الصورة عن الخطاب الأدبي هي صورة موروثة عن الرومانسية التي تتجاهل

هكذا جزءا معتبرا من المدونة. إن البعد الحواري يمكن أن يظهر جليا حتى في نص سردي من نوع السيرة الذاتية autobiographique. خلال رحلته في منطقة بوهيم (Bohème) ذات ليلة جميلة، ذكر شاتوبريان Chateaubriand ليالي روما وابتكرشخصية الشابة الإيطالية سينتي Cynthie (اسم امرأة تغنى بها الشاعر اللاتيني بروبرس Properce).

ولا يتعلق الأمر إطلاقا هنا، بنص في وضعية خطابية، ولكننا ندرك بوضوح إبراز تفاعلين متراكبين: الأول بين الراوي والقارئ، المخاطب مباشرة، والثاني بين الراوي وشخصية سينتي Cynthie. إن الروابط الحجاجية والمنادى والـــ "أنت" (tu) هي العوامل التي تهيكل هذا النص الذي يندمج فيه كل من الرؤية (voir) والقول (le dire) ويندمج فيه بناء فضاء تشكيلي مع عملية التلفظ (أنظر الإشارة إلى "المنظور المخادع "). نجد هنا عملية إخراج مزدوج، تلك المتعلقة بلوحة وبكلام، إنها مسرحة ذات بعد مزدوج Théatralité à double portée. ومن المؤكد أن التحليل الذي يهمل فيه الثاني لفائدة الأول هو تحليل يخطئ هدفه.

إن المنظور التداولي يتيح التركيز أيضا على نقطتين هامتين: فعل القراءة l'acte de lecture والتناص l'intertextualité.

سنلاحظ أن نص Chateaubriand يفترض قارئا على درجة عالية من الثقافة، يعرف من هي سينتي Cynthie، والحورية Egérie، وDélie و Lalagé ويستحضر فيبوس Phébus من وراء الاستعمال الوارد للفيبيات "phébéennes"، الخ. وهنا جانب مهم سنعود إليه (في الفصل 2): إن النص يؤسس هنا وضعية قراءة (تتعلق بشخص يملك ثقافة لاتينية إغريقية واسعة) ويتضمن بهذا فضاء تواطؤ عبر استراتيجيات فك الرموز التي يفرضها، لكن هذا لا يستثني على الإطلاق عملية فك رموز بها ثغرات بل خاطئة.

علاوة على ذلك، فبإعطائه لشخصيته اسم امرأة تغنى بها شاعر من العصور الرومانية القديمة، وبذكره Délie التي تغنى بها Tibulle، Lalagé و Lydie اللواتي تغنى بهما Catulle، بشملهن كلهن في شخصية Egérie، فإن الكاتب يدرج موازبة تلفظه الخاص في خضم هسهسة الكلام الشعري السابق، فهو يجعل قوله مشروعا بإظهار ملهمته سينتي Cynthie (العتيقة والمعاصرة في الآن نفسه) محاطة بـــ "تمتمة " "الأقوال الغريبة" للملهمات الأخريات، ومن وراء ذلك، يفترض النص حوارية dialogisme تأسيسية بين أدب Chateaubriand والأدب اللاتيني والمساهمة في فضاء بلاغي مشترك وفي نوع القراءة التي يحددها.

العبر– نصية Transtextualité:

تتجلى العديد من النصوص باعتبارها ملتقى تناصي مسكونا دائما بكلام الآخرين يتردد فيه صداه، ولقرون عديدة، شكل القسم الأكبر من الأدب الفرنسي نوعا من الطروس، فلم يكن متاحا سوى للقراء المتعودين على الثقافة الإغريقية اللاتينية، ولقد كان هناك فضاء كبير لـــ "إنسانيات" موغلة في القدم، تحركت داخلها النصوص،

ولكن هذا التناص ليس إلا جانبا بارزا من ظاهرة تخص مجموع المؤلفات الأدبية وهي العبر- نصية Transtextualité، بأخذ مصطلح لـــ ج. جينيت G.Genette.

إن دراسة الأدب بالنسبة لجيرار جينيت تتطابق مع دراسة العبر- نصية Transtextualité حسب تعبير جيرار جينيت و"التعالي النصي للنص" ("كل ما يربطه بعلاقة ظاهرة أو خفية مع نصوص أخرى "[8]). إن جيرار جينيت يواصل هنا تفكير باختين Bakhtine الذي يرى أن "الخطاب يتلاقى مع خطاب الآخر في كل الطرق المؤدية إلى موضوعه، فهو لا يستطيع اجتناب الدخول معه في تفاعل حاد وشديد. إن آدم الأسطوري، الذي أنتج أول خطاب عن عالم بكر لم يقل بشأنه بعد شيء، إن آدم المعزول هو وحده الذي يستطيع أن يتفادى تماما إعادة التوجيه المشترك هذا بالنسبة لخطاب الآخر "[9].

ويميز ج. جينيت G.Genette أصنافا محتلفة للعبر- نصية Transtextualité: التناص Intertextualité الذي يفترض الحضور المشترك لنصين على الأقل (التلميحات، الإستشهادات، السرقة الأدبية....)، وهو العلاقة الأكثر وضوحا.

- المناص Paratextualité: عنوان، تحذيرات، مقدمات، ملحقات، ملاحظات..الخ.

- الماوراء- نصية Métatextualité: الأشكال المختلفة للتعاليق.

- المعمار النصي L'Architextualité: وهي التسميات النوعية (كوميديا، أقصوصة)، والتي ليست معبرة عنها بالضرورة.

- التعالق النصي L'Hypertextualité : العلاقات الموحدة لنص أضيف إلى نص سابق، سواء بالتحويل أم المحاكاة.

لا يسعى الإنتاج إلا إظهار ex nihilo بقدرما يسعى إلا تحريكه وقلبه، الخ لما سبق قوله. وهو لا يكون مقروءا، بصورة معينة، إلا فيما يتعلق بمخططات مستبطنة مسبقا إلا أنه لا يمكننا أن نلبث في "وهم أدب غير مستقر" (أو حقن ماعبر-نصي)، المتواجدة دوما بالنسبة لنفسها في شموليتها وكشمولية"[10]

الــــخيال وأفــعال الــكلام:

إن العلاقة بين أفعال الكلام والأدب قد لا تتوقف عند اعتبار ما قدمته التداولية في مجال التفكير حول اللغة. وبالفعل، فهي ندفع إلى تمييز خصوصية الملفوظات الأدبية باعتبارها أفعال كلام. ما هي القيمة الحقيقية لملفوظ تخيلي؟ هكذا تساءل سيرل Searle حول "الوضعية المنطقية للخطاب الخيالي"، مع الإشارة أن القصة الخيالية لا تتوافق مع شروط الإثبات الحقيقي: المتلفظ ليس صادقا ولا يلتزم ولا يضمن حقيقة أقواله. إن التخييلات هي إذن،

[8] - .- G. Genette, Palimpsestes, Seuil, 1982, p. 7
[9] - - T. Todorov, op. cit., p. 98.
[10] - - G. Genette, op. cit., p. 453.

بالنسبة لسيرل إثباتات يتظاهر الكاتب بالتلفظ بها. وعليه، سيكون في موقف التلفظ نوع من عدم البت في القيمة التحقيقية valeur illocutoire.

ومع ذلك، سنأخذ بعين الاعتبار أن مفهوم الخيال لا يتطابق تطابقا تاما مع مفهوم الأدب (فالحديث العادي ملئ بملفوظات الخيال) وأن الأدب مكون من أعمال وليس ملفوظات معزولة. ليس بإمكاننا حصر الخيال الأدبي في موقف المتكلم بالنسبة لتلفظه الخاص بما أنه من بين خصوصيات الخطاب الأدبي جعل مفهوم المتلفظ نفسه مسألة إشكالية وتمييز الشخص الذي يكتب من صور الكاتب التي يمكن أن تحددها المؤسسة الأدبية.

اقترح ج. جينيت G. Genette فكرة إدراك المتخيلات السردية باعتبارها ناتج فعل كلامي غير مباشر[11]. فهي، بالنسبة إليه، مزاعم مصطنعة، ولكنها تنتج "عملا" بصورة غير مباشرة، حيث يقدم الكاتب نوعا من الأفعال الإخبارية التي تغير الحقيقة بموجب السلطة التي تمنحها له وضعيته ككاتب. هذا الفعل الإخباري يؤسس الحالة التي أحدثها تلفظه، وكما أن ملفوظ "الجلسة مفتوحة" ("la séance est ouverte") الذي صدر عن الشخص المؤهل، يحدث بصورة غير مباشرة الحالة التي من المفروض أن يصفها، فإن الملفوظات التخييلية تؤسس في ذهن القارئ العالم الذي يفترض أنها تمثله. إن المتلفظ ينتج مباشرة إخبارا مزعوما وبصورة غير مباشرة إعلانا ("أعلن خياليا بأن......") ("je décrète fictionnellement que..") إلا إذا فضلنا اعتبارها طلبا("تصوروا أن... ")(" Imaginez que").

في هذا النوع من المقاربات، يمكننا تمييز اتجاهين أساسيين، فبالنسبة للأول، هناك أفعال كلام خاصة بالأدب (مباشرة أو غير مباشرة)، أما بالنسبة للثاني، فإن الخطاب الأدبي هو محاكاة لأفعال الكلام "الجدية" والتي يتظاهر الكاتب أنه يتلفظ بها.يحاول البعض إيجاد حلول توافقية، ذلك هو الأمر بالنسبة إلى ماري لويز براث[12] Mary Louise Pratt التي ترى في القصص الأدبية نوعا من الملفوظ ناتج عن تصنيف أوسع، وهي "النصوص السردية المعروضة" (Textes narratifs exhibés)، (Narrative Display Texts) التي تدعي أنها أكثر إثارة للاهتمام والتسلية منها إعلامية، والتي تبدو في الحال، جديرة بأن تحكى. إن النصوص الأدبية، بفعل وضعها التلفظي المتميز، تستفيد من تلق "جد محمي "، حيث يقدم القارئ الكاتب ثقة كبرى. في مثل هذا المنظور، فإن الحكي الأدبي، رغم أنه يبقى مرتبطا بعمليات الحكي العادي، إلا أنه يكتسب وضعا خاصا.

لا تتناول هذه الأفكار إلا لإظهار تمفصل ممكن للخطاب الأدبي والتداولية، فمهما تكن الحلول المعتمدة، فإننا نجبر في وقت أو آخر على إقامة فاصل بين النظام الأدبي والنظام غيرالأدبي للخطابات، ولكن كل قطيعة جذرية تبدو في الحال غير شرعية، فترفض ممارسة التمييز، وتقسيم الممارسة اللغة إلى مجالات يفصلها فاصل سميك.

[11] - - "Le statut pragmatique de la fiction narrative ", Poétique, 78, avril 1988, p. 237- 249. Sur cette question, on peut lire aussi T. Pavel, Univers de la fiction, Paris, Seuil, 1988; C. Jacquenod, Contribution à une étude du concept de fiction, Berne, Lang, 1988; R. Martin, "le paradoxe de la fiction narrative", le Français moderne, n° 3- 4, 1988.
[12]- - Towards a speech act theory of literary discourse, <Bloomington, Indiana University Press, 1977.

وفي ظل هذه المحاولات لتعريف الظاهرة الأدبية من وجهة نظر تداولية، بإمكاننا رؤية نوع من التطابق في المواصفات "الأدبية" (littérarité) التي بحث عنها البنويون دون جدوى. ويتعلق الأمر من الجهتين بإبراز الميزات الخاصة بالأدب؛ ففي السياق البنوي، تم البحث عن ميزات خاصة بالبنية، وفي السياق التداولي، يتم العمل على المستوى التحقيقي illocutoire، والأمر متعلق هنا بإمكانية إقامة وضع للأدب وتخصيص نطاق له ضمن حدود عالم الخطاب.

ويبدو لنا أنه إذا كان للأدب شيء "خصوصي " فهي القدرة على خلخلة التوازن، هذه القدرة التي تتطلب من المنظرين حلولا معقدة ولكن غير كافية على الدوام. لن نستخلص من كل هذا الخاتمة المتعجلة التي ترى بأن أي معرفة حول الأدب هي أمر غير ممكن، لكن يجب الإبقاء على نوع من الحذر عندما ندعي أننا " نطبق "، بكل براءة، على النصوص الأدبية صيغا فكرية وأدوات تحليلية أعدت أساسا للغة.

المقال مأخوذ من كتاب (التداولية للخطاب الأدبي) لدومينيك مانقياوpragmatique pour le discours

littéraire

الناقدة ما بعد الكولونيالية غياتري سبيفاك: التفكيكية تتحدث فقط ضمن لغة الشيء الذي تنتقده !...

أجرى الحديث: جوشان ري وبيتر أزبورن **ترجمة: أزراج عمر**

تصنف الناقدة والمفكرة الهندية الأصلية غياتري سبيفاك كواحدة من أبرز الأصوات الأساسية في مجال النقد الثقافي مابعد الكولونيالي. وبعبارة أكثر دقة ووضوحا، فإن سبيفاك تعد من مؤسسي نظرية مابعد الكولونيالية. فهي تدرس اللغة الإنجليزية بالجامعات الأمريكية. وفضلا عن ذلك فإنها قد اشتهرت في بداياتها بترجمتها لكتاب الفيلسوف الفرنسي الجنسية واليهودي الجزائري الأصل جاك دريدا الذي يحمل عنوان "عن علم النحو" الصادر عام 1976 عن منشورات جامعة جونز هوبكنز. وتتصدر هذه الترجمة مقدمة غياتري سبيفاك الطويلة والقوية. ولهذه الناقدة المفكرة عدد من الكتب الهامة مثل "في عوالم أخرى: أبحاث في السياسة الثقافية"، و"نقد العقل مابعد الكولونيالي. ونظرا لقيمة وأهمية هذه المثقفة البارزة نترجم هذه المقابلة التي أجراها معها فيلسوفان بريطانيان وهما من الجيل الفلسفي المتفتح على الفلسفة الأوروبية–القارية، وعلى حقل الدراسات الثقافية، ونظرية الأدب، والتحليل النفسي خلافا للأجيال الفلسفية البريطانية التقليدية التي تتشبث بالوضعية المنطقية والتجريبية.

ففي هذه المقابلة تفتح غياتري سبيفاك ملفات الحركة النسوية، والفلسفة الماركسية، والفلسفة التفكيكية:

- سبق أن وصفت نفسك "كماركسية نسوية تفكيكية عملية"، فما هو نوع العلاقة التي ترينها بين هذه الجوانب المختلفة في عملك؟
- *إن الماركسية مشروع رؤية كيف يعمل "الرأسمال"، في حين أن "الحركة النسوية" تتصل بنظرية الفرد، وتطور الرجال والنساء كأفراد، وبالممارسات الإجتماعية في تعاملها مع تحديدات الإختلاف الجنسي. ليست الترعة "النسوية" منظمة ومجردة وتنظيرية مثل الماركسية، ولهذا يبدو أن مشروعي "النسوية" والماركسية من غيرالممكن التفكير فيهما على أنهما يعملان معا، رغم اتصال بعضهما البعض.

بالنسبة "للتفكيكية" فإنها في الواقع إسم لكيفية عمل هذين الشيئين، أو أي نوع من الشيء. إنها أقل جوهرية من هذين المشروعين.

إنها في الأغلب طريقة للنظر أكثر ما هي برنامج للعمل، إنها طريقة للنظر إلى الطريقة التي ننجز بها الأشياء. ولهذا، فإن طريقة النظر هذه تصبح هي ما تفعله بالذات.

- إذا من الممكن أن يكون المرء تفكيكيا محافظا؟
- *أنا أؤمن بذلك.
- هل تقولين بأنك بدأت بتعلم المنهجية النفكيكية، ومن ثم انتقلت إلى تطبيقها في مشاريع تطبيقية؟
- *لا أعتقد ذلك. من غرائب الأمور بخصوص التفكيكية أو "لأشياء التي يكتبها دريدا" أن الناس المأخوذين بها يقولون إلى حد ما: "إن هذا ما كنت بصدد التفكير فيه مسبقا". عندما قرأت لأول مرة كتاب جاك دريدا "عن علم النحو" أحسست أنني فهمت ما كان يقوله، وكان هذا بمثابة الطريقة الأفضل لوصف ما كنت أحاول فعله مسبقا. هل كنت مخطئة أم على صواب؟ لا أدري. أحسست لمدة من الزمن بغضب شديد جدا مع "التفكيكية"، وذلك بسبب أن جاك دريدا بدا غير ماركسي تماما، بل جنسيا أيضا. وقد حصل هذا معي بسبب أنني أردت أن تكون "التفكيكية" ما لم تكنه، أدركت قيمتها عن طريق أدراك حدودها، وعن طريق عدم الطلب منها أن تعمل لي كل شيء.

لم أعد أحس بأنه يجب علي أن أخرج وأهيم بحثا عنه في كل حقل. إنني لا أملك إلا قليلا من الصبر تجاه الناس المنغمسين عميقا على نحو أنهم لا يملكون أي شيء جوهري للتفكير فيه.

ومن جهة أخرى، لا أعتقد أنني الآن متأثرة به أكثر بكثير مما كنت من قبل عندما كنت غاضبة جدا من "التفكيكية" لكونها لم تكن كل شيء.

التدريب والانضباط في الفكر

- إن مقدمتك لكتاب جاك دريدا عن "علم النحو" كشفت عن سيطرتك المهنية الكاملة على الفلسفة، وعلى تاريخ الفلسفة، ولكنك تكررين القول بأنك ناقدة أدبية ولست فيلسوفة. ماذا يعني هذا؟

- *هذا يعني أنني آخذ الحدود الانضباطية الصارمة على محمل الجد بامتياز. إذا كنت تريد أن تنجز عملا تنظيميا داخليا فينبغي عليك أن تعترف بأن كل هذه السنوات من التدريب على الانضباط يصنع الاختلاف. أنت في حاجة إلى تصفية النظم الأخرى. يأتي طلبة الدراسات العليا في الفلسفة إلى قسمي ويقولون لي: "نحن لا نفهمك"، وهم يقصدون بذلك: "أنت لا توفرين لنا شرط الوضوح، ولذلك فإن عملك لا يساوي شيئا". إنه صعب عليهم، أولئك الذين تعلموا الملاحظة المغلقة الأبواب، والدوغماتية العديمة القيمة أن يفهموا مقاصدي. إنه يجب علينا ألا نستخف بالصعوبات.

هنالك الكثير من اللاشيء ما عدا (ism) الذي يلحق بالكلمات الذي مورس على جاك دريدا داخل الفلسفة بالولايات المتحدة الأمريكية. لا شيء إلا الصوفية، لا شيء إلا فتغنشتاين. أنا لا أقول بأنني ناقدة فقط، إنما أقول إنني ناقدة أدبية.

هل يملك المثقف صوتا حقيقيا؟

- يعتقد كثير من الناس أن النشاطات النظرية اليسارية في أمريكا قد ضيعت طريقها لبعض الوقت في السنوات العشرين الأخيرة، بحيث توقفت عن محاولة الوصول إلى القاعدة العريضة من الناس. وهكذا أصبحت تلك النشاطات نظما أكاديمية. ما هو رأيك في هذا التحليل.
- *هل كان ذلك قضية، أم أن "اليسار" قد ضيع طريقه؟ أم أن "اليمين" أصبح يعرف طريقه؟ يعتقد بعض الناس في أوروبا أن الولايات المتحدة الأمريكية هي مستقبل المشروع الثقافي لأن نظام التعليم ثلاثي العناصر.هناك مؤسسات النخبة القليلة، حيث يمكن لهؤلاء أن يأتوا أو يذهبوا، وحيث يوجد الكثير من الأناقة الراديكالية. في الولايات المتحدة الأمريكية يوجد "يسار" سياسي عملي، ولكنه يملك في أحسن الأحوال صلة ضعيفة مع "اليسار الأكاديمي"، أي الجماعات الثقافية المنظمة بشكل تام. هنالك سؤال يطرح: في أي نوع من الدولة يملك المثقف أي صوت حقيقي فيما يتعلق بقضايا الدولة؟ في المناطق المستقلة حديثا من الاستعمار، تعتقد النخبة الوطنية البرجوازية أنها تسييسا. وفي الواقع فإن أفراد هذه النخبة يملكون صوتا قويا فيما يتصل ببناء الهوية الوطنية.
- تحدثت فيما سبق حول مشكلة التفكيكية، وإخفاقها في الاستجابة لشروط الوضوح التي يطلبها بعض الناس.

هل يعزلها ذلك عن النشاط السياسي العلمي ؟

- *لماذا نجد امتياز شروط الوضوح مؤسسة من طرف أقسام الفلسفة التحليلية؟ إنني عن هذا أتحدث. فالتفكيكية صالحة في الاتصال السياسي، وليس في التخطيط الواسع. إنها صالحة في الأوضاع التفكيكية، ولكنها ليست مفيدة كثيرا وعلى الإطلاق في السياسات الإنتخابية. إن التفكيكية تفعل بقوة كبيرة في سياسات الحركة النسوية المتنوعة، وفي مناصفة العنصرية. إنها يمكن أن تكون مفيدة في المجالات الواسعة من النشاطات السياسية الجماعية، خلافا للماركسية، أو الحركة النسوية. وهنا ينبغي للتفكيكية أن تفقد إسمها كما اقترحت في كلامي، في إحدى الندوات.
- تحدث جاك دريدا عن التفكيكية على أساس فكرة "المسؤولية تجاه أثر الآخر". بعض الناس يبحثون هنا (في بريطانيا) عن دور التفكيكية كنوع من النقد، لكن دريدا يؤكد بأن التفكيكية ليست شكلا من النقد. ماذا تفكرين في المحاولات المبذولة لفهم التفكيكية كشكل من النقد الأيديولوجي؟

- *إن المشكلة التي تكمن في فكرة التفكيكية كشكل من النقد الأيديولوجي هي أن التفكيكية في الحقيقة لا تهتم بكشف الخطأ. في بدايات كتابه "عن علم النحو" يبدو وكأن دريدا الشاب ذو "رأس ساخن" يكشف عن خطأ ليفي ستروس مبرزا أن أفراد قبيلة "نامبيكوراه" كانت لهم كتابتهم، لأن ثمة طرائق أخرى للكتابة تختلف عن طرائقنا. إن هذا يشبه قليلا ما قاله كارل ماركس بخصوص تفكيك أحجية النقود في الفصل الأول من كتابه "رأس المال": "إن النقود هي الأسلوب الملائم لقياس التكافؤات. نحن نتعامل مع التكافؤات عندما نستبدل أي شيء". ينصب اهتمام جاك دريدا حول كيف تبنى الحقيقة بدلا من الكشف عن الخطأ. إنه يمكن القول بأن النص موجه إلى قبيلة "نامبيكوراه"، بنفس الدرجة التي وجه إلى كلود ليفي ستروس.أن التفكيكية بمقدورها فقط أن تتحدث ضمن لغة الشيء الذي تنتقده.
- يقول جاك دريدا "أنها تسقط بشكل ما فريسة لنقدها عينه" وهذا ما يجعلها (أي التفكيكية مختلفة جدا عن النقد الأيديولوجي وحتى عن النقد الذاتي .
- * أن الحاصل هنا لشيء عظيم وذلك لأن التفكيكية يجب أن يفعل في الشيء المفكك ، ولكن لا يمكن أن يتم ذلك ببساطة كنتيجة لاتخاذ قرار بأن شيئا ما يجب أن يفعل في الشيء المفكك. أن التفكيكية تتحقق عندما تهزأ بنقدك الأيديولوجي.

مدخل إلى الفلسفة السياسية - ريمون آرون
الديمقراطية و الثورة

ريمون آرون(14 . 03 . 1905 / 17 . 10 . 1983) *ترجمه جيلالي نجاري*

ولد الفيلسوف وعالم الاجتماع والسياسة ريمون كلود فيرديناند آرون في يوم 14 مارس 1905 بباريس وفيها توفي يوم 17 أكتوبر 1983. حصل على شهادة التبريز في الفلسفة من مدرسة المعلمين العليا عام 1928 حيث احتل المرتبة الأولى في دورته، بينما رسب زميله في الدراسة سارتر في العام نفسه.

كان من مؤيدي النزعة السلمية الأمر الذي حدا به في نهاية الخمسينات من القرن الماضي إلى اتخاذ مواقف جريئة أرعب بها جلّ أصدقائه ألا وهي المطالبة علنا باستقلال الجزائر عن فرنسا الكولونيالية.

خلال مساره الحافل، قدم ريمون آرون العديد من المؤلفات التي أصبحت بمثابة مراجع أساسية للباحثين في شؤون السياسة والاجتماع، وليس أقلها شهرة كتابه الموسوم «مأساة الجزائر» الذي تناول فيه موضوع الجزائر المستعمرة التي رأى أن فرنسا ترتكب فيها تراجيديا حقيقية. من كتبه التي أحدثت صدى واسعا في أنحاء العالم «فلسفة التاريخ النقدية – بحث في النظرية الألمانية للتاريخ» و«مراحل الفكر السوسيولوجي» و«المتفرج الملتزم».

1 – محاولة لتعريف الديمقراطية

منذ قرن ونصف، كانت القيمة الأساسية للفكر السياسي في فرنسا هي المقابلة بين مفاهيم الثورة وتلك المتعلقة بالنظام القديم. لقد كان تفكير رينان في هذا الإطار وكذلك تاين وفلاسفة مرحلة شبابي من أمثال آلان وموراس وإن في سياق مغاير، إذ رزحوا تحت تأثير هوس المعارضة بين مبادئ النظام القديم بمعنى الوضع، السلطة، السلم التصاعدي، العائلة من جهة ومبادئ الثورة: المحاسبة الفردية والمساواة بين الرجال من جهة أخرى. وعلى الرغم من أنه منذ القرن الماضي اعتبر بعض الفلاسفة بأن تلك المعارضة لم تكن ظاهرة حاسمة، حيث أننا نجد أن طوكفيل قد عبّر – بصفة خاصة – عن المعضلة الرئيسة لحضارتنا على النحو التالي: إن الحركة نحو مساواة الرجال وإلغاء الفروقات في الوضع الشخصي لهي أمر ملّح جدا وأن المجتمعات الغربية تتجه

بشكل – لا فكاك منه – نحو المساواة على اعتبار أن السؤال الذي يُطْرَحُ هو معرفة ما إذا كان أي مجتمع مساواتي سيؤول إلى الليبرالية أم إلى الطغيان. لقد كان طوكفيل ذاته منبهرا بتجربة الولايات المتحدة الأمريكية إذ أنه تخيّل فيها رؤية صورة مستقبل المجتمعات الأوروبية من حيث أن المساواة الاجتماعية والمساواة بين الرجال والمساواة بين الأشخاص كانت قد تحققت فيها أكثر من المجتمعات الأوروبية، وإن كان هنالك احترام جلي للحريات فيها.

يمكننا القول بأن مشكلة طوكفيل كانت على النسق التالي: هل المساواة كمبدأ تتوافق مع بقاء الحريات السياسية ؟ وبصورة أخرى، يمكن التنويه إلى أن مشكلة ماركس كانت مشابهة لذات الطرح إلا أنها كانت معروضة بشكل مخالف.

في العمق، إن المشكلة المركزية التي أود التطرق إليها في هذه المداخلة هي تحديدا مشكلة طوكفيل: فما دامت الحركة باتجاه المساواة أمرا مؤكدا فهل باستطاعة مجتمعاتنا المحافظة على الحرية السياسية كخطأ تاريخي أم أن هنالك إمكانية لدمج مجتمع مساواتي بمجتمع ليبرالي ؟

سيكون الجزء الأول من هذه المداخلة مخصصا لتحليل ما يسمى في اللغة المألوفة أو الجارية بالديمقراطية الغربية. إذ يبدو لي أنه بمقدوري – بشكل أبسط – تعريف الديمقراطية سوسيولوجيا ومقاربتها كتنظيم للتنافس السلمي من أجل ممارسة السلطة.

إن هذا التعريف هو تعريف بالمؤسسات وليس بالأفكار: وهذا بالنسبة لي أمر ذو أهميةٍ حقا. وبالفعل، فإذا قلنا بأن الديمقراطية هي سيادة الشعب فإنه سيكون هناك على الأقل لفظتان غامضتان في هذا التعريف، وهما لفظة "السيادة" ومفردة "الشعب". ومن أجل ذلك خاض الحقوقيون أحاديث لا نهائية لمعرفة كنه السيادة بدقة. في المقابل، فإنه بإمكاننا الاتفاق على فكرة فحواها أنه في كل مجتمع يوجد هناك أناس يمارسون السلطة وأن كل واحد منهم باستطاعته فهم المنافسة السلمية من أجل إدراك مغزى من يمارس السلطة. إنها حقيقة مؤسساتية، في بعض المجتمعات، أن يكون من يمارسون السلطة غير معيّنين منذ الولادة ولكن إلى أجل في مسار الممارسة السلمية.

ومن جهة أخرى، فإننا حين نقول " سيادة الشعب" فإننا نجعل كل ذلك مفتوحا على جميع المناورات الأيديولوجية. و لأننا لا نعرف بشكل جيد ما هو الشعب: هل هو مجموع أفراد المجتمع أم أنه هؤلاء المواطنين بامتياز؟ وهل أقلية فاعلة يمكنها أن تشكّل شعبا أفضل من أغلبية سلبية ؟ وبما أن هناك أشكالا متعددة للمناورة بمفهوم الشعب فإنه من الأحسن ترك المفاهيم الغامضة والانطلاق من أمور أكثر بساطة.

إن الاعتراض الوحيد الذي يمكن إدراجه على هذا التعريف هو أن تنظيم المنافسة من أجل ممارسة السلطة يُتْرَكُ خارج حالة الديمقراطية المباشرة حيث يكون جميع المواطنين مشتركين في الحكم مباشرة. إنني أعتقد – على الأقل – من الموقع الذي أنا فيه بأن الديمقراطية المباشرة وعلى الرغم من أنها بعيدة عن روح الديمقراطية

كونها حالة قصوى، تمارس فيها المنافسة في تكتل كل المواطنين و تزاول من أجل القرارات ذاتها. وبطبيعة الحال فإنه لا مناص في ممارسة السلطة من تعيين بعض الأشخاص لأجل ممارسة وظائف القيادة.

وانطلاقا من هذه الصفة الأساسية – المنافسة السلمية لممارسة السلطة – يمكن في تصوري العثور بسهولة على الصفات الاعتيادية المخصصة للديمقراطية السياسية.

النقطة الأولى: كيف تُنظمُ النافسة ؟

تنضوي المنافسة على وجهين: وجه القرعةِ و وجه الانتخاب.

لا يجب عدُّ القرعة أمرا متعارضا مع المنافسة السلمية. ببساطة يكون في حال القرعة بُعْدُ الفعل الشخصي منحصرا إلى أقل الحدود و لقد لعبت القرعة دورا هاما في المدن الإغريقية، واليوم أيضا هناك بعض الوظائف المحدودة جدا في الديمقراطيات الحديثة، يتم شغلها عن طريق القرعة. أعني تحديدا هيئة المحلفين. لم نفكر بعد في تعيين الوزراء أو النواب عبر القرعة ولكن هذا الأمر لن يطرح اعتراضات أساسية إلا فيما يتعلق بالجانب العملي (طبعا الاعتراضات العملية كثيرة للغاية). وبناء على ما تقدم، فإن الانتخاب هو التنظيم الأكثر سهولة للمنافسة من أجل ممارسة السلطة. وبما أنه لا يوجد أشخاص معينون بالولادة لممارسة الحكم وبالنظر لعدم رغبتنا في منح الحكم بعد حرب أهلية فإن الوضع الطبيعي إذن يكمن في انتخاب المواطنين لمن سيمارسون السلطة.

وبطبيعة الحال، فإن الانتخابات لا يمكن أن تطال جميع الوظائف ولا جميع الديمقراطيات الحديثة. فجلُّ الديمقراطيات التي نعرف تضم توليفا بين الانتخاب والتعيين مع الميل إلى اعتبار الانتخاب آليةً أهم.

وانطلاقا من هذا المفهوم للانتخاب يمكننا المضي بسهولة إلى أفكار الحرية السياسية و الحرية الفردية. ومن أجل أن تكون المنافسة سلمية، فإنه من الضروري تجنيب المواطنين خطر السجن بسبب إعلانهم لبعض الأفكار. بتعبير آخر، فإنه لكي تكون المنافسة مطابقة لمبادئ المنافسة السلمية فإنه يجب أن يتوفر حدّ أدنى من الحريات السياسية. فإذا كانت هذه الحريات غير متوفرة، فإن المنافسة حينئذ لن تكون موجودة فعليا أو أنها تكون و لكنها محرّفة. بطبيعة الحال، يجب الاعتراف بأن مثالية المنافسة السلمية قلما تتحقق إذ أن في عامة الديمقراطيات، تكون اللعبة بشكل ما محرّفة و لكن بفروقات عالية الدرجات.

من جهة أخرى، وانطلاقا من مفهوم المنافسة من أجل انتخاب المواطنين، يمكننا المرور بسهولة إلى مسألة وجود الأحزاب لأنه من الطبيعي أن يتكتل من يريدون ممارسة السلطة للحصول على أصوات المواطنين أمثالهم. وعلى ضوء ما سلف يمكن القول بأنه تكاد تكون المنافسة غير ممكنة بين أفراد منعزلين. هذا استنتاج تافه ولكنه ذو تداعيات. وكمثال لذلك، فإن بعض الفلاسفة يعتقدون بأنهم عميقين جدا حين يقولون بأن الأحزاب أمر مشين وأنه يتوجب إلغاءها. إنه بالإمكان أن نعتبر الأحزاب أمرا مشينا، لأنها – حقا – ككل المؤسسات الإنسانية مليئة بالنقائص. ولكن على هؤلاء أن يشرحوا لنا كيف يمكن للمنافسة السلمية بغرض بلوغ سدّة الحكم أن تتحقق في

غياب الأحزاب. في هذه الحالة، يكون بمقدور الأفراد وبدون رابط بينهم ولا مع غيرهم أن يتقدموا لانتخاب مواطنيهم، وهذا ما سيخلق صعوبات جمّة في التنظيم، مما سيضطرنا لصدّ ظهور الأحزاب إلى استعمال أساليب أعتى من الأساليب الكلاسيكية للاستبداد.

إنني أعتقد إذن، لو ننطلق من فكرة أن روح الديمقراطية هي المنافسة السلمية في وظائف القيادة فإنه سنتوصل بشكل أكيد إلى الأحزاب كمؤسسة غير منفصلة عن روح احترام الأقليات أو المعارضة. ولكي تكون المنافسة حقا سلمية، يجب ألا تُعْتَبَرَ الانتخاباتُ و كأنها الأخيرة لأنه إذا أفضت أية انتخابات إلى إلغاء الانتخابات أو إلى انتهاء المنافسة بفوز جماعة ما، فإن كل واحد حينئذ ستكون لديه فكرة بأن قواعد اللعبة لن تكون محترمة، ومنها القواعد اللاسلمية تحديدا. بتعبير آخر، لكي تكون المنافسة قانونا لمثل هذا المجتمع السياسي فإنه لابد أن يتوفر لكافة الجماعات التي ليست في السلطة مبدأ الحظ في الوصول إليها. هذا يدفعنا للقول إنه من روح الديمقراطية السياسية على الأقل احترام بعض الأقليات.

إننا نلاحظ، في حال نظام كهذا، بأن تعريف الديمقراطية يمكن أن يتم بدون أية مرجعية لأفكار مثل السيادة الشعبية، الحرية، المساواة، ولكن بتحديد ها ببساطة كنظام مؤسساتي له منطقه الخاص والذي يترتب عنه بعض التداعيات.

والآن، فلنحاول بأكثر جدية تحديد وتحليل المنافسة من أجل الحكم. والحق أنه يمكن لأي كان أن يعارضني – والمعارضة هنا ستكون مقبولة تماما – في أنه لا يوجد أي نظام سياسي من غير المنافسة من أجل الحكم. فبالنسبة للحكم الملكي، فإنه يمكن قراءة سان سيمون (1) لنتأكد إلى أي حد، في القصر وحول الملك، كانت المنافسة حاضرة من أجل وظائف القيادة. ولكن داخل النظام الملكي بقيت السلطة العليا دوما خارج هذه القاعدة التنافسية. ما عدا ذلك، فإن الوظائف التي كانت دون الملك كانت خاضعة للمنافسة التي يشوبها عدم التنظيم لأنها كانت من أجل مزايا الأمير. إن المنافسة من أجل مزايا الأمير تلعب دورا كبيرا في كل المجتمعات السياسية ولكنها لا يمكن أن تماثل التنظيم السلمي للمنافسة لأن روح التنظيم السلمي للمنافسة يقتضي توفر قواعد. وفي الصراع من أجل مزايا الأمير ليس هنالك أية قاعدة، بل هناك هياج لكل أشكال التآمر واستخدام لكل الوسائل التي بواسطتها نحاول الوصول. أنه ليس ضروريا حتى استشارة الملك ولا حتى النظام القديم: بل إن الأمر يستدعي عموما التمثيل فقط لمن هو دون من يملك – عبر الانتخاب أو التعيين – وظيفة القيادة. إن الصراع من أجل مزايا رئيس المجلس هي شكل من المنافسة بين الأفراد من أجل الوظائف إلا أنها ليست منافسة منظمة، وبمعنى آخر فإنه من الصعب معرفة كيفية الحصول على مزايا رئيس المجلس بغية التعيين كمدير لمؤسسة عمومية أو للحصول على مكتب لبيع التبغ. إن التصادم من أجل الحصول على مزايا الأمير تلعب في إطار الديمقراطيات ومن الأعلى للأسفل: الناخبون يحاولون الحصول على مزايا النائب الذي بدوره يحاول الحصول على مزايا الوزير، وهكذا دواليك. بطبيعة الحال، لا تستطيع هذه المنافسة اللعب في كل الوظائف، ولهذا السبب فإن تحليلا أوليا يبدو ضروريا من أجل معرفة ما الذي يشكل رهان المنافسة في أية ديمقراطية.

إننا نلاحظ أولا، بأنه في بعض الديمقراطيات، يكون رئيس الدولة خارج المنافسة، ففي الديمقراطيات ذات الشكل الملكي، يكون شخص رئيس الدولة معينا وراثيا وبهذا يكون غير خاضع للمنافسة.

في بعض الديمقراطيات الأخرى، مثل الديمقراطية الفرنسية هناك خيار ولكنه من الدرجة الثانية، مما يؤدي إلى رفع – في حدود الإمكان – رئيس الدولة فوق المنافسة.

يمكننا القول إذن، وبشكل عام بأنه في كل الأنظمة التي تكون فيها وظائف القيادة خاضعة للمنافسة، يمكن إخراج بعض الوظائف، وبشكل أفضل العليا منها من المنافسة، حيث يبدو صاحب هذه الوظيفة بمرتبة المجسد لكل المجتمع وليس فقط كممثل لفئة من ذلك المجتمع.

في المرتبة الثانية، تأتي الوظائف الإدارية التي تشكل في الأغلب الأعم وظائف القيادة، لتكون خارج المنافسة الانتخابية. والحق أن ذلك ليس قاعدة عامة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا هنالك عدد معتبر من الوظائف الإدارية التي، كما في فرنسا، هي مفتوحة للمنافسة، إلا أن المنافسة من أجل مزايا الأمير أو في أحسن الأحوال من أجل الأحقية ــ وهذا ما سيكون مثاليا ــ يمكن أن تكون محل منافسة انتخابية. اليوم، في الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا انطلق حوار لمعرفة هل يمكن إخضاع بعض الوظائف الإدارية للانتخابات أو للتعيينات للحصول عليها. يمكننا القول بأن هناك في المجتمعات الحديثة ميل كبير لسحب عدد متواتر من الوظائف الإدارية بغرض إخضاعها للمنافسة الانتخابية: أولا لأن هذه الوظائف الإدارية تتطلب مهارة لا تضمنها الانتخابات بشكل مطلق، ثم لأننا لا نريد أن يكون أصحاب هذه الوظائف بشكل ما تابعين لمن انتخبوهم مثلما هو الشأن بالنسبة لأصحاب الوظائف السياسية.

أخيرا و في المقام الثالث – و بشكل ضمني إلا أنه ذي أهمية قصوى ــ ففي كل المجتمعات الديمقراطية، تكون القوى الاجتماعية خارج هذا الصراع. أقصد من هنا بأن أصحاب وسائل الإنتاج، هؤلاء الذين يملكون القوة الاجتماعية، لا يشغلون هذه الوضعية على إثر منافسة انتخابية، ولكن لأنهم إما بسبب نجاحهم في النظام الاقتصادي وإما بسبب وراثتهم لهذه الوضعية ذاتها.

النقطة الثانية: من هو المخول للمشاركة في المنافسة الانتخابية ؟

يمكننا القول – وهنا أعتقد بأنه من الصحة بما كان ــ بأن منطق المنافسة هو المساواة بين جميع أعضاء المجتمع. و على الرغم من ذلك، فإننا لو نظرنا تاريخيا إلى الديمقراطيات سنلاحظ بأن ما هو نادر فعلا هو توفير هذه المساواة. إنه ليس من الشائع في التاريخ رؤية الأقليات داخل مجتمع ما قبولها من تلقاء نفسها قواعد المنافسة هاته، ولكن رفضها من أجل غيرها. إنني أفكر في المدائن الإغريقية، حيث كان المخولون للمنافسة من المواطنين الذين يشكلون أقلية بالنسبة للغرباء وللعبيد. ما يزال اليوم وفي قرننا هذا الذي لا يفتقر لأمثلة المجتمعات المنظمة ديمقراطيا ولكن من دون مساواة سياسية. المثال الأكثر صدما هو جنوب إفريقيا حيث الأقلية

البيضاء ذات الأصول إما الهولندية وإما البريطانية والتي تمكنت من إدخال أو صيانة قواعد تنافسية مشابهة لتلك التي توجد في بريطانيا، إلا أنها لم تسمح بمنحها لملايين السود. وعندما أدخلت لأول مرة في فرنسا طرق المنافسة الانتخابية فإن معظم الثوريين اعتبروا الفرق بين المواطن الفاعل والمواطن السلبي أمرا طبيعيا، وكان هذا يعني التمحيص بين من سيدخلون المنافسة كمترشحين أو كمنتخِبين وبين من لا يكونون لا هذا ولا ذاك. في تلك الفترة كان معيار امتلاك بعض الثروة هو الذي يفرق بين هؤلاء و أولائك.

وبناء على ما تقدم، فإنه يمكن تحديد الاستفادة من المنافسة لصالح فئة من المجتمع. إلا أن ذلك وعمليا يواجه عدة عقبات متنامية تمنع القيام به إذ أن منطق هذا النظام يسمح لأي كان أن يتقدم للتنافس. وبإمكاننا أن نضيف أيضا – إذا أردنا – بأن هذه المؤسسة التنافسية الانتخابية قد تم إدراجها باسم بعض الأفكار ومن بينها تلك القائلة بالمساواة الإنسانية وكذا فكرة أن البشر بمقدورهم أن يختاروا فيما بينهم حكومتهم. والحق أننا شهدنا في المجتمعات الغربية على الأقل امتدادا متواصلا لهذا المسار الذي أعطى تدريجيا لكل أعضاء المجتمع الحق في المشاركة في التنافس، مرة كمنتَخِبين وأخرى كمنتَخَبين. وبالفعل، فقد شكّل امتداد الانتخابات إلى عنصر المرأة مرحلة حاسمة في هذا المسار.

النقطة الثالثة: ما هو مضمون تنظيم المنافسة ؟

إن تنظيم المنافسة يستدعي دستورا. وإن إقامة دستور يقتضي تعيين القواعد التي من خلالها ينتخب المواطنون المنتخَبين و التي من خلالها أيضا يَعَيِّنُ أو ينتقي المنتخَبون من سيشغلون وظائف القيادة. وعليه، يمكن للأغلبية أن تكون بسيطة أو مطلقة أو للرُبْعَيْنِ وفقا للموضوع، وفي هذا المجال يمكن للمختصين في القانون الدستوري أن يحللوا الطرائق المتنوعة بشكل لا متناهي، بالتفاصيل التي حسبها يمكن تنظيم طرق المنافسة.

أود هنا وببساطة أن أورد ملاحظة مستخلصة بشكل عام، وهي أنه: جميع قواعد تنظيم المنافسة هي اعتباطية و إنني أعني من خلال هذا بأن حقيقة تبرير هذه القواعد هي فاعليتها. إنه لا يوجد أي سبب وجيه لأن يكون لأغلبية بسيطة أو أخرى ذات الرُبْعَيْنِ تبرير لاتخاذ هذا القرار أو ذاك، لكن وإذا كانت أية قاعدة دستورية لا تستطيع في ذاتها أن تبرر إلا من خلال المناسبة، فإنه من الضروري أن يؤمن المواطنون بجدوى الدستور، فور وجوده. إنه لا يوجد دستور أشدُّ تعقيدا و أكبر اعتباطية من الدستور الأمريكي، وليس هناك أيضا من هو أشد احتراما منه. لذلك و من أجل أن يسير النظام سيرا جيدا لابدّ من إيمان الناس بدستورهم. وفي تقديرنا فإن القيمة الأساسية لأي دستور إنما تكمن في مقدار قبولها بديهيا من طرف هؤلاء الذين يعرفونها أو يعايشونها.

وبعبارات مغايرة، يمكن القول بأن أحقية الدستور الأساسية و التي هي حصيلة متناقضة وعادية، تكمن في وجودها منذ فترة طويلة. و بالفعل، فكلما وُجِدَ الدستور منذ أمد طويل إلا و تعودنا عليه وشعرنا طبيعيا بأن قواعده الاعتباطية مماثلة لأية قواعد أخرى. من هذا – وبشكل تقابلي – نستخلص لماذا كانت جميع الدساتير الفرنسية عموما سيئة: لأنها لم تملك كلها الوقت الكافي لها. وإن أخطر عيب أحاط بالدستوريين الفرنسيين هو

اعتقادهم بأن فرقا طبيعيا يكمن بين نظام و آخر (و ليس بأن هنالك أنظمة جيدة و أخرى أقل جودة)، في أن الأحقية الأساسية لأي دستور هو أن يكون مقبولا وأنه ليس هناك أي سبب وجيه لقبول أي دستور بشكل مباشر وآني واعتباره منطقيا. إنه إحدى المؤسسات الاجتماعية التي لا يمكنها أن تكون منطقية: ولا يمكن إلا تكييفه لظروفِ وأوضاعِ واعتباراتِ المُنَاسَبَةِ.

سأمرُّ الآن لتناول الموضوع التالي: ما هي أشكال الديمقراطية مثلما تمَّ تعريفها؟

يمكننا اعتبار أشكال الديمقراطية حسب الأصل الاجتماعي لأصحاب الوظائف السياسية الذين وظفهم نظام المنافسة. والآن و بغرض قول الأشياء بصورة بسيطة نأخذ فرنسا مثالا، فإن أصحاب السلطة السياسية الذين حصلوا عليها من خلال اللعبة الانتخابية بإمكانهم أن يكونوا : إما من الأرستقراطيين أو من الوجهاء، وبشكل عام هم أعضاء في الطبقة الاجتماعية القيادية، أو من رجال السياسة المحترفين التابعين لطبقة الامتياز ولكن من مستوى أدنى قليلا. فلنقل من البرجوازيين الصغار أمثال المحامين و الأساتذة. وأخيرا و في الخانة الثالثة، يمكن أن يكونوا، تبعا للعبة الانتخابية، من هؤلاء الذين أسميهم قياديي الجماهير أمثال: أمناء النقابات وموظفو الأحزاب السياسية.

وبشكل عام، فإن التوظيف الاجتماعي لقادة الديمقراطية يكون مرتبطا ببنية الأحزاب وبأسلوب كيفية إجراء اللعبة الانتخابية.

وعندما يكون المنتخبون من الأرستقراطيين فإن الأحزاب السياسية تكون عموما مشكلة من مجموعات برلمانية قليلة التنظيم و يكون كذلك انتشار هياكلها على المستوى الوطني ضعيفا هو الآخر.

وعندما يكون القادة السياسيون رجال سياسة محترفين فإن الأحزاب تكون في الغالب منظمة على غرار أحزاب الملاك أو صغار الملاك، مثلما هو حال الحزب الراديكالي الاشتراكي.

في الحالة الثالثة الخاصة بقياديي الجماهير، فإننا نتوصل إلى حزب جماهيري منظم على شاكلة حزب اشتراكي أو حزب شيوعي أو حزب فاشي.

إننا نلاحظ حالا بأنه وفقا للأصول الاجتماعية للقادة السياسيين وحسب هيكلة الأحزاب السياسية، فإن العلاقة تكون مختلفة بين أصحاب السلط السياسية ومجموع المواطنين.

ولنأخذ الحالة الأولى، حالة الأرستقراطيين أو كبار البرجوازيين و لنعتبر فيها كمثال ليس إلا مثالين للمقارنة: مثال الديمقراطية الإنجليزية في القرن الماضي و مثال الجهات الفرنسية بالغرب في نهاية القرن xix. في هذين المثالين تتم الانتخابات من خلال تقديم شخصية وليس من خلال حزب وتأتي سلطة الشخص أو المترشح من خلال وضعه الاجتماعي وعبر العلاقات التي تتكون بينه وبين المواطنين البسطاء في إطار محلي. إن انتخاب الأرستقراطي الفرنسي في الجهة الغربية منها أو انتخاب الأرستقراطي الإنجليزي في مقاطعة فلاحية لإنجلترا

اليوم يحدث ليس بسبب التنظيم الحزبي بل بسبب شخصياتهم و علاقاتهم مع الناس والمواطنين البسطاء. إننا نجد أنفسنا في هذه الحالة بمواجهة تأطير اجتماعي موجود سلفا حيث الشخصية الاجتماعية القوية هي التي تتحصل على أصوات المواطنين.

وفي المقابل، وإذا أخذنا المثال الآخر أي مثال قياديي الجماهير أو الحزب المنظم داخل المدن فإننا سنرى بأن آلافا أو مئات الآلاف من المواطنين لا يحترمون القوة الاجتماعية وأنهم ربما يصوّتون ضد الأقوى اجتماعيا. و لنأخذ حالة مقاطعة صناعية في الشرق الفرنسي: فالعامل الذي يصوت للمترشح الاشتراكي أو الشيوعي إنما يصوّت ضد الأقوى اجتماعيا. أما في إنجلترا وفي المقاطعات المحافظة في الريف، فالمواطن العادي ما يزال يصوّت لذلك المترشح الأقوى اجتماعيا. إنه ليس دوما وبالضرورة ذلك المالك المحلي الكبير ولكنه شخص ينتمي لنفس الوضع الاجتماعي الذي يمثل تلك الجماعة.

وهكذا نتوصل إلى فكرة هامة و حاسمة لفهم ما هي الديمقراطية السياسية: على اعتبار أن كل نظام انتخابي تنافسي يكون مندمجا في بنية اجتماعية و أنه بخصوصية ذلك تلك النظام التنافسي الانتخابي لا يغير آليا تلك البنية الاجتماعية. يمكننا الحصول على ديمقراطية ذات نظام سُلّمي أو محافظ حيث يحصل الأقوياء اجتماعيا على أصوات مواطنيهم. يمكن إذن الحصول على الديمقراطية بالمعنى الذي نستعمل هذه اللفظة دون أن يكون هناك أدنى مساواة اجتماعية. إن المنافسة الانتخابية لا تستدعي شيئا آخر سوى قبول كافة المحكومين لمجموع القواعد المحدّدة لاختيار المنتخبين و أصحاب الوظائف السياسية.

غير أنه – وهنا تبدأ الأمور إلى الجدية – إذا أخذنا مثلا المجتمعات الأوروبية أو الغربية فإننا سنلاحظ في الحقيقة ؟أن الديمقراطية السياسية خلال القرنين الماضيين قد شجّعت تطور أحد النوعين في اتجاه الآخر. ونعني هنا إنجلترا التي نظمت المنافسة الانتخابية خلال عقود فشجّعت استقرار القوة السياسية و الاجتماعية لدى المجموعات المهيمنة اجتماعيا ولكن ذلك أدى مرحليا وبنفس المنطق إلى مجيء رجال إلى السلطة خرجوا من مجموعات أدنى، وهذا ما أوصل لاحقا ممثلين من المجموعات الشعبية ليكونوا منتخبين معارضين للأقوياء اجتماعيا.

أما حال فرنسا، فالوضع فيها أكثر لفتا للانتباه. تحت الجمهورية الثالثة، تم ملاحظة تطور متواتر من جمهورية الدوق إلى جمهورية الجماهير مرورا بجمهورية المحامين والأساتذة. واليوم ونحن نشهد ظاهرة استقرار ديمقراطية المحامين و الأساتذة فإن الفضل فيها يعود إلى وجود الحزب الشيوعي. ولو كان هذا الحزب الشيوعي مجرد حزب اجتماعي متطور و بلا علاقات مع الخارج، لانهارت الجمهورية المحافظة للسيد م. بيناي في لحظات. إن الجمهورية المحافظة الحالية تمثل ظاهرة اعتباطية حدّدتها جملة من العوامل الخارجة عن المجتمع الفرنسي. إن التطور الطبيعي للديمقراطية الفرنسية حصل من خلال عبورها إلى ديمقراطية الجماهير و الأحزاب المنظمة أو ضمن أحزاب اليسار التي أحرزت الأغلبية باستخدام أصوات الجماهير الشعبية من دون تأطيرات من

القوى الاجتماعية ولكن بالاستفادة من الانتفاضات المفاجئة ضد القوة الاجتماعية. إن حكم فرنسا حكم محافظ لأنها إما متقدمة جدا وإما لأنها يسارية للغاية: ولأن هناك حزب شيوعي قوي مما أدى إلى وجود حكومة محافظة في فرنسا. ولهذا السبب أجدني دائما طربا حينما يقول لي بعضهم بأن الحزب الشيوعي يمنع سير الجمهورية الرابعة و في الحقيقة هو الذي يساعدها على العمل. ولو فكرنا مليا لبدا لنا ذلك واضحا: فالحزب الشيوعي وهو يُخْرِجُ من اللعبة السياسية 25 بالمائة من الناخبين الذين كان يمكنهم التصويت ببساطة في صف الناخبين اليساريين و دفع بهم قليلا إلى اليسار أكثر، قد ساهم بشكل معتبرفي إبقاء الصبغة المحافظة لفرنسا [1].

ويمكننا هنا أيضا الإشارة إلى أشكال أخرى للديمقراطية حسب امتداد وظائف الدولة، أي وفق أهمية الوظائف السياسية الممنوحة من طرف المنافسة الانتخابية. ففي المجتمع الأمريكي للقرن الماضي، كانت الوظائف السياسية خاضعة لنتائج المنافسة الانتخابية، إلا أن الدولة باعتبارها نظاما ليبراليا بوظائف محدودة لم تكن جذّابة لكثير من الأشخاص ذوي الأهمية الاجتماعية، أي أصحاب وسائل الإنتاج. لقد كان الرأسماليون في الولايات المتحدة الأمريكية قليلي الاهتمام باللعبة الانتخابية لأنهم اعتبروا دور الدولة في الحياة الاقتصادية غير ذي بال وأن بعض الوظائف السياسية بإمكان شغلها من طرف رجال من الصف الثاني، من المحامين أو صغار البرجوازيين ممن كانت لهم ميول ظاهرية أكثر مما هي حقيقية. و في المقابل، كان تطور ديمقراطية الدوقات باتجاه ديمقراطية الجماهير مرفوقا بشكل عام بانفتاح متواتر على وظائف الدولة: إن ديمقراطية الجماهير هي ديمقراطية حيث الدولة تؤدي بشكل متنام وظائف هامة اقتصاديا و اجتماعيا.

وهناك طريقة أخرى أكثر طبيعية لتبيان أشكال أخرى للديمقراطية باعتبار عدد الأحزاب وتنظيم الدستور. وهنا نتحول من الاعتبارات الاجتماعية إلى الاعتبارات السياسية الخالصة.

إننا في الوقت الحالي نتبيّن من وجهة نظر الدساتير نوعين أساسيين من الأنظمة: النظام الرئاسي والنظام البرلماني. ففي الحال الأول هناك انتخاب نظري بدرجتين و مباشر في الولايات المتحدة الأمريكية لرئيس الدولة الذي تنتخبه الهيئة الناخبة. في الحال الأخرى هناك انتخاب مباشر للنواب الذين يختارون بدورهم صاحب الوظيفة التنفيذية الأساسية، و الذي يمكن تسميته رئيس المجلس، المستشار أو الوزير الأول [2].

وإنه من الأهمية بمكان التفرقة بين النظام الرئاسي والنظام البرلماني والتفرقة بين نظام الحزبين و نظام الأحزاب المتعددة.

وإذا أخذنا تنظيم الأحزاب من خلال المنافسة الانتخابية فإن وجود حزبين أو أكثر لا يشكل في الحقيقة سوى فرقا ثانويا: إنهما إجراءان مختلفان من صيغة المنافسة الانتخابية – إذ أنه في الأخير – لا يمكن القول لا واقعيا ولا أيديولوجيا بأنه لا يجب أن يكون هناك سوى حزبين اثنين فقط.

ما هي امتيازات اللعبة بحزبين ؟ إنه بالطبع من السهل أن يكون في الحكومة حزب واحد وهذا يؤدي إلى استقرار الحكومة و يمنحها قدرة حقيقية للعمل حيث أنه – نظريا على الأقل – يكون الحزب أكثر انسجاما للتفكير

و طرح سياسية معينة. و لكن ربما هناك أمر آخر في البنية الحزبية الثنائية، مثلما نراها تعمل في إنجلترا. إن نظام الحزبين في إنجلترا يعني – في أية لحظة – وجود حزب في الحكومة و آخر في المعارضة وأن هذا الحزب المعارض يؤدي وظيفة رسمية ما دام قائد المعارضة يتلقى أجرا و كأنه يؤدي وظيفة قيادية. والحال كذلك فإننا لا نحصل على (س) حزب بمفاهيم خاصة بكل واحد منها و لكننا نتحصل على حكومة وحكومة مضادة، وهذا ما يجعلنا نشعر دائما في إنجلترا بأن الذين في السلطة ليسوا فئة معينة من المجتمع بل كل المجتمع و بتوجه محدد.

وبعبارة أخرى، فإن كل حكومة في نظام تعدد الأحزاب تكون نتيجةً لتحالف بين مختلف المجموعات، الأمر الذي يوّلد الشعور بأن هناك فئة تدير شؤون البلاد لنفسها و ليس من أجل الجميع. في مقابل هذا، يشعر أي حزب في الحكومة الإنجليزية بأنه ليس سوى ممثل عابر للقوة الملكية الغابرة. إنها تشعر بتمثيل القوة المجتمعية، والمجتمع كله يملك نوعا من الإرادة، حين غياب تلك الحكومة، بأن يكون في السلطة جميع شرائح المجتمع باسم إرادة أخرى. أما في النظام القاري للتعدد الحزبي، فالعكس هو الحاصل، حيث لا يكون هناك عدم الاستقرار فقط و التناقضات داخل الأغلبية و إنما يكون كذلك عدم اعتراف مجمل المجتمع بحضورهم داخل الحكومة بيمنا يكون داخل النظام البريطاني المثالي – مثلما كان يسير في الماضي – قبول المجتمع بأسره لحكومته حتى و إن كانت تنتقد ذات المجتمع على قضية من القضايا. بالإضافة إلى هذا، فإن نظام الحزبين لم يكن يوفر من جانب المعارضة للحكومة الاعتراف بنجاح الحكومة في إدارة السلطة فحسب بل كانت تقدم الموافقة

[2] – يجب التذكير بأنه تحت الجمهورية الرابعة كان رئيس الجمهورية المنتخب من الغرفتين كليهما في مؤتمر يعيّنُ رئيس المجلس الذي كان لابد عليه من حيازة ثقة المجلس الوطني.

الآلية للحكومة في السلطة على بعض النقاط ذات المنفعة الوطنية. وهكذا نرى في النظام البريطاني المثالي، بأن السياسة الخارجية مسحوبة وغير معنية بالمنافسة الانتخابية ولا تخضع بشكل كبير للمنافسة والدعايات.

ومن هنا، يمكننا المرور إلى وجهة النظر الأخيرة حيث باستطاعتنا أن نميّز بين مختلف أشكال الديمقراطية و منها: القبول أو الرفض لقواعد المنافسة من طرف جميع المواطنين أو جميع الأحزاب.

وهنا، بطبيعة الحال، يكمن أمر أساسي: حيث أنه في الدول التي تقبل فيه كل الجماعات بقواعد اللعبة تكون للمعركة الانتخابية رهان واحد ووحيد وهو كيفية ممارسة السلطة في إطار دستوري متفق عليه من الجميع. أما في حال عدم قبول فئة من المواطنين أو بعض الأحزاب بقواعد لعبة المنافسة، فإن المعركة الانتخابية سيكون لها رهان يتعلق بالدستور نفسه. والحق أن هناك فرقا في طبيعة الأمور بين التباري من أجل معرفة ما سنفعله عند قبول قواعد اللعبة والتباري من أجل معرفة أية قواعد سترسى أو هل سيكون هناك قواعد للتنافس أصلا ؟

يمكننا القول إذن أن هناك ديمقراطيات شتى تتراءى بحسب النظام السياسي للمنافسة من حيث قبوله أو رفضه من طرف الأحزاب.

ونشير في ختام هذه النقطة إلى أننا أمام فرق أولي يخص البنية الاجتماعية لخلفية النظام الانتخابي وكذلك حسب تطور هذه البنية الاجتماعية: تطور يواكب تغيرات التوظيف الاجتماعي للقادة السياسيين و كذا تغير بنى الأحزاب السياسية وتغير انفتاح وظائف الدولة.

من جهة أخرى ، وحتى وإن تجاوزنا الأسس الاجتماعية للديمقراطية السياسية، فإننا سنقف على فروقات تتبع من التنظيم الدستوري المركب مع نظام الأحزاب. وهنا يُطرحُ سؤال هام للغاية ذي طبيعة سوسيولوجية وهو: إلى أي مدى تكون بنية الأحزاب و أسلوب التصويت نتيجة للبنية الاجتماعية أو على النقيض نتيجة عوامل مستقلة؟ إلى أي مدى يمكننا من خلال إقامة طريقة ما للتصويت أو إقامة نظام ما للأحزاب تحديد السير الجيد أو السيء للنظام ؟ ويمكننا القول أيضا: ما هي العوامل السياسية النظيفة المؤثرة على سير هذه النظم ؟ وأخيرا، وهنا نقطة الوصول لأننا نقترب فعليا من إشكالات الحاضر: إلى أي مدى يمكن الجزم بقبول أو رفض كافة الأحزاب ؟

وهنا أخلص إلى آخر مسألة في هذا الدرس الذي تناولنا من خلاله ما يمكن تسميته و بشكل أكثر دقة ما كان مونتسكيو يسميه بـــ "مبدأ الديمقراطية" : *هل مبدأ الديمقراطية هو الفضيلة؟* لسوف نلاحظ معا بأننا من خلال تحليل روح النظام السياسي فأننا سنتوصل إلى خلاصات مختلفة بعض الشيء.

إن النظام التنافسي قد تطور عبر هيئات تمثيلية. ففي إنجلترا على الأقل، تطور البرلمان من خلال الحدّ من السلطة الملكية و عبر إقرار تمثيل الدول و جماعات الامتيازات التي تم انتخابها في بداية الأمر وفق نظام انتخابي محدود استطاع بمرور الوقت وبعد معركة طويلة مع الملكية أن يصبح الممثل الحقيقي للسلطة السياسية. إن هذا التطور الذي حدث بإنجلترا حصل بفضل التمثيل الذي تم قبوله في المؤسسات البرلمانية بفضل القوى الاجتماعية الجديدة. بتعبير آخر، يمكن القول بأن هذا التطور إنما حدث بداية بالبرلمانات ذات الوظائف المحدودة إلى أن بلغ غرفة البلديات الحالية لأنه وعبر مختلف المراحل كان قبول القوى الاجتماعية الجديدة من قبل ممثلي جماعات الامتياز مبنيا على أساس مخطط المساواة.

وهكذا تدريجيا تحول البرلمان إلى التعبير لا عن جماعات الامتياز و إنما إلى التعبير عن الأمة برمتها. وإن ما سرّع هذا التطور – وفي مختلف الحقب الزمنية – هو قبول جماعات الامتياز القديمة لجماعات الامتياز الجديدة دون حدوث أي صراعات وأي تجاوزات عنيفة.

في القرن التاسع عشر قَبِلَتْ الأرستقراطية تدريجيا وعلى نفس قدم المساواة بممثلي البرجوازية والأعمال وبممثلي المال والصناعة. و خلال هذا القرن، استمر نجاح نفس العملية في إنجلترا: لقد قبلت طبقة أصحاب الامتيازات وهي نفسها طبقة الأرستقراطيين والبرجوازية في نظامها وعلى نفس قدم المساواة ليس بالبروليتاريا فحسب – وهذا لا يعني على الإطلاق شيئا – وإنما بممثلي الطبقات الشعبية ليكونوا أمناء نقابات أو منتخبين ضمن حزب العمال.

لقد حدث التطور في فرنسا إلى نظام مماثل عبر سلسلة من الثورات و هذا بسبب تردد جماعات أصحاب الامتيازات – في كل المراحل – لإبرام تسوية مع ممثلي القوى الاجتماعية الجديدة. ومن المؤكد دائما أنه في حالة ما إذا تصدى أصحاب الامتيازات القديمة لأي جماعة تريد في المشاركة في السلطة فإن ذلك يفتح إمكانية حدوث الثورة.

إن روح النظام الديمقراطي و بالنظر لكيفية تطوره في الماضي فهو لم يكن سوى نتيجة لقبول تسويات بين جماعات ذوي الامتيازات. واليوم لا يمكن لأي نظام ديمقراطي سياسي أن يستمر إلا إذا أقرّ الأفراد والجماعات والأحزاب والطبقات الاجتماعية مبدأ التسوية. و هنا أعود إلى عبارة كنت قد استعملتها سابقا وهي " المنافسة السلمية". إنه من اللاجدوى البحث في الغيوم عن الفضائل السامية للديمقراطية و لكن الجدوى كلها تكمن في الواقع: فروح الديمقراطية هو إقرار وقبول المنافسة السلمية. وأنا في هذا لا أقول أن الناس على خطأ أو صواب في مسألة هذا القبول. أنا أقول فقط بأن لا ديمقراطية إلا حين يقرّ الأفراد والجماعات والطبقات السياسية بقواعد المنافسة والمنافسة السلمية تحديدا. فحين تبتغي أية جماعة الوصول إلى السلطة عن طريق العنف وتريد تحقيق تغييرات لا تكون مقبولة سلميا من طرف جماعات أخرى فإننا حينئذ نكون قد خرجنا من الديمقراطية و دخلنا في أتون الحرب الأهلية أو الثورة.

مرة أخرى، أنا لا أقول بأنه من الضروري دائما البقاء في إ'طار المنافسة السلمية. إنه من الأكيد و في حالات معينة تكون فيها فكرة الثورة أقل الحلول سوءا. ببساطة، وإذا رغبنا في التفكير في الأمور بوضوح، فإنه يجب أن نفهم بأن الديمقراطية تكمن أصلا في المنافسة السلمية لممارسة السلطة، والذي لا يريد السلم ولا يرغب في المنافسة يخرج عن الديمقراطية و يلج في أمر آخر تماما.

وبناء على ما تقدم، أخلص إلى نتيجة بسيطة جدا وهي أن الفضيلة الأساسية للديمقراطية أو مبدأ الديمقراطية بالمعنى الذي أراده مونتيسكيو ليس الفضيلة نفسها و إنما روح التسوية.

يمكننا القول على غرار بعض الألمان، بأن روح التسوية هو أمر مقرف بعض الشيء. فهم حين يتكلمون عن التسوية يقولون "كوهندل – kuhhandel" و هذا ليس بالأمر الجيد. وفي المقابل يمكننا القول على منوال الإنجليز " تسوية – compromise" باستعمال نبرة فيها شيء من المدح. التسوية والروح الرياضية هما روح النظام التنافسي السلمي.

وبطبيعة الحال، فإنني حين أقول "التسوية" لا يجب إضافة إي شيء آخر. فلكي يتمكن نظام التسوية هذا من العمل فإنه لا يجب فقط أن يقرّ الرجال بحل جميع المعضلات عبر وسائل سلمية فحسب بل يجب عليهم أيضا أن يحترموا قواعد المنافسة التي ساهموا هم أنفسهم في وضعها. و هنا يمكننا القول بأن مبدأ الديمقراطية هو كذلك احترام القواعد، أي احترام القوانين باعتبارها وجها من الفضيلة، وكون هذه الفضيلة هي مبدأ الديمقراطية. إلا أنها

فضيلة ذات سمة خاصة للغاية إذ أنها تقتضي القول ببساطة: ما دامت هذه القواعد قد أرْسِيَتْ فالأفضل للجميع احترامها لأن قواعد أخرى ربما لا يمكن أن تكون أحسن منها.

ليس هناك أي تشابه بين إقرار التسوية و احترام القواعد من جهة و الفضيلة بالمعنى الأخلاقي من جهة أخرى، غير أن هذا الوضع لا تنافر فيه بل فيه إثراء للديمقراطية. وناهيك عن هذا وذاك فإنه ليس هناك أي تعارض بين الديمقراطية و الطموحات الشخصية. بالعكس، فنظام المنافسة الانتخابية لا يمكن أن يعمل بشكل صحيح إذا لم تكن هناك إرادة من عديد الأشخاص للوصول ولأن يكونوا منتخبين وحكّاما.

وككل الأنظمة السياسية المعروفة، فإن الديمقراطية هي مسألة يمكن تعريفها و تحليلها بدقة وهي ممكنة المعاينة دون اللجوء إلى الكلمات الغامضة و المتعالية و التي تقبل جميع التأويلات و الانتقادات. إن الديمقراطية حقيقة بشرية، وهي من هذه العتبة غير كاملة. إنها أيضا حقيقة لا منطقية. و تبقى الطريقة الوحيدة – أو اليوتوبيا الوحيدة – للمنطق في هذا المجال هي انتقاء من هم الأفضل على الإطلاق و القول لهم: "احكموا في سبيل مصالح الجميع". و لكن للأسف لم تهتد أبدا لكيفية تحديد من هم الأفضل ولم ندرك ما هي مصالح الجميع.

إن جميع الأنظمة السياسية ليست إلا حلولا منقوصة وإذا أردنا زدنا القول بأنها حلول غير منطقية لمعضلة ليس لها من حل منطقي وهذا حتى وإن عمل نظام المنافسة الانتخابية وتم إقرار الجميع به. حينما تحضر الفضيلة التي تحمل معنى احترام القواعد وكذا مغزى التسوية فعندئذ يمكن الحصول على نظام جيّد، أجود ما يمكن لنظام أن يكون شريطة أن ينظر إليه بمسافة معينة. ومهما يكن فإن هناك نظاما بإمكانه أن يتوفر على امتياز هائل: وهو وجوده لا لضمان السلط الفاعلة و لكن من أجل حماية الأشخاص من انحرافات السلطة. إن النظام الديمقراطي الذي يعمل حقيقة يكفل للأفراد ليس فقط الضمانات الأكيدة ضد جميع انحرافات السلطة – لأنه لا مناص من تلك الانحرافات – وإنما لأنه يكفل ضمانات أكثر ضد تلك الانحرافات أفضل من أي نظام آخر.

ويبقى علينا معرفة ما إذا كان هذا النظام الذي يكفل العديد من الضمانات للأفراد مقدار قدرته على التفعيل الآلي لمختلف السلطات لاستخدام قوتها من أجل انتصار الجماعة. إنها مسألة مختلفة تماما. وانطلاقا من اللحظة التي استطعنا أن نستجلب الديمقراطية إلى الأرض، فإنه يصبح متاحا لنا أن نبيّن – كما هو الشأن بالنسبة لكل الأنظمة، المنافع و المساوئ.

مــبــدآ الــعـــدالـــة

بقلم: جون رولز ترجمة: محمد هنـــاد

لنعد إلى مبدأي العدالة كما تناولتهما في كتابي "نظرية في العدالة" لأعيد صياغتهما بالشكل الآتي :

1. كل شخص له الحق ذاته، غير القابل للسقوط، في منظومة لائقة من الحريات الأساسية تكون هي نفسها للجميع على قدم المساواة.

2. حالات التفاوت الاجتماعي والاقتصادي لا تكون مقبولة إلا إذا توافر فيها شرطان [جوهريان] : (1) لابد أن تكون متصلة بمناصب ومكانات اجتماعية مفتوحة [فعلا] للجميع في ظروف من تكافؤ الفرص التام ؛ (2) لابد أن تحقق أكبر منفعة لمن هم أقل حظا في المجتمع.

وكما سأشرح بعد حين، المبدأ الأول سابق على المبدأ الثاني، كما أن تكافؤ الفرص المنصف في المبدأ الثاني سابق على مبدأ الفرق [في أوضاع الناس]. تفيد هذه الأسبقية بأنه لا يمكننا أن ننتقل إلى تطبيق أي مبدأ إلا بعد أن نكون قد طبقنا الشروط التي يقتضيها المبدأ السابق عليه كاملة. إننا نبحث، هنا، عن مبدأ توزيعي (بالمعنى الضيق للكلمة) مناسب يتم في إطار مؤسسات تضمن الحريات المتساوية الأساسية (بما في ذلك الحريات السياسية) بالإضافة إلى مساواة منصفة في تكافؤ الفرص. أما إلى أي مدى يبقى مثل هذا المبدأ صحيحا خارج هذه المؤسسات، فتلك مسألة أخرى لا نريد تناولها.

وإذا كانت مراجعة المبدأ الثاني [في الكتاب السابق] لا تتعدى كونها ذات طابع أسلوبي، فأن مراجعة المبدأ الأول هي ذات أهمية كبيرة. لكن قبل الخوض فيها، علينا أن نشرح المقصود من تكافؤ الفرص المنصف. إن هذه مسألة صعبة وليست واضحة تماما ولعل دورها يبرز أكثر من السبب الذي جعلنا نأخذ بها، أي تصحيح نقائص تكافؤ الفرص الصوري القاضي بأن تكون المسارات المهنية مفتوحة للمواهب في نظام الحرية الطبيعية. لأجل ذلك، يقال إن تكافؤ الفرص المنصف لا يكتفي بأن تكون المناصب العمومية والمكانات الاجتماعية فيه مفتوحة بالمعنى الصوري فقط بل ينبغي أن يكون للجميع حظ كاف لبلوغها فعلا. ولتوضيح هذه الفكرة، نقول : لنفترض

أن هناك توزيعا للمواهب الفطرية وأن من لهم نفس المواهب والقدرات ونفس العزيمة في استغلال ما حبتهم الطبيعة به ينبغي أن تكون لهم نفس الحظوظ في النجاح بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية الأصلية، أي الطبقة التي نشأوا في حضنها وترعرعوا إلى غاية بلوغهم سن الرشد. المجتمع بكل فئاته يجب أن يتضمن نفس الحظوظ عموما في الثقافة والمنجزات لمن لهم نفس العزيمة ونفس المواهب.

تكافؤ الفرص المنصف المقصود به هنا هو المساواة اللبرالية. وكي تحقق هذه المساواة هدفها، لابد من فرض بعض الشروط على بنية المجتمع القاعدية تتجاوز تلك الشروط التي يفرضها نظام الحرية الطبيعية. نظام السوق الحرة يجب أن يندرج ضمن سياق مؤسسات سياسية وقانونية تصحِّح الاتجاه العام للقوى الاقتصادية تفاديا لوقوع حالات تمركز مفرط للملكية والثراء، لاسيما ما قد يؤدي منها إلى السيطرة السياسية. كما يجب على المجتمع، أيضا، أن يضمن، من بين ما يضمن، فرصا متساوية في مجال التربية والتعليم للجميع مهما كان دخل العائلة.

لننظر الآن في الأسباب المؤدية إلى مراجعة هذا المبدأ الأول[13]. يتمثل أحد هذه الأسباب في كون الحريات المتساوية الأصلية في هذا المبدأ محدَّدة بقائمة تبدأ بحرية الفكر والرأي، ثم الحريات السياسية (مثلا، الحق في الانتخاب والمشاركة في الحياة السياسية) فالحق في التجمع، بالإضافة إلى الحقوق والحريات المرتبطة بحرية الشخص وسلامته (الجسدية والمعنوية)، لتنتهي بالحقوق والحريات التي تحفظها قوة القانون. كون الحريات الأساسية محدَّدة بقائمة هو أمر واضح في كتابنا السابق [*نظرية في العدالة*]، لكن استعمال "الحرية الأساسية" هكذا بصيغة المفرد في صياغة المبدأ يحجب هذه الخاصية المهمة في تلك الحريات [هكذا بصيغة الجمع].

حسب هذه المراجعة، ليس هناك أية أسبقية يمكن أن ننسبها إلى الحرية من حيث هي كذلك كما لو كانت لممارسة أمر يُدعى "الحرية" قيمة سائدة وكانت هي الغاية الرئيسية – إن لم تكن الوحيدة – للعدالة الاجتماعية والسياسية ذاتها. فحتى وإن ساد الاعتقاد ضد فرض قيود قانونية وغيرها على تصرف الناس من دون داعٍ كافٍ، إلا أن هذا الاعتقاد لا تنشأ عنه أسبقية خاصة لأية حرية معينة من الحريات. فلو رجعنا إلى تاريخ الفكر الديمقراطي عبر التاريخ لوجدنا أن التركيز قد وقع فيه على الحصول على جملة من الحقوق والحريات المعيّنة، إضافة إلى ضمانات دستورية محدَّدة، كما هو الشأن، مثلا، في مختلف المواثيق والإعلانات المتصلة بحقوق الإنسان. إن العدالة بوصفها إنصافا تندرج ضمن هذا التقليد.

يمكننا أن نضع قائمة للحريات الأساسية بطريقتين. إحداهما تاريخية : نضع جردا لمختلف الأنظمة الديمقراطية لنستخلص قائمة من الحقوق والحريات التي تبدو أساسية ومكفولة في أنظمة تُعتبر الأكثر نجاحا عبر

[13] يمكن أن يكون هذا المبدأ مسبوقا بمبدأ أسبق منه أصليا يقتضي الاستجابة إلى الحاجات الأساسية، على الأقل من حيث أن تلبيتها شرط ضروري للمواطنين كي يقدروا على فهم حقوقهم وحرياتهم الأساسية ويمارسونها بصورة مجدية.

التاريخ. بطبيعة الحال، ستار الجهل• يعني أن هذا النوع من المعلومة غير متوفر للأطراف♦ في الوضع الأصلي [المفضي إلى الاتفاق] بل هو متوفر لك ولي كأفراد في صياغة العدالة بوصفها إنصافا[14]. إننا أحرار تماما في استعمال هذه المعلومة لتحديد مبادئ العدالة التي نضعها بين أيدي الأطراف [في الوضع الأصلي حتى وإن كانت هذه الأطراف تتداول وفق مبدأ ستار الجهل].

الطريقة الثانية في وضع القائمة المذكورة هي ذات طابع تحليلي : ننظر في أي من الحريات التي تزودنا بالشروط الاجتماعية والسياسية الأساسية في إيجاد السبل لتحقيق تطور لائق وممارسة تامة للقوتين الأخلاقية لدى الأشخاص من حيث هم [أولا] أشخاص أحرار و[ثانيا] متساوون. وعليه، نقول: أولا، إن الحريات السياسية المتساوية وحرية الفكر تمكّن المواطنين من تنمية هاتين القوتين وممارستهما في حكمهم على مدى عدالة بنية المجتمع القاعدية وسياساتها الاجتماعية ؛ ثانيا، إن حرية الضمير وحرية التجمع تمكّن المواطنين من تنمية قواهم الأخلاقية وممارستها في تشكيل تصوراتهم للخير ومراجعتها والسعي لها بصورة عقلانية، إما فرديا، أو مع الغير مثلما يحدث غالبا.

تلك الحقوق والحريات الأساسية تحفظ المدى المطلوب وتضمنه في ممارسة القوتين الأخلاقيتين في الحالتين الجوهريتين التي أتينا على ذكرهما منذ حين، أي ممارسة تلك القوى في الحكم على عدالة مؤسسات المجتمع القاعدية والسياسات الاجتماعية بالنسبة إلى الحالة الأولى وممارسة تلك القوى في سعينا لتحقيق تصورنا للخير بالنسبة إلى الحالة الثانية. إن ممارسة قوانا بهذه الطريقة لهو أمر أساسي بالنسبة إلينا بوصفنا مواطنين أحرارا ومتساوين.

لنلحظ، هنا، كيف أن مبدأ العدالة الأول لا ينطبق على بنية المجتمع القاعدية فحسب (وهذا هو شأن المبدأ الثاني أيضا) بل كذلك، وبصورة أخص، على ما نعتبره دستورا، مكتوبا كان أو غير مكتوب. لنلحظ أيضا كيف أن بعضا من هذه الحريات، لاسيما الحريات السياسية المتساوية وحرية الفكر والتجمع، من المفروض أن يكون مضمونا في دستور. إن ما يمكن تسميته بــ "السلطة التأسيسية"، مقابل "السلطات العادية"، ينبغي أن يكون مؤسَّسا، كما يلزم، في شكل نظام حكم : أي في الحق في الانتخاب وتقلد المناصب وفي ما يسمى بمواثيق الحقوق وكذا في الإجراءات المعتمدة في تعديل الدستور مثلا.

• ترجمة لـ « veil of ignorance » . هذه فكرة مفتاحية في نظرية العدالة عند جون رولز. المقصود بها، عموما، هو تلك الوضعية، الافتراضية، السابقة على العقد (وهي شرط مسبق لإبرامه) التي تتجرد فيها الأطراف من مصالحها ورغباتها وتصوراتها الخاصة من أجل إبرام هذا العقد كي يكون في صالح الجماعة كلها. *المترجم*

♦ يأخذ جون رولز كثيرا من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي.

[14] لابد أن أشير هنا إلى وجوب التمييز بين ثلاثة زوايا نظر في ما يخص العدالة بوصفها إنصافا : الأولى تتعلق بالأطراف في الوضع الأصلي [قبل إبرام العقد] ؛ الثانية تتعلق بالمواطنين في مجتمع محكم التنظيم ؛ الثالثة تتعلق بوجهة النظر التي لي ولك في نظرتنا إلى العدالة بوصفها إنصافا من حيث هي تصور سياسي، محاوليْن استعمال هذا التصور لتنظيم أحكامنا المتروية ضمن وجهة نظر منسجمة واحدة تصلح على جميع مستويات التعميم. لنتذكر أن الأطراف تبدو [كما ورد في كتاب رولز "نظرية في العدالة"] كما لو كانت عبارة عن أشخاص مصطنعين يشاركون في تدبير يستهدف بناء إطار يضبط أغراضنا الفلسفية. في ما يتعلق بهذه المسألة، أنظر *Political Liberalism* ، ص. 28 [كتاب متأخر للمؤلف نفسه].

إن هذه المسائل متصلة بما نسميه بالأساسيات الدستورية (constitutional essentials)، وهي أساسيات مرتبطة بمسائل جوهرية تشترط، بسبب التعددية السياسية، حصول اتفاق سياسي نافذ بأكبر سرعة ممكنة حولها. وبالنظر إلى الطبيعة الجوهرية لهذه الحقوق والحريات – التي تفسَّر، جزئيا، بالمصالح الأساسية التي تأتي لحمايتها – وبالنظر أيضا إلى أن سلطة الشعب على تشكيل صيغة للحكم سلطة أسمى (مختلفة عن تلك السلطة العادية التي يمارسها أعوان نظام الحكم بصورة روتينية)، فإن المبدأ الأول هو الذي يحظى بالأسبقية.

المقصود بهذه الأسبقية (كما قلنا) أن يكون المبدأ الثاني للعدالة (الذي يتضمن مبدأ الفرق كجزء منه) مطبَّقا في ظل مجموعة من المؤسسات الكفيلة بالاستجابة لمتطلبات المبدأ الأول (بما في ذلك مطلب ضمان سمة الإنصاف في الحريات السياسية) كما هو مفترض فيها في مجتمع محكم التنظيم.

سمة الإنصاف في الحريات السياسية من شأنه جعل المواطنين المتساوين من حيث المواهب والعزيمة يتمتعون بنفس الحظوظ تقريبا في التأثير في سياسات الحكومة وفي الوصول إلى مناصب عليا مهما كانت طبقتهم الاجتماعية والاقتصادية. ولتفسير أسبقية المبدأ الأول على المبدأ الثاني نقول إن هذه الأسبقية تنفي المبادلة (دفع المقابل) بين الحقوق والحريات الأساسية المعنية بالمبدأ الأول والمنافع الاجتماعية والاقتصادية المضبوطة بمبدأ الفرق [المتضمَّن في المبدأ الثاني]. مثلا، الحريات السياسية المتساوية لا يمكن نكرانها على فئة معينة بحجة أن تمتعهم بها سيمكّنهم من قطع الطريق أمام سياسات تكون ضرورية في سبيل التنمية والفاعلية. كما لا يمكننا، مثلا، أن نبرِّر قانونا انتقائيا للخدمة العسكرية الإلزامية يقضي بتأجيل الخدمة لفائدة البعض بسبب الدراسة أو إعفائهم منها بحجة أن في ذلك فعالية اجتماعية من أجل الحفاظ على القوات المسلحة وفي الوقت ذاته حث من هم معنيون بهذه الخدمة، ولم يلتحقوا بها بعد، على اكتساب مزيد من المهارات بفضل مواصلتهم للدراسة. ولما كانت الخدمة العسكرية الإلزامية تدخلا قويا في الحريات الأساسية والمساواة في المواطنة، لا يمكن أن يقع تبريرها بأي ضرورات أدنى من تلك التي تخص الدفاع عن هذه الحريات ذاتها.

هذا، وهناك نقطة أخرى تخص هذه الأسبقية : عندما نؤكد أسبقية الحقوق والحريات الأساسية، فإننا نفترض سيادة عدد من الشروط المواتية بصورة معقولة، أي أننا نفترض وجود شروط تاريخية، اقتصادية واجتماعية من شأنها تمكيننا، في ظل وجود الإرادة السياسية، من إقامة مؤسسات سياسية فعالة تسمح لنا بتحديد مجال مناسب لممارسة هذه الحريات. المقصود بهذه الشروط أن الحواجز التي تحول دون قيام نظام حكم دستوري (في حالة وجود هذه الحواجز) إنما تعود في معظمها إلى الثقافة السياسية والمصالح الفعلية وليس، مثلا، إلى نقص في الوسائل الاقتصادية، أو في التربية والتعليم، أو في تلك المهارات الكثيرة التي يتطلبها تسيير نظام حكم ديمقراطي.

إنه لمن الأهمية بمكان ملاحظة الفرق بين مبدأ العدالة الأول ومبدئها الثاني، ذلك أن المبدأ الأول، كما يقع تأويله، يخص الأساسيات الدستورية، بينما يخص المبدأ الثاني تكافؤ الفرص المنصف ويقضي بأن يكون التفاوت

الاجتماعي والاقتصادي، كما أوضحناه في كتابنا السابق، خاضعا لمبدأ الفرق. وحتى وإن كان في مبدأ تكافؤ الفرص [بصورة عامة] ما هو متصل بالأساسيات الدستورية – مثل المبدأ القاضي بأن يكون المجتمع منفتحا، مجتمع تكون المسارات المهنية فيه متاحة أمام المواهب (كما جاءت العبارة المستعملة في القرن الثامن عشر) – إلا أن سمة الإنصاف فيه تشترط أكثر من ذلك من دون أن يُعدّ واحدا من الأساسيات الدستورية. كذلك، حتى وإن كان وجوب توفير حد اجتماعي أدني يكفل تلبية الحاجات الأساسية لجميع المواطنين يعدّ، هو الآخر، من الأساسيات الدستورية، إلا أن مبدأ الفرق يقتضي أكثر من هذه الأساسيات من دون أن يُعدّ منها.

القاعدة التي يقوم عليها التمييز بين مبدأي العدالة لا تتمثل في كون المبدأ الأول معبرا عن قيم سياسية، عكس المبدأ الثاني، ذلك أن كلي المبدأين يعبران عن هذه القيم. يجب أن ننظر إلى بنية المجتمع القاعدية على أن لها دورين متساويين من حيث الأهمية يتصل أولها بالمبدأ الأول بينما يتصل ثانيهما بالمبدأ الثاني انظر كتابنا "نظرية في العدالة"، الفصل 11). بالنسبة إلى الدور الأول، بنية المجتمع القاعدية تحدّد الحريات المتساوية الأساسية وتضمنها (بما في ذلك سمة الإنصاف في الحريات السياسية) وتقيم نظام دستوريا عادلا. أما بالنسبة إلى الدور الثاني، فإن هذه البنية توفر المؤسسات اللازمة للعدالة الاجتماعية والاقتصادية بأكثر الصيغ ملاءمة للمواطنين من حيث هم أحرار ومتساوون. لذلك، فإن المسائل التي يطرحها الدور الأول متصلة بكيفية الحصول على السلطة السياسية وممارستها. وللاستجابة لمبدأ المشروعية اللبرالي، نأمل فض هذه المسائل على الأقل بالرجوع إلى القيم السياسية التي تمثل القاعدة التي ينطلق منها العقل العمومي الحر.

اعتماد مبدأي العدالة وتطبيقهما يتمان عبر أربع مراحل متتالية. في المرحلة الأولى، تتبنى الأطراف مبدأي العدالة وراء ستار الجهل ليقع رفع شح المعلومات عنها في كل مرة، تدريجيا، كلما حصل التقدم عبر المراحل الثلاث المتبقية. تأتي بعد ذلك المرحلة الثانية التي تخص الاتفاق على دستور ثم المرحلة الثالثة، التشريعية حيث تُشرَّع القوانين بحسب ما هو منصوص عليه في الدستور وما يقتضيه مبدآ العدالة ويسمحان به. أما المرحلة الرابعة والأخيرة، فهي تخص تطبيق القوانين من طرف الإداريين والامتثال لها من طرف المواطنين عموما وتأويل الدستور والقوانين من قِبل الجهاز القضائي. في هذه المرحلة الأخيرة، يحصل لكل واحد من الأطراف المتعاقدة تمام المعرفة بجميع الوقائع. إن المبدأ الأول ينطبق في مرحلة الاتفاق على دستور ؛ على أن يظهر مدى ضمان الأساسيات الدستورية، بشكل أو بآخر، في صيغة الدستور ذاته والترتيبات التي تضمنها والطريقة التي تعمل بها هذه الترتيبات في الممارسة. أما المبدأ الثاني، فإنه يختلف لأنه ينطبق على مستوى المرحلة التشريعية (المرحلة الثالثة) ويتصل بجميع أصناف التشريعات الاجتماعية والاقتصادية وكذا بالكثير من المسائل التي تظهر على هذا المستوى. أما معرفة مدى تحقيق أهداف المبدأ الثاني، فإن الأمر يصعب البت فيه. إن مثل هذه المسائل تبقى دوما، إلى حد ما، محل أخذ ورد معقولين، كما تبقى مرهونة بالمواقف والأحكام التي نصدرها بخصوص المعلومة الاجتماعية والاقتصادية التي هي معقَّدة أصلا. كما يمكننا أن نتوقع حصول الاتفاق على الأساسيات الدستورية بسهولة أكثر منه على المسائل المتصلة بالعدالة التوزيعية بمعناها الضيق.

وعليه، فإن الأسس التي ننطلق منها في التمييز بين الأساسيات الدستورية المعنية بالمبدأ الأول ومؤسسات العدالة التوزيعية المعنية بالمبدأ الثاني لا تفيد بأن المبدأ الأول يعبر عن قيم سياسية والمبدأ الثاني لا يعبر عن هذه القيم، بل، بالأحرى، تفيد بأن هناك أسسا أربعة لهذا التمييز :

1. مبدآ العدالة يتصلان بمراحل مختلفة من التطبيق ويحددان دورين متمايزين في بنية المجتمع القاعدية.
2. حل مسألة الأساسيات الدستورية هو أكثر الأمور استعجالا.
3. من الأسهل بكثير الحكم على ما إذا كانت تلك الأساسيات الدستورية مضمونة، كما
4. يبدو ممكنا التوصل إلى اتفاق حول الصيغة التي ينبغي أن تكون عليها هذه الأساسيات، لكن ليس في كل تفصيل بطبيعة الحال، وإنما في الخطوط الرئيسية على الأقل.

من بين الطرق في فهم فكرة الأساسيات الدستورية هي ربطها بفكرة المعارضة الصادقة التي هي فكرة جوهرية في النظام الدستوري. إن نظام الحكم ومعارضته الصادقة يتفقان على هذه الأساسيات الدستورية؛ وهذا ما يجعل نظام الحكم مشروعا من حيث نواياه والمعارضة مخلصة في الدور الذي تقوم به من حيث هي كذلك. فعندما يكون الصدق لدى الطرفين سمة راسخة ويحظى اتفاقهما بالاعتراف المتبادل يكون النظام الدستوري مضمونا. أما الاختلافات بشأن أنسب المبادئ المعتمدة في العدالة التوزيعية بمعناها الضيق والمُثل التي تنبني عليها، فيمكن تكييفها ضمن الإطار السياسي الموجود حتى وإن لم يحالف التوفيق التام ذلك في جميع الأحوال.

وحتى وإن كان مبدأ الفرق لا يُعتبر من الأساسيات الدستورية إلا أنه من الأهمية بمكان محاولة ضبط أنسب فكرة للمساواة للمواطنين من حيث هم أحرار ومتساوون، ومن حيث هم أعضاء في مجتمع حريصون بأكبر قدر ممكن على التعاون مدى الحياة. أعتقد أن هذه الفكرة تتضمن فكرة المعاملة بالمثل[15] بأعمق المعاني؛ مما يجعل المساواة الديمقراطية المفهومة بهذه الطريقة الصحيحة تقتضي نوعا من مبدأ الفرق. أقول "نوعا من" لأنه قد تكون هناك إمكانيات أخرى قريبة منه.

[15] إن فكرة المعاملة بالمثل كما هي مفهومة في العدالة بوصفها إنصافا هي علاقة بين المواطنين تعبّر عنها مبادئ العدالة التي تضبط عملا اجتماعيا ما ينخرط فيه الجميع في تعاون حيث يقوم كل واحد منهم بالجزء الذي يقع على عاتقه وفق القواعد والإجراءات المتفق عليها فيكون هو المستفيد أكثر مما لو كان الحال على غير ذلك.

*توصل (ك.ليفي شتراوس) في دراسة عن الأنثروبولوجيا البنيوية anthropolo-gie structurale نشرها سنة 1958 إلى جملة من النتائج من أهمها:

- إن هناك علاقة وطيدة ومعقدة جدا بين اللغة و الثقافة.
- يمكن النظر للغة باعتبارها منتوجا ثقافيا.
- إن اللغة هي الشرط الأول لنشأة الثقافة.
- تتوقف التنشئة و التطبيع أي نقل الموروث الثقافي على اللغة
- لكل ثقافة بنية مما ثلة تماما للغة.

ويتبين من هذه النتيجة التي استخلصها ((شتراوس)) المصاعب التي يعانيها المترجمون الذين ينقلون أدبيات الإبداع نثرا وشعرا من لغة إلى أخرى مهما كان تمكنهم من اللغة التي ينقلون إليها.

*عن مقالة للدكتور محمد العربي ولدخليفة في كتاب /العربية الراهن و المأمول /الصادر عن المجلس الأعلى للغة العربية مطبعة الأمة 2009 ص:21

إن انتقاء مواضيع معينة من مختلف اللغات وترجمتها إلى اللغة العربية أمر كفيل بأن يدفعنا إلى إيجاد مقابلات لغوية لمضامينها في اللغة العربية، ونحت مقابلات لغوية أخرى تكون وليدة نظرة إلى الوجود تخصنا بالدرجة الأولى...
وغايتنا هي أن نفكر بهذه اللغة، أي أن نقف بدورنا على أرضية الحداثة.

*فقرة من كلمة العدد:2 من مجلة معالم للأديب مرزاق بقطاش ص:10 مطبعة الشمسية 2010.

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرنكلين روزفلت..الجزائر
الهاتف: 021.23.07.24/25 الفاكس: 021.23.07.07
ص.ب: 575 الجزائر .ديدوش مراد
البريد الإلكتروني: maalem.csla@gmail.com